
فلاديمير نابوكوف
لوليتا
علي مولا
دار أسامة

لوليتا

لوليتا

قصة حب شاذ .. بين شيخ في الخمسين وفتاة في الثانية عشرة

تأليف الكاتب الروسي

فلاديمير نابوكوف

دار أسامة

دمشق مجمع فكتوريا التجاري ـــ تلفون ٢٢٣٢٣٢٦ فاكس: ٢٢٤٨١٨٠ـــ ص.ب ٤٣٠٦

الجمهورية العربية السورية

دمشق ص.ب ٤٣٠٦ ـ هاتف ٢٢٣٢٣٢٦ ـ فاكس ٢٢٤٨١٨٠

مقدمة

تحت عنوان « لوليتا ـــ أو اعترافات رجل أرمل » كتب همبرت همبرت هذه الصفحات قبل ان يتوفى في تشرين الثـــاني (نوفمبر) ١٩٥٢ وهو في سجنه وقبيل محاكمته بأيام .

لقد خوّل همبرت في وصيته محاميه بأن ينشر هذه الصفحات العجيبة الغريبة التي تروي قصة « لوليتا » . وعهد الي المحـــامي بأن أعد هذه الصفحات للنشر ولكنني لم احدث فيهـــا سوى تعديلات بسيطة يقتضيها السياق الروائي بحيث احتفظت القصة بطابعها واسلوبها على الرغم مما تحفل به من عبارات مثيرة ومن اوصاف مكشوفة لارتعاشات جنسية .

ان همبرت يشرح في هذه الصفحات الاعترافية جميع غوامض الجريمة التي اتهم بها والتي كانت خليقة بأن تظل لغزاً محيراً لو لم يوص بنشر اعترافاته .

واذا كان هناك من القراء من يصر عـــلى متابعة مصير

الاشخاص الحقيقيين الكامنين وراء هذه القصة « الحقيقية » فانني اقــدم لهم المعلومات التــالية عنهم مستقاة من المستر « ويندمولر » الذي يرغب في ان تبقى هويتــه مكتومة حتى لا يصل ظل هذه القصة الفــاجرة الى المجتمع الذي يفتخر بالانتساب اليه .

ان ابنته « لويز » هي اليوم تلميذة جامعية . اما « موناداهل » فقد سافرت الى باريس حيث تدرس هناك ، اما « ريتا » فقد تزوجت صاحب فندق في فلوريدا وامــا المسز ريتشارد تيلر فقد لفظت انفاسها بحمى النفاس وهي تضع مولودتها في عشية ميلاد ١٩٥٢ أما « فيفيان دار كتلوم » فقد اصبحت كاتبــة ووضعت كتاباً عن حياتها .

ان قصة (لوليتا) تعالج حالات وانفعالات عاطفية قد يجد فيها المنافقون الاجتماعيون مــا يجب ان يثير الخجل والذعر ولكنها في الواقع ليست سوى رواية واقعية تبسط الواقــع ببساطة وصراحة وصدق .

ولست اهدف هنا الى تمجيد (همبرت همبرت) فهو مخلوق رهيب مخيف ، (وهو شيء) جهنمي لا اخــلاقي ، وهو رمز عن الانحطاط النفسي وهو مزيج من الضراوة والضعة يتكشف عن شقاء نفسي عميق قد يكون (رفيــع) الانحطاط الا انــه ليس بالجذاب ولا بالمثير للعطف والاعجاب .

ومهما كان القارىء موضوعياً فانه لن يستطيــع ان يحله ، وهو يقرأ هذه الصفحات بتجرد ، من خطاياه كمخلوق ذي دهاء

شيطاني خبيث. انه مخلوق شاذ يفتقر الى الكياسة والشهامة ولكنه مع ذلك يعتمل نحو (لوليتا) بمشاعر تهز أوتار الوجـــدان .. ومن غمرة هذا التناقض بين حب همبرت المتسامي وبين تصرفه الحيواني تبدو طرافة هذا الكتاب الخليق بأن يثـــير مشاعر متناقضة ويخلق ضجة اخلاقية في اي وسط يقرأ فيه .

والواقع ان « لوليتا » ستصبـــح قضية دراسية نموذجية في اوساط علماء النفس وكعمل فني فانها لن تعدم نفوذاً تزاوله على المقاييس الاخلاقية لدى القارىء اذ تعرض باسلوب جديد أخاذ دراسات صريحة تنطوي على دروس عامة مستوحـــاة من شخصيات مألوفة في حياتنا كشخصية الطفل الجانح المنحرف وشخصية الأم الانانية وشخصية المهووس الفاجر .

إلا ان القيمة الادبية للكتاب لا تكمن في تحليل هـــذه الشخصيات بقدر ما تكمن في تحذيرنا من الاتجاهات الباطنية والنفسية المكبوتة الخطيرة وفي كشفها للأخطار المحيقة بالنفس التي تشعر بوحدة قاتلة ..

ان قصة « لوليتا » خليقة بان تدفعنا جميعاً من آباء وامهات وعاملين اجتماعيين ومثقفين ومعلمين الى ان نكرس مزيداً من العناية والسهر لمهمه بناء جيل أفضل في عالم أسلم نجنب فيه اليافعين المراهقين الانحراف في غمرة حريـــة لا واعية نحو الخطيئة والفساد .

جوان راي الابن

دكتور في الفلسفة

– ١ –

لوليتا يا ضوء حياتي .. أيتهـا النار المتوقدة في عروقي .. لوليتا يا خطيئتي .. يا من تهزج روحي باسمك .

لو – لي – تا : رأس اللسان حين يمضي في رحـلة من ثلاث خطوات عبر الحلق ، ليدق ثلاثاً فوق الأسنان : لو – لي – تا .

انها « لولو » في الصباح إذ تهب واقفة خارجة من سريرهـا بجسمها الضئيل القصير ..

انها « لولا » في فساتينها القصيرة .. وانهـا « دولي » في المدرسة ... وانها « دولوريس » في سجل النفوس .

ولكنها « لوليتا » .. لوليتا فقط وهي بين ذراعي .

هل كتبت اللعنة منذ الأزل على لوليتـا ذات الاثني عشر ربيعـاً ؟

الواقع انها ولدت ملعونة .. والواقع ان لوليتا ما كانت خليقة بان تأتي الى الحياة لو لم أحب ذات مساء .. ذات مساء في ضمير الأزل حورية أصليّة ، في امارة سحرية على ساحـل

سحري من بحر الغيب .

ولكن أين كان ذلك ؟

لقد كان قبل ان تولد لوليتا بسنوات تساوي ما كنت ابلغ من العمر في ذلك الصيف ...

سيهز القارىء رأسه مكذباً وسيقول ان الاسلوب الخيـالي هو من سمات المجرمين .. القتلة ..

حضرات المحلفين انني اوجه اليكم هذه الاعترافات لا لتقاضوني على اساسها انما لاعرض فيها قبل كل شيء لعبة الإقدار معي .. فانظروا الى القصة من هذا الضوء .

- ٢ -

ولدت في باريس عام ١٩١٠ طفلاً تجري في عروقه دماء كثير من الامم فقد كان والدي الرجل الميسور صاحب الفندق الفخم على الريفيرا ، سويسري الجنسية من أب فرنسي وام نمسوية !!

أما أمي فهي انكليزية وقد توفيت بضربة صاعقة عندما كنت في الثالثة من عمري . فلست اذكر عنهـا شيئاً سوى ما تنطوي عليه ذاكرة وجداني من دفء الحنان الذي كانت تغمرني به ..

ولقد حلت محل امي في البيت ، كمدبرة لاعمـال المنزل غير مأجورة ، شقيقتها الكبرى « سيبيل » التي كان قد تزوجها ابن عم لأبي ثم اهملها .

ولقد قال لي أحدهم انها كانت تحب أبي وانه أقدم على انتهاز هذا الحب في ذات يوم مطير فأمضى معها وقتاً طيباً ثم نسي الأمر بعد ان راق الجو .

والواقع أنني اغرمت بهذه الأم الجديدة على الرغم من تعسف بعض القواعد التي وضعتها لحياتنا في البيت ولعلها ارادت ان تعدّني للحياة كأرمل افضل من أبي المترمل .

كانت خالتي سيبيل ذات عينين زرقاوين وبشرة شاحبة بلون الشموع وكانت تقرض الشعر وذات مزاج شاعري متشائم، فكانت تقول أنها تعرف انها ستموت بعد ان ابلغ السادسة عشرة بقليل ..

ولقد فعلت .. وتوفيت بعد عيد ميلادي السادس عشر ! .

اما زوجها تاجر العطور المشهور فقد أمضى معظم وقته في امريكا حيث اسس شركة عطورات واخذ يشتري من ارباحها الضياع والعقارات .

اما انا فقد ترعرعت طفلاً صحيح البنية سعيداً في عالم وضاء من الكتب المصورة والسواحل البحرية النظيفة وحدائق الليمون والكلاب الاليفة والوجوه الباسمة .

لقد كان عالمي قائماً في محيط فندق « ميرانا » حيث كانت العجائز من السائحات الاميركيات يحدقن بي كظاهرة عجيبة وهن مائلات على عصيهن .. والواقع انني كنت في طفولتي موضع التدليل من الجميع . فهناك مثلاً اميرة روسية مفلسة كانت

تشتري لي الحلوى الغـــالية بينما كانت عاجزة عن سداد حسابها لأبي .

وكان ابي .. البابا العزيز الصغير .. يأخذني في نزهات بحرية بالقارب ، وكان يقرأ لي صفحات من دون كيشوت والبؤساء .

وكنت مولعاً بحبه أكن له الاحترام الشديـد وكنت اشعر بالسعادة اذ اسمع خادمات الفندق يروين الاقاصيص عن صديقاته وعشيقاته الكثيرات اللواتي كن دوماً من النساء الجميـلات الحنونات اللواتي طالما اغدقن علي العطف وذرفن الدموع تـأثراً من يتمي .

اما في الدراسة فقد كنت ناجحـاً كما نجحت كذلك في اكتساب مودة زملائي واساتذتي على حد سواء ولست اذكر تجربة جنسية واضحة المعالم حدثت لي قبل ان ابلغ الثالثة عشرة وألتقي بالصغيرة « آنابيل » سوى حديث جدي مثير ونظري للغاية جرى لي مع رفيق امريكي عن المغـامرات الغرامية التي تجري بين خمائل الزهور وسوى انفعال جنسي عضوي كلمـا اخذت اري الصور العارية المهيجة .

وما لبث والدي ان حدثني بلهجته المرحة النشوى عن الجنس بما قدّر أنه يكفيني في مراهقتي وذلك قبل ان يرسلني الى الكلية الثانوية في ليون .

ويا للأسف فقد ذهب في صيف ذلك العـام في رحلة الى ايطاليا مع سيدة حسناء وابنتها وتركني وحدي لا اجد من اشكو اليه ولا من أستشيره .

- ٣ -

كانت « آنابيل » مثلي ذات دم خليط من أب انكليزي وأم هولندية الا انني لم أعد اذكر ملامحها بذلك الوضوح الذي كنت أتذكرها به قبل ان اعرف لوليتا .

هناك نوعان من الذاكرة البصرية نوع تستطيع أن تتذكر به مخلوقاً ما وانت مفتوح العينين كما كنت افعل لأرى في ذاكرتي آنابيل ببشرتها العسلية وذراعيها النحيلتين وشعرها الاجعد واهدابها الطويلة وفمها الكبير .

ونوع ثان للذاكرة تسترجع به صور الناس وانت مغلق العينين فترى في بصيرتك الداخلية الصورة الوجدانية لمن تتذكر ... تراه كطيف ضئيل بالوان طبيعية (وانني لا أتذكر لوليتا إلا بهذه الوسيلة) .

وكانت آنابيل تصغرني باشهر معدودات وكانت تعيش مع ابيها وأمها (وهما صديقان لخالتي) في فيلا قريبة من الفندق. واني لاذكر كم كنت ابغضهما. فقد كانت الأم متزمتة وكان الأب اصلع معروقاً..

اما آنابيل فقد كانت تماثلني وتماثل افراد الجيل الذين اشرفوا على فجر مراهقتهم من حيث الشعور بتمرد « الحيوان » وبيقظته في جسد كل منا .. ومن حيث الهوس بالدراما ، فكانت آنابيل تحلم بأن تكون ممرضة في بلد آسيوي يقاسي المجاعة ، بينما كنت احلم بان اكون جاسوساً مرموقاً مشهوراً . . وكانت انفعالات « الحيوان » في جسد كل منا ، وهي انفعالات لا تجد لنفسها

تعبيراً ، تسبب لنا الكثير من الألم والضنى .

ولقد وقعنا في حب بعضنا بعضاً حباً جارفاً يائساً دونما استحياء أو خجل . واقول يائساً لاننا كنا تحت رقابة صارمة فلا يسمح لنا بالابتعاد معاً عن مرمى ومسمع اهلنا فما اختلينا إلا سرقة وليلاً في حديقة دارها في حين أن صبية الشوارع كانوا يجدون مئة فرصة مناسبة لاشباع رغبة الامتلاك ..

وحينما كنا نذهب إلى الشاطىء برفقة أهلينا كنا نبتعد عنهم باقصى قدر مسموح وننتهز كل فرصة مباركة لنلتقي ببعضنا ونتبادل الملامسات المحمومة .

فكانت تدخل يدها تحت الرمل وتزحف بها نحوي حتى تلامس أطراف جسدي باصابعها وفي بعض الاحيان كانت ساقها تقوم برحلة حذرة بطيئة لتلامس ساقي وكم كنا نبتهج عندما تبعث الصدفة بصغار يبنون تلال من الرمل تحجبنا عن اعين اهلينا وتتيح لنا قبلات نرشف فيها رضاب بعضنا بعضاً .

ان هذه الملامسات المبتورة كانت تسبب لجسدينا ارهاقاً وهياجاً بالغين ما كانت حتى كل مياه البحر الزرقـــاء لتستطيع تفريج كربتنا واطفاء اللظى الذي يستعر في جسدينا .

ولست آسفاً على ما اضعته من كنوز ذكرياتي اكثر من اسفي على صورة لي ولها بين افراد العائلتين التقطت في المقهى الساحلي في اليوم الاخير من ذلك الصيف المشؤوم وقبيل لحظات من المحاولة النهائية التي قمنا بها لمصارعة القدر .

والحكاية هي اننا استطعنا بالتحجج بالذهاب الى بيت الخلاء

ان نهرب من المقهى الى الشاطيء حيث عثرنا على بقعة رملية معزولة عن الانظار وهناك في ظل بنفسجي من الصخور الحمراء المحيطة بتلك البقعة على شكل كهف طبيعي قمنا بوصلة مختصرة من المعانقات والمداعبات الجريئة التي لم يكن علينا فيها منشاهد سوى نظارة شمس نسيها صاحبها المجهول على الرمال .

وما لبثت ان جثوت على ركبتي ، ولكن في الوقت الذي كدت اوشك فيه على امتلاك حبيبتي خرج من البحر رجلان ملتحيان كانا يستحمان وصعدا الى الشاطيء وهما يصيحان بعبارات الاستحسان والتشجيع الهازئة .

وبعد اربعة أشهر من هذه الحادثة توفيت آنابيل بالتيفوس عندما ذهبت الى جزيرة كورفو اليونانية .

— ٤ —

انني اقلب واقلب ذكرياتي متسائلاً طيلة الوقت عما اذا كان التصدع في حياتي قد بدأ في ذلك الصيف السحيق أم ان شبقي الشديد الى تلك الطفلة كان اول قرينة على فرديتي الانعزالية الوراثية .

وانني اذ احاول ان احلل نوازع شهواتي ودوافعي واعمالي فانني استسلم الى نوع من الخيال المتداعي نحو الماضي وهو خيال يغذي ملكة المناقشة بما لا يحصى من العوامل والاسباب والاحتمالات ليجعل من ذلك الماضي شيئاً معقداً يثير هومي ولكنه يقنعني في النهاية بان قضيتي مع لوليتا قد بدأت بآنابيل بطريقة سحرية مشؤومة .

اني اعرف كذلك بان الصدمة التي سببتها لي وفاة آنابيل قد عززت التشتت النفسي الذي أصابني ذلك الصيف المشؤوم المفعم بالكبت وجعل من ذلك التشتت عقبة دائمة في طريق اي غرام صادفته في سنوات شبابي الباردة .

ذلك لانني ظللت أشعر حتى بعد مرور زمن طويل على وفاتها بأن ذكراها تلاحقني وتحاصرني وتنفذ الي من خلال ذكرياتي عن ذلك التماثل العجيب بيننا حتى في الصدف .. ففي حزيران من ذلك العام (١٩١٩) قبيل وفاتها بأيام دخل الى بيتنا في فرنسا كناري تائه وكذلك دخل الى بيتها في كورفو كناري تائه !!.. هكذا حدثتني في آخر رساله لها .

إيه يا لوليتا هل أحببتني هكذا !

لقد أبقيت لختام قصة آنابيل رواية خبر الموعدالاول الفاشل بيننا ففي ذات ليلة استطاعت ان تخدع العيون الساهرةفيعائلتها فالتقينا على بلاطة تحت ظل خيمة «الميموزا» وكنا نستطيع ان نرى من بين أغصانها الداكنة النوافذ المتألقة بالضوء حيث « الاعداء » منشغلون بلعبة « البريدج » .

كانت آنابيل ترتجف وتهتز عندما كنت اقبلها على طرف شفتها وعلى لحمة اذنها الدافئة .. وكانت السماء صافية يلتمع فيها عنقود من النجوم التماعاً خفيفاً خلال أشباح اوراق الميموزا الحادة ، واستطعت ان ارى وجه آنابيل بوضوح كما لو كان يتألق بضوء خفي .

كانت هناك فرجة ضيقة بين ساقيها الجميلتين البضتين .. فلما

مددت يدي بينهما واستطاعت يدي أن تعثر على ما كانت تسعى اليه ارتسمت على قسمات آنابيل تعابير تائهة وحالمة ، تنطق بشعور هو مزيج من اللذة والألم .

كانت تعلوني في جلستها فكان رأسها ينحني نحوي بحركة ناعسه ناعمة كلما شعرت وهي في غمرة نشوتها بما يدفعها الى تقبيلي بينما كانت ساقاها الدافئتان تطبقان على معصمي وتضغطان عليه لتنفرجا من جديد .

أما فمها المرتجف المتوتر فكان يرسل أنفاساً محترقة تنم عما كان يعتلج فيها من ضنى كانت تحاول أن تفرّج عنه بأن تفرك شفتيها الجافتين بشفتي ثم تبتعد بوجهها عني وتقذف جدائلها إلى الخلف بانتفاضة متشنجة من رأسها ، ثم تعود من جديد بنظرات غائمة وتتركني أرتشف رضابها .. وفي غمرة هذا الهياج كنت أشعر بكرم يدفعني لأن أهبها كل شيء .. قلبي .. عنقي .. أحشائي .. وهي تمسك بيدها البضة بوحش شبقي ..

واني لأذكر عبق رائحتها .. رائحة هي مزيج من رائحة البودرة التي سرقتها من وصيفتها الاسبانية ومن رائحة البسكويت المطعم بالشوكولاته .. مزيج من رائحة امرأة وطفلة .. لقد أسكرني ذلك العبير وحملني على أن أهم بالخطوة التالية .. وهنا اهتز الدغل القريب وفرقعت الأعشاب فابتعدنا مبهورين مذعورين عن بعضنا بعضاً والشبق يكوينا . وعندما أدركنا أن مصدر هذه الجلبة كان هرة تائهة في الحديقة سمعنا

صوت أمها يناديها بلهجة متصاعدة القوة ... فتسللت من خميلة الميموزا عائدة .

لقد ظلت ذكرى هذه الجلسة تحت خميلة الميموزا تلاحقني كاللعنة ، ظللت دائماً أشعر بشبح تلك الفتاة الصغيرة باطرافها النحيلة ولسانها الدافىء وهو يلاصقني ولم أستطع أن أفك هذا السحر عني إلا بعد أربعة وعشرين عاماً يوم أعدت إلى الحيـاة آنابيل في جسد لوليتا وشخصها .

- ٥ -

كلما رجعت بذاكرتي إلى أيام شبابي بدت لي هـــذه الأيام وكأنها تتناثر حطاماً أمامي .. وفي تلك الأيام كنت في علاقاتي الجسدية مع النساء عملياً وساخراً ونشيطاً فكنت أجد كفايتي أثناء دراستي بلندن وباريس في بائعات الهوى .

وفي بادىء الدراسة نويت أن أحصل على شهادة في علم النفس كما يفعل الكثيرون من المفتقرين الى المواهب ولكني وجدت نفسي أكثر أدقاعاً من هؤلاء فانتقلت إلى دراسة الأدب الانكليزي ، تلك الدراسة التي ينتهي فيها الكثيرون من الشعراء الخائبـين كأساتذة يدخنون الغليون ويرتدون الألبسة الخشنة .

على أن باريس هي التي لاءمتني فكنت أقضي وقتي فيهـا مناقشاً الأفلام السوفياتية مع الروس البيض المجردين من الجنسية ، مجالساً الفوضويين والمهسترين والفلكيين في «مقهى لي دو ماغو» .

وفي باريس نشرت دراسات ركيكة في صحف ومجلات غامضة ووضعت كتاباً باسم « التاريخ المختصر للشعر الانكليزي » ثم مضيت أضع مرجعاً عن الأدب الفرنسي للطلاب البريطانيين وقد اشغل ذلك سنواتي حتى بلغت الأربعين ، وعندما اعتقلت كان الجزء الأخير من هذا المرجع قد أُعد للطباعة .

وقد تنقلت من وظيفة قلمية إلى أخرى مستثمراً صداقاتي مع الأخصائيين الاجتماعيين والمحللين النفسانيين كيما أزور معهم المياتم والاصلاحيات حيث كنت أرى في وجوه الفتيات الشاحبات ذوات الأهداب المسدلة ما يذكرني بصورة تلك التي تلازم أحلامي ..

هنا أريد أن أبسط الفكرة التالية التي خلصت اليها من تعرفي على عالم الصغيرات والمراهقات :

هناك فتيات بين سن التاسعة والرابعة عشرة يظهرن لعين بعض الرجال المسعورين أكبر مما هن بضعفين . فيتكشفن لهذا النوع من الرجال عن طبيعتهن الحقيقية التي ليست بالطبيعة الإنسانية إنما هي طبيعة شهوانية مسعورة .. طبيعة جهنمية إبليسية .. ولهذا فقد أطلقت على هذا النوع من الصغيرات اسم « الحوريات المسعورات بالشبق » .

ربما لاحظ القارىء أنني وضعت حدوداً زمنية لهذا النوع من المخلوقات ، وأريد من القارىء أن يرى السنوات الممتدة في حياة الفتيات من التاسعة حتى الرابعة عشرة كتخوم تحد جزيرة سحرية تقطنها تلك « الحوريات المسعورات » اللواتي يتكشفن

لي عن مظهر شهواني يغري بهن .

وقد يتساءل القارىء : هل جميع الفتيات بين سن التاسعة والرابعة عشرة هن من « الحوريات المسعورات » ؟

الجواب كلا بالطبع وإلا جننا أنا وأمثالي العائشين في أسرة الوحدة الذين يكتشفون المهيجات في بعض تلك الفتيـــات ويستذوقون نوعهن .

إن هناك شيئاً خفياً يفرق بين « الحورية المسعورة » وغيرها من الصغيرات .. انه شيء يشعر به الخبير بهن ويحس بسحره الجنسي الخفي فيكتشف الواحدة منهن من بين رفيقاتهـــا الكثيرات .. فالواقع أن نسبة « الحوريات المسعورات » هي قليلة جداً بين الفتيات وانه ليقتضي منك ان تكون فناناً او مجنوناً او فريسة السويداء المزمنة أو رجلاً تضطرم في عروقـه نيران شهوة آكلة حتى تستطيع أن تتعرف على « الحورية المسعورة » في الحال من بين رفيقاتهـا اللواتي يظهرن للشخص العادي متشابهات قلباً وقالباً معها .

ان « الحورية المسعورة » انما هي شيطان في ثيـــاب طفل ملاك وانها لتختلط برفيقاتها فلا يشعرن بما تمتاز عنهن ولا هي تشعر بتأثيرها المزلزل الكاسح ..

امـــا وان فكرة الحدود الزمنية تلعب مثل ذلك الدور السحري في هذا الأمر فانه لا يجب على القارىء ان يدهش إذ يعـــلم بانه يجب ان يكون هناك فارق في السن قدره ثلاثون أو اربعون عاماً (وفي بعض الحالات ٩٠ عاماً) بين « الحورية

المسعورة » والرجل حتى يقع هذا الأخير تحت سحر « الحورية المسعورة » . فالقضية هي قضية تكيف مع البؤرة وقضية مسافة معينة تطرب العين الباطنية لقهرها اذ تذللها باجتيازها لها ثم انها اخيراً قضية تناقض معين يدركه الذهن ويلاحظه بحواسه الداخلية وفي غمرة لهثات من الغبطة العارمة .

فعندما كنت طفلاً وكانت آنا بيل العزيزة طفلة لم تكن تلك الحبيبة « حورية مسعورة » في نظري فقد كنت أشعر بأنني نظيرها المتساوي معها العائش وإياها على نفس تلك الجزيرة الزمنية المسحورة .

ولكنني اليوم في عام ١٩٥٢ وبعد مرور تسعة وعشرين عاماً على تلك الفترة ، اظن بأنني استطيع ان أتعرف فيها على « العفريتة » الاولى التي ركبت حياتي .

لقد احببنا بعضنا حباً فجاً سابقاً لأوانه وبضراوة غالباً ما تدمر حياة المراهقين ، واذا كانت قوتي قد انقذت حياتي من الدمار فان السم قد وصل الى الجرح الذي احدثه حبها في كيان حياتي فظل جرحاً مفتوحاً مقروحاً الى الأبد، وسرعان ما وجدتني بعد اصابتي به انضج واترعرع وسط حضارة تسمح لرجل في الخامسة والعشرين ان يغازل فتاة في السادسة عشرة من عمرها ولكنها لا تسمح له بمغازلة فتاة في الثانية عشرة من عمرها .

فلا عجب والحالة هذه ان كانت حياتي في عهدها الاوروبي مزدوجة ذات كيانين وعالمين مختلفين . فظاهرياً كنت على

علاقات طبيعية مع عدد من النسوة اللواتي يتمتعن بوقتهن أما باطنياً فقد كنت اشعر بلهيب جهنمي من الشهوة والشبق حيال كل « حورية مسعورة » تمر بي من دون ان اجرؤ على التحرش بها بصفتي مواطناً يوادع القانون .

وهكذا فلم تكن المخلوقات النسائيـــة اللواتي كنت اسمح لنفسي بمقاربتهن ، اكثر من وسائل ووسائط مسكنة ملطفة .

واذا كنت استطيع الاعتقاد بأن المشاعر الانفعاليـة التي كنت استقيها من الفسق والزنى كانت الى حد كبير ذات المشاعر التي يعرفها البالغون اذ يتواصلون مع البالغات في ذلك الايقاع الرتيب الذي يهز العـــالم ويجدد الحياة فيه ، فان الفارق بيني وبينهم يكمن في ان اولئك السادة لم يتذوقوا كما فعلت شيئاً من غبطة اخرى حادة متوقدة تبعث نشوة ابلغ ممـــا تبعثه نشوة الوصال بين ذكر وانثى متماثلين. وهكذا فقد كانت اكثر احلامي الاستمنائية ابهاماً ادعى لخلب العقول وبهرها من أي نشاط فجوري فاسق يبتدعه اي كاتب عبقري او يحلم بـه اي عنين موهوب . لقد كان عالمي منفصماً على ذاته فكنت احس بوجود جنسين من النساء ، واحس ببعدي عنهما معاً فأحدهما لا أتجانس معه وثانيهما لا تسمح الاعراف الخلقية والمدنية والاجتماعية بأن اقضي منه وطري ..

لقد ادركت هذه الحقيقة الآن امـــا عندما كنت في العقد الثالث وفي مطلع العقد الرابع فانني عجزت عن ان افهم كربي وغصتي بوضوح .. فبينما كان جسدي يعرف الى من يحن ويتوق

كان عقلي يرفض الاستجابة لتوسلات جسدي ويرفض مطاوعته على تفريج كربه ، فكان الخوف والخجل يفترساني احياناً وكان التفاؤل المتهور يسم تصرفاتي احياناً، وكانت المحرمات الاجتماعية الاخرى تأخذ بخناقي وترهقني ، فاذا استشرت المحللين النفسيين وعدوني دوماً بالشفاء من حالتي .. ووعدوني دائماً بتحرر مزعوم مما زعموا انه شهوات كاذبة . اما أنا فلم اكن ارى موضعاً واداة لاطفاء شبقي سوى نظيرات آنا بيل في السن والمظهر فكانت صورهن تتملك احلام يقظتي كنذير بجنون وشيك ..

وهنا استسمح القارىء في ان اذكّره بان قانون اليافعين والشباب الصادر عام ١٩٣٣ في بريطانيا قد فسر تعبير « الطفلة اليافعة » بأنها الطفلة التي تجاوزت الثامنة الا انها لم تتجاوز الرابعة عشرة. اما في ولاية ماساشوسيتس الأمريكية فان القانون يعتبر القاصرة « فتاة بين السابعة والسابعة عشرة » وذلك فيما يتعلق بما قد تتعرض له الفتيات من المنحطين والفاسدين .

واذكر ان هيو برافتون الكاتب المرموق قد اقام الدليل على ان « راحاب » كانت عاهرة محترفة منذ ان بلغت العاشرة .

انني استطيع ان اسوق الكثير من الشواهد التاريخية على اضطرام الجنس والشهوة في بعض القاصرات وعلى انهن تصرفن تصرف النساء البالغات .. كما ان هناك ما لا يحصى من الزيجات في الشرق حيث يتزوج رجل في الثمانين قاصرة لا تعدو العاشرة .

ثم ألم يأتك خبر الشاعر الايطالي العبقري دانتي ؟ لقد وقع دانتي في غرام بياتريس وهي لم تزل في التاسعة يافعة صغيرة رآها

عام ١٢٨٤ متجملة متأنقة معطرة في حفلة خاصة دعي اليها في فلورنسه ..

اما ستراركْ [١] فقد جن في عشق حبيبته لورين وهي بعد يافعة (وجنية متألقة بما يثير الشبق) في الثانية عشرة من عمرها تقفز وتلعب فوق سهول وسفوح تلال فولموز .

ولكن ما لنا ومال الماضي !..

لقد حاولت ان اكون انساناً صالحاً متمدناً .. واستطيع ان اقول عن نفسي « لقد حاول همبرت ان يكون عن حق صالحاً مفلحاً فلم يكنّ للقاصرات اليافعات العاديات إلا اعمق الاحترام وما كان ليقدم على ان يمس طهارتهن وبراءتهن مهما كانت ظروفه مؤاتية ولكن قلبه كان في الوقت ذاته يتحرق ويتلظى عندما تقع عيناه بين لفيف من القاصرات البريئات ، على طفلة جهنمية مثيرة بعينيها البارقتين وشفتيها الشهوانيتين وسحرها الباطني المثير .. طفلة يعاقبك القانون بالسجن عشر سنوات لمجرد ان يثبت عليك انك تنظر اليها نظرة فاجرة » .

وهكذا مضت حياتي .. كنت دائماً قادراً على ان اقارب المرأة الناضجة ولكن القاصرة الشهوانية هي التي كنت اشتهيها واحن اليها .

وهكذا كنت اداري هذا الحنين بأن اذهب الى الحدائق العامة حيث تلعب الفتيات وحيث لا بد ان توجد بينهن

(١) احد كبار شعراء النهضة في ايطاليا ، وقد اشتهر بقصائده الغزلية المبتذلة التي تغنى فيها بحب حبيبته الحورية المراهقة .

«حورية مسعورة» اتأملها بنظرات خفية من وراء كتاب مرتجف واسترق النظر الى مكوراتها ومدوراتها ولحم ساقها البض وهي تقفز وتدور لاهية عابثة غير عالمة باللهيب الجهنمي الذي يفترس اعصابي ..

لقد جلست ذات مرة بجانبي عجوز شمطاء لاحظت ان وجهي يتلون فسألتني اذا كنت اشكو ألماً في المعدة .

ألا اغربي عني ايتها البومة البشعة واتركي اليافعات المتضرجات المتألقات بالجنس يلعبن حولي للأبد .

ما أحيلى تلك اللحظات ... لحظات كنت اطل فيها من نافذتي فأرى واحدة من تلك الصغيرات تتعرى امام مرآتها وتراقب وتدرس جسدها بفضول .. وما أحيلى تلك الملامسات المبهورة التي كانت تتاح لي في عربات الترام عندما تشاء الصدفة ان تزحمني في وقفتي واحدة من « الحوريات المسعورات » لم يتكور بعد ثديها ولكن الحرارة تشيع من جسدها واطرافها فتصيبني بحمى من النشوة .

- ٦ -

بالمناسبة يجب ان اذكر بانني طالما تساءلت : ما الذي يحدث لتلك « الحوريات المسعورات » بعد ذلك !

ألا تؤثر الخلجات الباطنية الخفية التي كنت اسرقها في مستقبلهن في هذا العالم المتفاعل بقاعدة العلة والسبب ؟

وكنت اتساءل بعد كل تجربة مع الواحدة منهن :

لنفرض اني امتلكتها دون ان تفهم مطلقاً معنى ذلك ، ولكن ألن تخبر احداً بالأمر فيما بعد ؟

ألا تراني اشترك في صياغة اقدارها اذ اقحمتها في جنوني الشهواني ؟

أواه لقد كانت هذه التساؤلات ولا تزال مصدر عجب رهيب تملكني دائماً .

على انني علمت بعض الشيء بما تؤول اليه الواحدة منهن بعد ان تكبر .. عرفت بعض الشيء كيف يكون شكلهن .

ففي ذات اصيل من ايام الربيع كنت اسير في شارع جانبي قرب شارع المادلين في باريس عندما مرت بي فتاة نحيلة رشيقة بخطوات انيقة سريعة ولما التفتُ الى الوراء وجدتها قد فعلت الشيء ذاته .

كانت تكاد لا تصل الى كتفي وكانت ذات وجه بيضاوي جميل مشرق كوجوه معظم الفرنسيات اليافعات فتقدمت نحوها وقد احببت منها اهداب عينيها الطويلة ومفاتن جسدها النحيل التي كان يبرزها ثوبها الضيق .. ولما وجدت انها لا تزال تحتفظ بصدى مراهقتها ارتعدت بقشعريرة الغبطة وشعرت بعروقي تتوتر وانا اتأمل خطوط جسدها الذي لم يتخلص رغم تجاربه الكثيرة من ملامح طفولته ..

سألتها عن سعرها فأجابت بخفة وبصوت كرنين الفضة :

— مائة فرنك

وحاولت ان أساوم ولكنها كانت قـــد لمحت ذلك الشبق اللاهب المخيف في عيني المسدلتي الاهداب فرمشت بعينيهـــا وهزت كتفيها وردفيها قائلة « انت حر ! » وتحركت كما لو كانت تريد ان تمضي في سبيلها .

تذكرت في تلك اللحظة انني كنت اراها ربمـــا قبل ثلاثة اعوام وهي عائدة الى بيتها من المدرسة.. فكانت هذه الذكرى حاسمة المفعول وهكذا مضيت معها الى غرفتها حيث طلبت في الحال وكالعادة « هديتها الصغيرة» وكالعادة اعطيتها المائة فرنك وسألتها عن اسمها وعمرها فأجابت بأن اسمها مونيك وان عمرها ١٨ عاماً .

انني خبير ببنات الرصيف ولا يستطعن ان يخدعنني .. كلهن يجبن بان عمرهن ١٨ عاماً بلهجة حاسمة قاطعة يستخدمنها عشر مرات في اليوم مع عشرة زبائن على الاقل الا ان مونيك لم تكن بأيه حال في الثامنة عشرة من عمرها فلقد اضافت كذباً سنتين أو ثلاثاً الى عمرها الحقيقي الذي استنتجته من تفاصيل جسدها الناحل الرقيق الذي لم ينضج بعد .

خلعت مونيك ثيابها بسرعة مدهشة ووقفت برهة وقـــد لفت جانباً من الستارة على جانب جسدها واخذت تصغي الى انغام كان يرسلها عازف ارغن متجول. كانت تصغي بلذة طفولية ولما فحصت يديهـــا النحيلتين ونبهتهـــا الى الوسخ الكامن تحت اظافرها قالت بسذاجة : « أجل هذا ليس مستحبـــاً » وذهبت الى المغسلة ولكنني اعترضتهـــا قائلاً ان الامر غير مهم

فقد كانت بشعرها الكستنائي الأشعث وعينيهـــا العسليتين البراقتين وبشرتها الشاحبة تبدو رائعة بما فيه الكفاية – والواقع ان ردفيها لم تكونا اكبر من ردفي اية مراهقة .. ويجب ان اقول هنا انهـــا كانت ، من بين الثمانين بغياً اللواتي عرفتهن في حياتي ، الوحيدة التي امدتني بفيض من اللذة الاصيلة .. وانني لاذكر قولها وهي ترتدي ثيابها بالسرعة التي خلعتها بها : « لقد كان شيطاناً لعيناً ذلك الذي ابتكر تلك اللعبة » .

وقبل ان ابارحها طلبت اليها ان نجتمع «لوصلة» ثانية اطول في المساء ذاته فقالت انها ستقابلني في الساعة التاسعة ليلاً في مقهى على منعطف « المادلين » مقسمة بانها لا تخدع اي رجل . وفي الموعد المحدد عدنا الى غرفتها حيث لا يسعني الا ان اتغزل علناً بجمالها وظرفها فكانت تنسب ذلك الى لطفي .. واذا لاحظت ما لحظته انا في المرآة التي تعكس عالمنا السعيد الصغير على السرير .. اقول اذ لاحظت على وجهي معالم الرقة التي تخفي تحتها الانياب المفترسة الزرقاء فقد سألتني باستجابة مهنية اذا كان لها ان تمسح الحمرة عن شفتيها في حالة ما اذا كنت انوي تقبيلها .

بالطبع كنت انوي تقبيلها ولقد اطلقت لنفسي العنان معها اكثر من اية شابة صغيرة اثمت معها من قبل فظلت ذكرى تلك الليلة مع مونيك الحورية المسعورة الطويلة الهدبين مرتبطة بمرح قلما عرفته في احداث حياتي الغرامية السرية المذلة .

لقد ابهجها كوني اعطيتها ٥٠ فرنكاً علاوة على المتفق عندما

خرجنا معاً نخطر على الرصيف في تلك الليلة الربيعية ولم اتركها تلك الليلة الا بعد ان تواعدت معها على ان تأتي الى شقتي بعد ظهر اليوم التالي حيث كانت « الوصلة » اقل نجاحاً من سابقتها اذ خيل الي انها قد نمت بين عشية وضحاهـا واصبحت امرأة محترفة اكثر منها طفلة جانحة .

كانت كذلك قد اصيبت بالرشح وقد انتقلت العدوى الي مما حملني على ان الغي موعدي الرابع معها ، غير انني ما شعرت بالاسف لانني قطعت سلسلة علاقة انفعالية كانت قد بدأت تهددني بخيبة امل تزداد مرارة .

وهكذا فضلت ان تبقى بالنسبة الي تلك « المونيك » الرقيقة الناحلة .. فضلت ان ترسخ في ذهني كحورية جانحة تتألق بالسعير الجنسي الطفولي عبر شخصيتها الواقعية كعاهرة محترفة .

على ان معرفتي بها قد قادتني الى نشدان علاقات مع مثيلاتها فقـادني اعلان غامض في احدى المجلات الداعرة الى مكتب المدموازيل اديث التي قدمت الي مجموعة من الصور لانتقي واحدة تفي بغرضي وعندما دفعت بالمجموعة جانباً واستطعت ان اسر اليها برغبتي الاجرامية خيل الي انها على وشك ان تطردني ولكنها سألتني بعد تردد عن الثمن الذي استطيع ان اعرضه فلما رأت كرمي رضيت بأن تصلني « بشخص يستطيع ان يرتب الشيء »

وفي اليوم التالي لاقيت عجوزاً شوهت وجههـا بالاصباغ قبلت اطراف اصابعها قبلاب مفرقعة لتدلل لي على عظمـة « البضـــاعة » التي ستقدمها لي ثم اخذتني الى بيت حقير . وفي

الصالون ازاحت ستاراً بانت وراءه طفلة بدينة ساذجة لا تتجاوز الخامسة عشرة ، عقصت جدائلها السوداء بشرائط قرمزية وجلست مترهلة بليدة تحتضن دميتها .

وعندما هززت رأسي بالرفض وحاولت الخروج من الفخ سارعت العجوز فنفضت عن الطفلة قميصها الصوفي وهي تهدر بالكلام لتريني مفاتن « الحوريه » ولكنها لما رأت اصراري على الرحيل امسكت بي تريد اجرها .. وسرعان ما ولج الى الغرفة من جانبيها رجلان عتيان اشتركا في النقاش الحاد وكان احدهما يضع نظارة سوداء فقالت لي العجوز انه كان مخبراً في الشرطة وانه على صلات دائمة مع الشرطة الاخلاقية ولذا فمن الخير ان ادفع المطلوب .

فتوجهت الى الطفلة التي كانت قد ذهبت الى المطبخ لتكمل عشاءها الذي قطعته لتمسك الدمية عند دخولي ووضعت في يدها مدفوعاً بحافز من الشفقة ورقة نقدية فسلمت « هديتي » في الحال الى المخبر البوليسي السابق بينما كانت العجوز وزميلها يجرانني الى الخارج .

- ٧ -

لست ادري اذا كانت تجربتي في مكتب الدموازيل اديث لتسهيل « الخدمات الدافئة » حلقة اخرى في سلسلة اقداري الغائمة . ولكنني قررت بعد تلك الحادثة ان الزواج هو افضل

لسلامتي . وخطر لي انجو الحياة الزوجية قد يساعدني على ابقاء ذاتي تحت رقابة سلمية ان لم يساعدني على تطهير نفسي من شهواتي الدنيئة المخزية ..

أجل لقد خيل لي ان جو البيت خليق ان يساعدني بما فيه من تنظيم الحياة اليومية ومن الاكل في البيت ومن رقابة النشاط الزوجي في المخدع وبما قد يولده ذلك الجو من قيم خلقية وروحية تعوض لنفسي عن رغباتها الدنسة .

فأخذت افتش عن الزوجة الملائمة وبعد طويل تفكير وقع اختياري على ابنة طبيب بولوني كان يعالجني من نوبات من الدوار والغثيان . وكنت العب معه الشطرنج بينما تسترق النظر الي . وهنا يجب ان اقول انني كنت ولا ازال بالرغم من مصائبي رجلاً جميل المحيا طويل القـــامة ذا شعر حالك ناعم ومظهر جذاب بشكل استثنائي .

وكنت اعرف بانني استطيع ان احصل باشارة من اصبعي على اية امرأة بالغة اختارهـــا فلقد اصبح من عادتي الا انتبه كثيراً الى النساء ولا اعني بمطـاردتهن الا اذا قذفن انفسهن الى احضاني الباردة .

ولو كنت فرنسياً متوسطاً عادياً أتذوق النساء المتلئـات لكنت قد حصلت على زوجة اكثر اغراء من زوجتي فاليريا على انني اخترتها هي مدفوعاً كما ادركت فيما بعد بتسوية نفسية بين الشفقة عليها والاشفاق من ان يؤدي بي شذوذي الى مكروه وشيك .

ان كل ما تقدم يقيم الدليل على مدى جهل المسكين همبرت همبرت (الذي هو انا) في شؤون الجنس .

- ٨ -

مع انني قلت لنفسي انني انشد من زواجي ذلك الجو العائلي التقليدي الخليق بان يلطف من سعير شذوذي ، فان ما جذبني حقاً الى فاليريا كان قدرتها على ان تبدو بمظهر الفتاة الصغيرة المراهقة .

والواقع انها لم تتعمد الظهور بمظهر المراهقات لانها حدثت الامر ، انما كان ذلك اسلوبها.. وهو الاسلوب الذي وقعت فيه.

كانت في العشرين من عمرها او شيئاً من هذا القبيل فلم استطع ان اعرف عمرها بالضبط وكانت قد فقدت بكارتها في ظروف لم استطع ان اجزم بها فهي تروي لي الامر مختلفاً كل مرة ووفق مزاجها اثناء الرواية ..

والواقع انني كنت مغفلاً معها الى ابعد الحدود فقد اعمتني قدرتها على ان تبدو كطفلة .. فقد كانت فتاة غلمانية ترتدي ما يكشف عن جزء كبير من ساقيها البضتين وكانت تعرف كيف تظهر نصاعة بشرتها بانتقاء قطع الملابس السوداء .. وكانت تعرف كيف تتدلع وتميس دلالاً وهي تلوح بغدائرها الشقراء كأية طفلة مراهقة احست بالحياة تضطرم في صدرها ..

بعد حفلة الزفاف المدني اخذتها الى بيتي الجديد ولدهشتها

حملتها قبل أن أقاربها على أن ترتدي قميصاً من قمصـــان نوم الفتيات كنت قد سرقته أثناء زيارتي لأحد مياتم الفتيات .

وكم كانت تسليتي بالغة في ليلة الزفـاف هذه !! لقد انتهت الليلة وطلع الفجر على العروس البلهاء وهي في حالة هسترية .

ولم يمض طويل زمن حتى أخذت زوجتي تعود إلى حقيقتها كامرأة وتبتعد عن ملامح الفتيات. وسرعان ما وجدت بدلاً من الفتاة النحيلة الشاحبة التي خيل لي أني تزوجتها امرأة بلهـــاء وقصيرة الساقين ممتلئة الثديين عديمة التفكير ..

ودامت حياتي الزوجية معها من ١٩٣٥ إلى ١٩٣٩ ولا ريب أن ظنها فيَّ قد خاب مثلمـــا خاب ظني فيها ولكنها وجدت مفرجاً لها في العناية بالبيت حيث كنا نقضي قليلاً من السهرات معاً هي تقرأ في جريدة باري سوار وأنا منشغل باحدى هواياتي ولم أكن ألجأ الى جسدها الممتلىء إلا نادراً وفي حالات الضرورة القصوى واليأس .

وفي الوقت ذاته كان هنالك ما يثيرني إلى حد الجنون .. فلصاحب الحانوت أمام بيتنا طفلة مثيرة كانت تبعث السعير في جسدي ولولا وجود فاليريا زوجتي لما استطعت أن أجد مفرجاً مشروعاً أروّح به عن انفعالاتي الجامحة .

ولم يمض وقت طويل حتى كفت بطلب مني عن الطبخ في البيت وأخذنا نتناول الطعام في مطعم مزدحم في شارع بونابرت يمتاز بموائده ذات المفارش المليئة ببقع النبيذ والشحم ..

ومضت الحيـــاة هادئة نوعاً .. إلى أن بدأت مرحلة

الانفجارات وكان ذلك في صيف ١٩٣٩ حيث توفي عمي في أمريكا تاركاً لي مدخولاً سنوياً من عـدة آلاف من الدولارات على شرط أن أذهب للاقامة في الولايات المتحدة وأن اهتم بشركة العطور التي أسسها .

لقد رحبت بهذا التحول فقد كانت حياتي بحـاجة إلى هزة وخاصـة وان العفن بدأ يتسرب إلى الكيان الزوجي ، ففي خلال الأسابيع الماضيـة بدأت ألحظ في فاليريا نوعاً شاذاً من عدم الاستقرار بل كانت في كثير من الأحيان تعاني حالات من الهياج مما يتنافر تماماً مع الشخصية المفروض أنهـا تمثلها كأمرأة هادئة بلهاء . ولما أخبرتها أننا سنبحر قريباً إلى نيويورك بدت متهالكة مشدوهة وأصبحت منذ ذلك اليوم تائهة حزينة شاردة لم ينفع معها وصفي للحياة المثيرة في أمريكا .

وأخذت أعد أوراق السفر وذات يوم بينما كنا خارجين من دائرة البوليس وقد اتممنا معاملات السفر لمحت فاليريا تهز رأسها هزات عنيفة متلاحقة دون أن تلفظ بكلمة وتركتها لحالها فترة ثم سألتها إذا كانت تعاني شيئاً من الألم ؟.

فسكتت برهة ثم أجابت بفرنسية تخالطهـا سطحية العقلية السلافية :

« هناك رجل آخر في حياتي »

كان ما سمعته كزوج شيئاً بشعاً بالطبع .. ولكن لم يكن بوسعي أن اضربها في الشارع كما يفعل الرجل العـامي المبتذل الشريف ولقد كظمت غيظي فقـد علمتني آلامي السرية عبر

السنين كيف أكبح جماحي بما لا يستطيعه انسان .. ولكنني شعرت بغضب حارق يجتاحني ليس لأن حباً حاراً يراوحني حيال هذه المخلوقة السخيفة مدام همبرت زوجتي إنما لأنني كنت اعتقد أن من شأني وحدي أن اقرر في حياتنا الزوجية علاقات الوصال المشروعة والمحرمة .. وهكذا فوجئت بهذه البلهاء وهي تلعب دوراً في أقداري وحياتي .

وجدتني حائراً فدفعتها إلى سيارة تاكسي لاحظت انها كانت منذ أمد تسير بمحاذاة الرصيف كمن يدعونا بالحاح اليها ..

سألتها في السيارة عن اسم عشيقها فلم تجب إنما أخذت تنتحب مثرثرة متحدثة عن تعاستها في حياتها معي ولم أطق صبراً فصحت فيها بصوت غاضب اسألها اسم عشيقها.. ولكنها مضت في ثرثرتها قائلة إنها أعدت العدة لكي تطلب الطلاق فوراً.

وأخيراً لم أتمالك نفسي فضربتها بقبضتي على ركبتها سائلاً إياها عمن يكون عشيقها ؟

ودون أن تلفظ بكلمة ودون أن يهتز لها جفن تطلعت في وجهي كما لو كان الجواب بديهياً لا يحتاج إلى كلمات وهزت بكتفيها ثم أشارت باصبعها إلى رقبة سائق السيارة ..

هذا هو العشيق ذو الرقبة الغليظة .

أوقف السائق السيارة عند مقهى صغير نزلنا إليه نحن الثلاثة وقدم لي نفسه معلناً اسماً طويلاً مضحكاً مشفعاً إياه بلقب كولونيل سابق في الجيش الروسي .. كان واحداً من آلاف الروس البيض الذين يعيشون في باريس مدعين أنهم كانوا أهل

الحسب والنسب في روسيا القيصرية ..

وعلى المائدة أخذت زوجتي تقذفني بسيل من الكلام الدامع متحدثة عن اهمالي لهـــا .. عن عدم احترامي لشخصيتها بينما كانت تنفجر بين الحين والآخر بلغة سلافية موجهة بالطبع إلى عشيقها البليد .

وأصبح الوضع محرجاً غريباً وخاصة عندما أسكت السائق – الكولونيل – زوجتي بابتسامـــة آمرة ليبدأ بالتحدث عن نواياه وكيف يعد العدة لكي يدخل إلى حياةٍ من الحب والعمل مع زوجتي .. هذا بينما كانت فاليريا موزعة النظرات بيني وبينه كأنها قاصرة وديعة أثناء عملية استلام وتسليم بين وصي قـديم ووصي جديد .

ورغم انني كنت في حالة من الغضب والدهشة منعتني من أن اسمع كل ما يقول فإننى استطيع ان اقسم بأنه استشارني في كل شيء عنها بما في ذلك نظام أكلها ونظام عادتهـــا الشهرية وطبيعة الكتب التي تطالعها ..

ووضعت حداً لهذا الهذر عندما اقترحت أن تنتقل فاليريا لتحزم أمتعتها وترحل بها من بيتى ولكن الكولونيل تطوع بشهامة لأن ينقل الأمتعة بسيارته .

وعدنا معه إلى بيتي بينما كانت فاليريا تثرثر طول الطريق . وبينما كنت حائراً أسأل نفسي إذا كان يجب أن اقتلها أو اقتل عشيقها أو اقتلهما معاً .. أو إذا كان يجب أن اتركهما كحشرتين تنطلقان في فيافي الحياة ..

وهنا تذكرت مرحلة في شبـــابي فكرت فيها بأن أقتل بجسدي رفيقاً لي لأتمتع بأخته فقد كانت مراهقـــة وحورية مسعورة أثارت الشيطان في جسدي ... ولكنني لم أفعل وخرجت من استعراض هذه الذكرى بأن فاليريا لا تستحق ان اقتلها لا بالرصاص ولا خنقاً .

وفي البيت أثناء حزم المتاع كنت كالمتفرج الأبله في مسرح تعرض فيه تمثيلية أعلى من مداركه .

فلمـــا ذهبا من البيت شعرت بالغضب الشديد لأنه كان يتصرف كأن ما حدث كان شيئاً طبيعياً جداً وكأني شخص لا يؤبه له ففكرت في أن ألحق به وأقتله وتطلعت حولي باحثاً عن سلاح ثم اندفعت إلى المطبخ لافتش عن سلاح أفضـــل من المكنسة ولكن السكاكين لم تعجبني فخرجت دون سلاح إلى الشارع مصمماً على ان أهاجمه بقبضتي العارية رغم أنه يفوقني قوة وحجماً ولكنني لم أجد إلا الفراغ والخواء في الشارع ولم أجد من آثار امرأتي سوى زر عظمي وقع منهـــا في الوحل وتذكرت أنها كانت تحتفظ به منـــذ ثلاث سنوات في علبة مكسورة .

ولم أسمع عنهما شيئاً بعد ذلك سوى أنهما ذهبا إلى كاليفورنيا حيث استأجرهما عالم أمريكي مختص بالأجنـاس البشرية وأخذ يجري عليهما تجاربه المتعلقة برد فعل الجنس البشري ورد فعل الجسد الانساني حيال غذاء وحيد هو الموز والتمر .. هذا على شرط أن يبقى الإنسان موضع التجربـــة طيلة الوقت سائراً

أو واقفاً على قوائمه الأربع ..

ولقد أقسم لي مخبري وهو طبيب بأنه رأى فاليريا وزوجها الكولونيل الأشيب وهما يدبان على أربعة مثل عدد آخر من اليائسين الذين استأجرهم العالم الأمريكي لتجاربه .

ولقد حاولت جهدي ان أعثر على نتائج هذه الأبحاث في مجلة « الانتربولوجي – علم السلالات البشرية » ولكن عبثاً . ويبدو أن نتائج أبحاث من هذا النوع تتطلب وقتاً اطول مما يظن .

– ٩ –

أخرت إجراءات الطلاق سفري إلى الولايات المتحدة فلم اصل إليها إلا بعد ان قضيت شتاء مملاً في البرتغال .

وفي نيويورك قبلت الوظيفة السهلة التي عرضت عليّ ألا وهي إصدار نشرات دعائية عن عطور شركة عمي .

وفي الوقت ذاته حثتني إحدى جامعات نيويورك على ان أنهي المؤلف الذي باشرته عن تاريخ الأدب الفرنسي والذي اقتضاني الجزء الأول منه ساعات طويلة من العمل لمدة سنتين . وانني اذ أعود بالذاكرة إلى تلك الأيام فانني أراها منقسمة إلى ساعات من الضوء الساطع وساعات من الظلام المعتمة .. إن الساعات الساطعة هي الساعات التي كنت أقوم فيها بابحاثي في المكتبات العامة أما ساعات الظلام فترمز إلى رغباتي الثائرة

المشفوعة بالأرق الشديد .

أما وقد عرفني القــارىء جيداً فانه يستطيـع بسهولة أن يتصور اغبراري واحتراقي وأنا احاول ان ألتقط بنظراتي لمحات من أجساد المراهقات المسعورات اللواتي كن يلعبن (بعيداً عني ويا للأسف) في الحديقة العامة ويستطيع أن يتصور كذلـك تقززي من الفتيات المحترفات اللواتي كان لا ينفك يعرضهن علي نذل مرح ..

ولكن لأضرب صفحاً عن ذلك كما اخبر القارىء أن هذه الحالة سببت لي انهيـــاراً عصبياً أرسلني إلى مصح الأمراض النفسية قضيت فيه أكثر من سنة فلما عدت لاستئناف عملي لم يطل بي الأمر حتى عدت إلى المصح .

وهنا بدا لأطبائي بأن الحيـــاة في الهواء الطلق خليقة بان توفر لي بعض الشفاء وكان من بينهم طبيب شـــاب مرح لاذع النكتة ذو لحية كستنائية اهتم بأمري وألحقني ببعثة إلى منطقة القطب الكندية يرئسها أخوه وذلك لأعمل مسجلاً للانفعالات والانعكاسات النفسية في الحياة القطبية .

ذهبت مع البعثة وتشاطرت من حــين لآخر مع شابين من علماء النبات ومع نجار عجوز المسرات التي كانت تمنحها لنـــا بكرم الدكتورة أنيتا جونسون إحدى اخصائيات التغذية الملحقة بالبعثة ويسرني أن اقول أنها لم تمكث طويلاً فقد اعيدت إلى الولايات المتحدة .

ومع اني كنت أعمل مع البعثة فلم تكن لدي فكرة كاملة عن هدفها والغرض منها فقد بدت لي أعمالها غامضة وخاصة بعد ما انشأت جماعة من البعثة بالاشتراك مع الكنديين محطة لرصد الطقس بينما أخذت جماعة أخرى منها تجمع الأسماك الفقرية بالاضافة إلى جماعة ثالثة أخذت تدرس أحوال السل في صحراء توندرا الثلجية .

وفي أثناء اقامتنا في تلك المنطقة القطبية كنا نأوي إلى بيوت من الخشب وسط فلاة صامتة موحشة ولقد تحسنت صحتي تحسناً عجيباً على الرغم من الوحدة والضجر ، ولقد شعرت بشكل غريب بأنني في معزل عن ذاتي بالذات ! فما كانت هناك من إغراءات تثيرني ولم تكن بنات الاسكيمو برائحة السمك المتصاعدة منهن وبشعورهن السوداء التي تشبه في اللون جنح الغراب ووجوههن الخنزيرية ليثرن من الرغبات في نفسي إلا أقل مما كانت تثيره الدكتورة جونسون .. فالمراهقات الحوريات المسعورات هن صنف غير متوفر في المناطق القطبية .

تركت زملائي يلتهون بتحليل التحولات الجليدية والأضواء القطبية وغيرها من مظاهر الطبيعة القطبية وحاولت في بادىء الأمر ان أسجل جدياً ما كنت اعتبر من ردود الفعل والانعكاسات في النفس الانسانية بتأثير الطبيعة القطبية (وفعلاً فقد لاحظت أن الأحلام اثناء شمس نصف الليل القطبية تكون ملونة جداً) وكان مفروضاً ان أستجوب زملائي عن عدد من مشاعرهم مثل مشاعر السويداء والخوف من الحيوانات المجهولة

والهوس الغذائي وتخيلاتهم عن أصوات غامضة يسمعونها الخ .. الخ .. ولكن الجميع سئموا من هذه الاستجوابات فأقلعت عنها تماماً ولم أكتب تقريري المرتجل إلا في عشية انتهاء فترة العشرين شهر التي قضيتها هناك فقد ادركت أن للبعثة مهمة سرية هي غير مهمة دراسة الأحوال الغذائية والنفسية وغير ذلك .

ولعل القارىء سيأسف إذ يعلم بأنني تعرضت بعد عودتي إلى العالم الحضاري الى موجة أخرى من الجنون هذا إذا كان من الممكن اطلاق هذه اللفظة القاسية (الجنون) على شعور بالسويداء مشفوع بشعور كان يوحي إليّ بانني مضطهد ...

واني مدين بشفائي من تلك الحالة الى اكتشاف توصلت اليه وانا أعالج في ذلك المصح الباهظ التكاليف ، فلقد اكتشفت ينبوعاً غنياً بالبهجة العارمة يكمن في مخادعتي لعلماء النفس والمكر بهم عن طريق جرهم ببراءة الى ظنون ونتائج لا علاقة لها بي . فكنت (دون ان أجعلهم يحسون بانني اعرف أسرار مهنتهم) اخترع لهم الأحلام التي تدل على حالات غير موجودة عندي .. وأبتكر لهم رؤى كنت ازعم أنني أراها في يقظتي هذا دون ان أتيح لهم اقل فرصة للتعرف على حقيقة إحساساتي الجنسية ...

واستطعت برشوتي إحدى الممرضات أن اصل إلى قراءة التقارير السرية التي وضعها الأطباء النفسيون على ضوء معالجتهم لي .. فاكتشفت بشعور من المتعة ان بعضهم قد صنفني من جملة الأشخاص أصحاب الاستعداد للشذوذ الجنسي بينما صنفني بعضهم

في فئة الأشخاص أصحاب العفة الكاملة ..

كانت رياضتي هذه مع الأطباء النفسيين ممتازة وقد أدت إلى بقائي في المصح شهراً اضافياً رغم شفائي التام ، استمتعت خلاله بنوم مريح ومأكل هنيء وأضعت الى ذلك الشهر اسبوعاً آخر قضيتـــه في الضحك سراً على طبيب مشهور التحق مؤخراً بالمصح ..

- ١٠ -

بعد خروجي من المصح أخذت افتش في الأرياف عن قرية هادئة أو مدينة صغيرة استطيع أن امضي فيها الصيف مكرساً وقتي لانهاء مؤلفي الأدبي وللسباحة في بحيرة قريبة .

كان عملي قد بدأ من جديد يستحوذ على اهتمامي. أما نصيبي في الدعاية للمستحضرات العطرية التى تنتجها شركة المرحوم عمي فقد تضاءل الى الحد الأدنى .

واستجابة لتساؤلاتي اقترح علي أحد موظفي عمي السابقين ان أقضي شهور الصيف في مسكن ابن عمي الفقير المستر « ماك كو » الذي يريد أن يؤجر الطابق العلوي من بيته بعد أن شغر بوفاة عمته .

وذكر لي أن لابن عمي ابنتين إحداهما رضيعة والأخرى في الثانية عشرة من عمرها وان لبيته حديقة جميلة غير بعيـدة عن بحيرة بديعة .. وهكذا فقد وجدت اقتراحه بديعاً ومرضياً .

وبعد مكاتبات مع العائلة المعينة تم الاتفاق وتوجهت بالقطار حيث قضيت ليلة ليلاء وانا أحاول أن أتخيل مفاتن المراهقة المسعورة التي سأعايشها في بيت ماك كو والتي سأغازلها بفرنسيتي وأقاربها بالطريقة الهمبرية (طريقتي فاسمي هو همبرت كما يذكر القارىء) .

لم يستقبلني أحد في المحطة الصغيرة وأنا أترجل حاملاً حقيبتي الثمينة فتوجهت إلى الفندق الوحيد حيث ظهر أمامي بغتة رجل معروق مبتل الثياب ليخبرني بان بيته قد احترق لتوه (ربما بسبب الالتهابات الحارة التي كانت تضطرم في عروقي طيلة الليل في القطار) .

وقد قال لي أن عائلته قد لجأت إلى مزرعة يملكها وان صديقة حميمة لزوجته هي المسز هيز قد عرضت أن تأويني عندها .

وساورتني خواطر بالعودة فقد زال ما كان يغريني بالسكن لدى ماك كو وشعرت بالغضب والضجر ولكنني كأوروبي مهذب لم استطع ان أرفض الذهاب إلى بيت المسز هيز في سيارة سوداء ذات سائق زنجي استعارها ماك كو من جارة له ..

وفي الطريق اقسمت فيما بيني وبين نفسي بانني لن أبقى في مدينة رامسديل هذه وانني سأستقل الطائرة في هذا اليوم بالذات إلى برموده أو الى جزر بهاما أو غيرها فقد كان احتمال عثوري على شواطىء رائعة الأجواء تداعب مخيلتي رغم ان ابن عم ماك كو كان قد استطاع ، عن طريق إلهابه خيالي بوجود

الفتاة المراهقة ، تحويل قطار أفكاري عن التوجـــه الى تلك السواحل الاستوائية الدافئـة .. ولكن صورة هذه الشواطىء عادت الى مخيلتي الآن ..

ووصلنا أخيراً بعد ان كدنا ندهس كلباً ناعساً في طريقنا الى بيت المسز هيز .. كان منزلاً من تلك المنازل البشعة المدهونة بلون ابيض مقذع ولقد بدا لي بيتاً قديماً على وشك التقوض من تلك البيوت التي توحي اليك بأنك ستجد في حمامها خرطوماً بدلاً من حديدة الدوش .

أعطيت السائق الزنجي بقشيشاً راجياً أن يغيب بسرعة عن المكان حتى استطيع ان اقفل عائـداً أدراجي ولكن السائق تحول الى الرصيف الآخر من الطريق ليرد على اسئلة سيدة عجوز نادته من عتبة دارها وهكذا لم استطع إلا ان أقرع جرس بيت المسز هيز .

وفتحت لي الباب خادم زنجية تركتني على العتبـــة بينما اندفعت الى المطبخ لتتدارك شيئاً كان يحترق ..

كان أثاث الصالون مزيجاً من الأثاث الخشبي التجاري المكسيكي وكان يدل على أن اصحابه من الطبقة الوسطى وانهم عريقون في أجواء تلك الطبقة ومفاهيمها ..

وفجأة أتاني صوت المسز هيز التي انحنت على حـــاجز درج الصالون متسائلة :

— حضرتك السيد همبرت ؟

تساقط سؤالها في الجو مع شيء من رماد سيكارتها ولم تنتظر

جوابي فانحدرت على الدرج بصندلهـا الأحمر وثوبها الكستنائي اللون وقميصها الحريري الأزرق ووجهها المربـع الشكل ..

اعتقد أنه من الأفضل ان أصفها في الحـــال لنتخلص أنا والقارىء منها .. كانت في منتصف العقد الثالث من عمرها.. في عشية الخريف من عمرها وكانت ذات جبهة وضيئـة وحاجبين منتوفين ، بسيطة المظهر ولكن ملاحمها لم تكن غير جذابة .. كانت من النوع الذي هو حل وسط بين النسوة العاديات والنسوة اللواتي يشبهن مارلين ديتريش ..

تحدثنا برهة عن الحريق الذي أتى على بيت ماك كو ثم عن مزايا الاقامة في مدينة رامسديل .. ووجدتهـــا ذات عينين خضراوين لهما طريقة عجيبة في استعراضك من فوق لتحت مع تجنب الالتقاء بنظراتك .

وقد جلست على الصوفا ووضعت تحتها احدى ساقيها بينما مدت الساق الأخرى بحرية .. كانت بوضوح من تلك النساء اللواتي قـد يكشف لك كلامهن المصقول المهذب عن انتمائهن الى نادٍ أدبي او ناد خيري او غير ذلك من المنظمات التقليدية المضجرة بشكل قاتل ولكنه لا يكشف مطلقاً عن روحهن أو نفسيتهن. كانت من الصنف النسائي المحروم قطعياً من روح النكتة ، غير المهتم قطعياً بعشرات المواضيع التي تبحث في الصالونات بحرارة. ولكن هذا الصنف حريص في الوقت نفسه على قواعـــد الحديث وأصوله حرصاً يكشف عن تكلف لا يثير قابلية الرجال إليه ..

لقد أدركت منــذ الوهلة الأولى بأنه إذا صدف وقطنت في منزلها فانها ستبدأ بالتصرف معي وفق ما يعنيه لها مفهوم ايواء نزيل عندها : وهكذا سأنغمس مرة أخرى في ذلــك النوع من العلاقات الغرامية البشعة التي عرفتها جيداً .

ولهذا فقد بدت مسألة اقامتي في بيتها غــير واردة ولكنني سايرتها وصعدت معهـــا الى الطابق العلوي لأتفقد الغرفة التي رفضتها سلفاً في أعمـــاق نفسي .. كانت غرفة تشبه غرف الخادمات بأثاثها وزينتها المبتذلة ولكنها دعتها بانها نصف – ستوديو .. وقررت في نفسي ان أغادر المكان في الحال بينما كنت اتظاهر بالتفكير في الأجر الرخيص الذي طلبته المسز هيز مقابل المأوى والأكل .

إلا ان تهذيبي كانسان من العالم الأوروبي القديم أجبرني على المضي في المسايرة وفي تفقد الجناح الذي يضم غرفتي وغرفـــة لوليتا (خيل لي آنذاك أن لوليتا هو اسم الخادمة) .

وفجأة قالت لي السيدة وقد تركت يدها تستريح برهة على ساعدي :

– أرى ان المكان لم يعجبك كثيراً ..

كانت تقف وقفة من الوقفات المفروض انهـــا مغرية ولكن بشيء من الخجل .

وتابعت كلامها :

– انني اعترف بان بيتي ليس على ما يرام ولكنني أؤكـد لك (تطلعت أثناء ذلك إلى شفتي) بأنك ستكون مرتاحاً

جداً عندنا .. دعني أريك الحديقة ..

وبتردد نزلت معها الدرج وعبرنا غرفة الطعام ومنهـا الى الصالون حيث فتحت باباً أطل فجأة على رقعـــة شديدة الاخضرار.. ولما خرجت الى الحديقة شعرت بموجة بحرية جارفة تتلاشى على جدران قلبي .. ورأيت في ضياء الشمس عند مسبح الحديقة حبيبـــة الريفييرا تسترق النظر اليّ من وراء نظارتها السوداء وهي منحنية على ركبتيها نصف عارية ..

أجل انها آنا بيل بالذات .. مراهقة الريفييرا ، الحبيبة التي سبّبت صدع حياتي .. وجدتها من جديد .. بكتفيها الملوحتين بشقرة خفيفة وبذات الظهر العاري الناعم المخملي وبذات الجدايل الكستنائية .. كان هناك منديل ملون يخفي عن نظراتي صدرها ولكنه لم يستطع ان يخفي عن نظرات ذاكرتي المراهقـة تلكما الثديين المتمردين اللذين عبثت بهما على شاطىء الريفييرا في يوم خالد من حياتي ..

كان الشبه غريباً عجيباً ولقد ملأني سروراً وحبوراً فخيل إليّ انني بطل رواية اسطورية من الروايات التي تقص للأطفال عن أمير خطف الجن حبيبته ثم ما لبث ان اكتشفها بعد طويل بحث في أسمال الفجر ..

ومن وراء ظهر المسز هيز تطلعت من جديد الى بطن تلك الحورية المستحمة في الشمس... الحورية التي عادت فيها حبيبتي آنا بيل إلى الحياة واستقرت نظراتي على ذلـك البطن الخفيض الذي أرحت رأسي عليه فترة قصيرة في الريفييرا ثم استقرت

نظراتي على وركيهـا الأنيقين النحيلين اللذين قبّلت الأثر الذي تركه عليهما حزام سروالها في ذلك اليوم الجنوني عند الصخور البنفسجية الظلال .

في هذه اللحظة انمحت من حيـــاتي فترة الخمسة والعشرين عاماً التي تفصل بين ذلك اليوم على الريفييرا وبين هذا اليوم في حديقة المسز هيز .

إنني أجـد صعوبة قصوى في التعبير عن ذلك الزخم الذي اندفع في نفسي وعن تلـك القشعريرة التي سرت في جسدي وعن ذلك التأثير العاطفي الذي أصـابني وانا أتطلع إلى تلك المراهقة الجاثية على ركبتيهـا . وشعرت بفراغ نفسي يمتص كل لمحة من ملامح جمالها البارق ويقارنها بملامح حبيبتي الراحلة .. ولكن لم يمض قليل حتى محت هذه الجديدة التي تدعى لوليتـا صورة نموذجها الأصلي آنا بيل .

إن كل ما أريد تأكيده هنا هو ان اكتشافي لها كان نتيجة مفجعة لحلم الجزيرة المسحورة التي تقطنها حوريات مسعورات ذلك الحلم الذي رافق أيام ماضي المعذب ؛ فكل شيء جرى لي بين الحادثين (فقداني لآنا بيل واكتشافي للوليتا) لم يكن إلا خبطات عشواء في بحر الحياة ولم يكن ما عرفته من مسرات في تلك الفترة سوى شعور مزيف بالغبطة .

لست اشك هنا بأن قضاتي سيأخذون هذا الكلام بمثـابة هذيان من رجل مجنون ذي ميل فظيع الى « الفاكهة الفجة » ولكن هذا لا يهمني في الحقيقة ... كل مـا أعرفه هو ان ساقي

كانتا ترتجفان وانا اسير وراء المسز هيز الى الحديقـة كانعكاس ساقين على مياه مضطربة .. اما شفتاي فقد اصبحتا جافتين محترقتين كرمل الصحراء ..

ولما هتفت بي مسز هيز قائلة :

– هذه ابنتي « لوليتا » وهذه هي أزاهيري ..

اجبتها حالاً :

– أجل انها جميلة .. جميلة جداً .. جميلة .

– ١١ –

انني انقل هنا من الذاكرة التي تشبه ذاكرة الجاسوس الذي يبتلع الرسالة السرية التي يحملها بعد أن يكون قد حفظ محتوياتها غيباً بحيث يستطيع سردها متى شاء ..

اقول انني انقل من الذاكرة عن دفتر مذكرات انيق لعام ١٩٤٧ كنت احمله في جيبي وادون فيـه مذكراتي بنوع من الاقتضاب وبرموز اعرفها وحدي .

٣٠ أيار (مايو) – انتشر وباء الأنفلونزا وأدى الى اغلاق المدارس ذلك الصيف في رامسديل وبعـد ايام من ذلك انتقلت للاقامة في بيت المسز هيز ..

ان المقتطفات التي سأسردها الآن تتعلق بمعظمهـا بأيام شهر حزيران (يونيو) .

الخميس : كان يوماً قائظاً ولقد استطعت ان ارى من نافذة

الحمام دولوريس (لوليتا) وهي ترفع الغسيل من حبل ممدود في الباحة الخلفية من البيت .. ثم رأيتها تخرج من الباحة .. كانت ترتدي قميصاً شفافاً وسروالاً رجالياً ازرق .. وكانت كل حركة من حركاتها تضرب على اوتاري الباطنية الحساسة .. في جسدي الداعر المتيقظ .. فخرجت انا كذلك الى الحديقة وجلست على الدرج وما لبثت ان جلست هي الاخرى على درجة ادنى واخذت تلتقط الحصى بين قدميها .. ما اروع قدميها انني استطيع ان أقضمهما كما اقضم قصب السكر .. وان العق بشرتهما الناصعة الحليبية كما العق الحلوى .

ويا لبشرتها الرائعة الصافية .. ان حب الشباب الذي يعكر صفاء جلد المراهقات لا يظهر قطعاً على الحوريات المسعورات مهما أكلن من الاغذية المهيجة !!

تذكرت هنا ان احلامي في القطار حامت حول ابنة مان كو ، ثم عرفت تلك الفتاة .. فرأيتها نحيلة ممروضة وعرجاء يكاد شلل الاطفال يقتلها .. ما أبعد الفرق بينها وبين هذه الحورية التي تتفجر بالحياة والحيوية المثيرة لجنون الشهوة .

ولما نهضت لتأخذ الغسيل اتيح لي ان اتأمل من بعيد باعجاب مؤخرة سروالها الرجالي الباهتة اللون من الجلوس .

وظهرت في تلك الاثناء المسز هيز وقد تسلحت بآلة تصوير وبعد هرج ومرج منها التقطت صورتي وانا جالس على الدرج احدق بنظرات تائهة غائمة .

يوم الجمعة : رأيتها ذاهبة مع فتاة داكنة السمرة تدعى

روز .. انني اتساءل لماذا تثيرني الطريقة التي تسير بهـا وتبعث في نفسي هذا الهياج المخيف .. وهي مجرد طفلة !!

ان كلامها العامي بصوتها المرتفع الخشن النبرة ليحرك نفسي ايضاً الى ما لا نهاية ..

السبت : انني اعرف انمن الجنونان اسجل هذه المذكرات اليومية ولكن ذلك يبعث في نفسي رجفة غريبة تبهر نفسي .

واذكر بغصة هذا اليوم ان لوليتا كانت تأخذ حماماً شمسياً قرب المسبح ولكن امها وصاحبات لأمها كن حولها طيـلة الوقت .

وبالطبع كان بامكاني ان اجلس هنـاك على الكرسي الهزاز متصنعاً القراءة ولكنني آثرت السلامة فابتعدت اذ خشيت ان يمنعني اختلاجي الجنوني وارتعاشي المضحك المبكي من ان اجعل دخولي المنطقة يبدو طبيعياً عرضياً .

يوم الاحد : لا يزال الجو قائظاً والحرارة خانقة وقـد احتطت لامري فاخترت موقعاً ستراتيجياً عند المسبحوجلست على الكرسي الهزاز متظـاهراً بالقراءة قبل ان تأتي لوليتـا للاستحـمام ولخيبتي الشديدة جاءت مع امهـا وقد ارتدت كل منهما ثوب الاستحمام . وقفت حبيبتي للحظـة بقربي وكانت تنبعث منها رائحة تماماً مثل رائحة حبيبة الريفييرا ولكنهـا كانت اشد واقوى، انها رائحة تلفحها الحرارة ايقظت رجولتي في الحال ... ولكن لوليتا سارعت بالانكفاء الى قرب امهـا حيث استلقت على بطنها تعرض علي .. وعلى الالف عين المبحلقة

في دماغي لوحات كتفيها العاريتين وتموجات عمودها الفقري المورد ومكورات قفاها المستورة بثوب الاستحمام الاسود ... وهي تقرأ دستة من كتب الكوميك (كتب الرسوم الهزلية المصورة) .. كانت اجمل حورية مراهقة واذ كنت التهمها بظراتي عبر الوهج الشمسي وشفتاي الجافتان تعكسان شبقي اليها ، شعرت بان احساسي بها قد يكون كافياً لتوفير اكتفائي الجنسي في الحال بواسطة الايحاء الذاتي ولكنني كحيوان مفترس يفضل الفريسة الحية على الميتة قررت ان اتوصل الى هذه النتيجة التي تدعو للرثاء عندما تقوم لوليتا باحدى حركاتها الصبيانية كأن تحاول حك ظهرها كاشفة عن ابطها المنمش بالشعر الرقيق ...

ولكن امها البدينة المسزهيز قد افسدت كل شيء اذ قطعت تركيزي الذهني – الجنسي اذ طلبت اليّ ان اشعل سيكارتها ثم بدأت معي حديثاً مصطنع الجد عن كتاب سخيف لكاتب شعبي دجال ...

يوم الاثنين : تميز هذا اليوم بخيبة امل كبرى فقد كنا نعد العدة (الام هيز ولوليتا وانا) للذهاب الى البحيرة للنزهة والسباحة ولكن ندى الضحى وقيظه تحولا الى امطار هاطلة عند الظهيرة ...

لقد تبين ان متوسط سن بلوغ الفتيات هو ١٣ عاماً و ٩ اشهر في نيويورك وشيكاغو الا ان هذا السن يتراوح افرادياً بين العاشرة والسابعة عشرة .

ففرجينيا لم تكن قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها عندما امتلكها الشاعر المشهور هاري ادغار الذي كان يعطيها دروساً في الجبر – تصوروا هذا ـ

اني املك كل المميزات والملامح التي يقول عنها البـاحثون في اهتمامات الأطفال الجنسية انها تثير الاستجابات المتحفزة في جسد المراهقة الصغيرة : فك انيق .. وصوت عميق وعضلات بارزة وكتفان عريضان .. وبالاضافة إلى ذلك يقال انني اشبه مغنياً او ممثلاً تهيم لوليتا حباً به في خيالها المراهق ..

يوم الثلاثاء : امطار .. وامطار .. ذهبت الام الى السوق. اما لوليتا فكانت كما اعلم في مكان ما من البيت .. وبعد مناورات بارعة مني صادفتها في غرفة نوم امها وهي تحـاول إخراج ذرة طرفت عينها اليسرى فاسترقت خطواتي وتقدمت نحوهـا فامسكتها من كتفيها بقوة ثم امسكت بها برقة من طرفي رأسها وادرتها نحوي فقالت لي :

ـ ان هذه القشة تختبىء تحت الجفن .. انني احس بهـا

فقلت لها :

ـ ان الفلاحـين السويسريين يستخدمون رأس اللسان لاستخراجها فهل تريدين ان الحسها لك ؟

ولما اجابت بالموافقة امررت طرف لساني الملتهب على طول مقلتها فقالت لي :

ـ ما ابدع ذلك لقد ذهبت ...

فقلت لها : إذن فلنعالج العين الاخرى .

ـ ايها الغبي ليس هناك شيء في ..

ولم تتم كلامها فقد احسست بشفتي تقتربان فاستسلمت مطواعة ومدت محياها الدافىء الجميل نحوي بينما كنت الثم جفنهـا الكحيل .. وما لبثت أن ضحكت واخرجتني من المخدع .. وانا اشعر بقلبي يسبح بسعـادة غمرت كل مكان .. وبشكل لم يحدث لي مثله من قبل حتى في اثناء مداعباتي مع حبيبتي آنابيل في فرنسا .

ولكن عندما حل الليل شعرت بعذاب نفسي لا مثيل له.. فلقد اردت ان اصف لنفسي وجهها وعبثهـا ولكنني لم استطع لان شبقي اليها يعميني عندما تكون قريبة .. فلم أتعود ان اكون على مقربة من الحوريات المسعورات .. وهكذا كنت لا ارى اذا اغلقت عيني سوى لمحات لا تتحرك منها مثل الصور الفوتوغرافية .. لمحات من ساقيهـا العاريتين مشفوعـة بصدى صوت امها يهتف بها :

« دولوريس لا تكشفي عن ساقيك »

انني استطيع ان اكون شاعراً في ساعات مزاجي الرائق وقد كتبت شعراً أتغزل فيه برموشها القاتلة وعينيها العميقتين.. وبرشاقة تقاطيعها ولكنني ما لبثت ان مزقت القصيدة .. انني لم أصف كل ملامح لوليتا للقارىء .. انها كستنائية الشعر امـا شفتاها فقرمزيتان اما شفتها السفلى فتنحدر متثاقلة باغراء .. آه لو كنت سيدة كاتبة لكنت قد عريتها في الليـل العراء .. ولكنني رجل .. رجل فيـه كل ملامح الرجوله الخشنة ..

وذو ابتسامة صبيانية ..

اما ما يثير جنوني فهو طبيعة هذه الحورية .. تلك الطبيعة ذات الشقين فهي ليست طفلة وهي ليست امرأة انما هي مزيج من براءة الطفولة في الملامح وعهر العاهرات في الحركات .. ومزيج من الوحل والاثير ..

والأهم من هذا ان لوليتا قد جسّدت شبقي القديم فلم يعد هناك من شيء أهم منها .. فهي قبل كل شيء وفوق كل شيء ..

يوم الاربعاء : تقدمت لوليتا نحوي وهمست بصوت يرتعش بالشهوة قائلة : « اقنع امي بان تأخذني واياك الى البحيرة غداً . »

وكان ذلك عندما اصطدمنا عند الفسق على العتبة اصطداماً جعلني ارتعش بلذة حارقة مكتومة كاوراق شجرة الدردار التي كانت تتلاعب بها بقايا ريح الأصيل .

يوم الخميس – جلسنا ليلاً عند البركة .. لوليتا وأمها وانا وكان الغسق الدافىء قد تحول الى ظلام مثير لنوازع الغرام .. وقد استمعنا مطولاً الى قصة الفيلم الذي شاهدته المسز هيز مع لوليتا في الشتاء الماضي .. بينما جلسنا على وسائد مكومة على الارض وكانت لوليتا تجلس بيني وبين امها .

وبدوري اندفعت أتحدث عن مغامراتي في القطب الشمالي بكثير من التفاصيل الخيالية المثيرة وجاءني شيطان الوحي فاعطاني بندقية اصبت بها دباً ابيض .. وبينما كنت اصف لهما مقتل الدب المزعوم كنت اشعر بقرب لوليتا مني وكنت احرك

يدي مع كلامي منتهزاً فرصـــة الظلام لأمس كيفما اتفق أي موضع من جسد لوليتا ، فكنت احياناً امس يدهـــا واحياناً كتفها بينما كانت تلعب بدميـــة من الصوف ظلت تقذفهـــا الى حجري .. وعندما اثرت دماء لوليتا بتلك المغـازلات الحثيثة تجرأت واخذت افرك ساقيها العاريتين منتهزاً فرصة ضحكي من حين لآخر حتى اهوي عليها واتنشق عبير رأسها وامرغ وجهي فيما يبرز ويتكور من جسدها ..

اما هي فقد كانت متجاوبة معي في هذا العبث ولكن لما اكثرت من دلعها امرتها امها بالعودة الى البيت وقذفت باللعبة الى الفضاء اما انا فقد ضحكت وتوجهت بالكلام الى امها عبر ساقي لوليتا حتى تستطيع يدي ان تدب تحت سروالها لتتحسس جلدها الناعم ..

على انني لم انس ان كل ذلك لا ينطوي على فائدة ..وشعرت بالحنين يمرضني كما شعرت بثيـــابي تضيق علي حتى تكاد تخنقني بحيث شعرت بسرور عندما هتفت امها في العتمة :

– إننا نعتقد جميعاً بان على لوليتا ان تأوي الآن الى فراشها.

فأجابتها لوليتا :

– اعتقد انكما تخرّفان ..

– اذن لن تكون هناك نزهة الى البحيرة ..

– هذه بلاد حرة يا امي .. فلا يمكنك ان تستبدي في هذه الامور .

قالت لوليتا ذلك برنة سوقية متمردة واندفعت الى البيت

بينما بقيت انا في مكاني بحكم الاستمرار لاشاهد الام تدخن سيكارتها العاشرة واسمعها تشكو طويلاً من لوليتا .

قالت لي انها كانت مناكدة مشاكسه منذ كانت في العام الاول من عمرها فكانت لا تنفك تلقي بلعبها الى الارض حتى تظل امها المسكينه منحنية تلتقط اللعب لها .

اما وقد بلغت الثانية عشرة الآن ، فقد اصبحت آفة مزمنة (هكذا قالت امها) فهي لا تريد من الحياة شيئاً سوى ان تقضي يوماً راقصة متخلعة .. متشخلعة وهي لا تحصل في المدرسة الا على ادنى الدرجات ولكنها مع ذلك اصبحت احسن حالاً مما كانت عليه في مدينة بيسكي قبل سنتين .

سألت الام هيز :

ـ ما الذي كان يزعج لوليتا هناك ؟

ـ اوه .. انني اعلم طبيعة ذلك الازعاج فلقد مررت به عندما كنت طفلة .. فقد عانيت الكثير من الاولاد الذين يضربون الفتيات ويبرمون اذرعتهن ويشدون شعورهن .. ويعبثون بصدورهن .. ويرفعون تنوراتهن . وبالطبع فإن النزق من هذه المعاكسات هو من طبيعة الفتيات في هذه السن ولكن لوليتا كانت تبالغ في الامر ..

أتعرف ما اريده منك يا سيدي .. اريد اذا كنت ستبقى معنا الى الخريف ان تعطيها بعض الدروس لتساعدها في دراستها او يبدو انك تعرف كل شيء .. الجغرافيا . الحساب .. الفرنسية ..

ـ أجل كل شيء ..

ـ هل يعني هذا انك ستبقى معنا ؟

اردت ان اصيح بانني اود ان ابقى بقرب لوليتا هنا الى الابد اذا كنت استطيع فقط ان الامسها واداعبها بين الفترة والاخرى !.. ولكنني لم اجب على سؤال الام فقد كنت قد ضجرت منها .. فنهضت وذهبت الى غرفتي ..

ويبدو ان الام لم تكن مستعدة لانهاء الليلة على خير فبينما كنت مضجعاً في فراشي ويداي تعانقان بشدة طيف لوليتا سمعت لهاث صاحبة البيت وهي تتسلل الى باب غرفتي لتهمس من بين دفتي الباب بانها جاءت لترى اذا كنت قد فرغت من مطالعة المجلة التي استعرتها منها بالامس .. وانقذت لوليتا الموقف . . فقد صاحت من غرفتها بان المجلة معها .. وشكراً لله ..

يوم الجمعة ـ سأصاب بانهيار عصبي آخر اذا بقيت مدة أطول فيهذا البيت تحت وطأة اغراء لا يقاوم بجانب حبيبتي.. عروسة احلامي وحياتي ..

انني لأتساءل اذا كانت امنا الطبيعة قد بدأت تعمل عملها في جسد لوليتا وتدفعها الى طريق اسرار اللذة والجنس ؟

انني أكاد اجن .. انني اشعر بلعنة تنصب علي من السماء ..

اما اذا اقترفت جريمة جديدة خطيرة (ارجوا ان تلاحظوا اذا « الشرطية ») فان حافزي عليها لا بد ان يكون شيئاً اعمق مما حدث بيني وبين « فاليريا » زوجتي الخائنة ويجب ان

يلاحظ القارىء بانني كنت حينئذ عاجزاً فاذا ما رغب في ان يعصر عنقي حتى الموت فيجب ان يذكر ان ما يستطيع ان يعطيني شيئاً من القوة على ان اكون عتياً لا يعدو عن نفحة من الجنون .. وانني لأصبح عتياً جباراً في بعض الاحيان ولكن في ، احلامي ولكن هل يدري القارىء كيف يكون الأمر !

انني ارى احياناً نفسي أشهر مسدساً واصوبه الى عدو مرموق ثم اضغط على الزناد لأرى الرصاصات تنحدر الواحدة بعد الاخرى على الارض من فوهة المسدس .. وكان همي الوحيد في تلك المنامات ان اخفي الفشل عن عدوي .

اثناء الطعام هذه الليلة قالت لي الأم المكارة وهي تغمز بعينها غمزة ذات معنى صوب لوليتا قائلة :

– لقد لاحظت بانك بدأت تربي شاربيك والافضل ألا تفعل حتى لا تسلب عقل « شخص ما »

وفي الحال دفعت لوليتا بصحنها جانباً وكادت توقع قدح اللبن وخرجت من غرفة الطعام مستاءة بينما التفتت الي امها قائلة :

– أيضايقك ان تأتي معنا غداً الى نزهة عند البحيرة اذا اعتذرت لوليتا عن سلوكها ؟

وبعد ذلك انسحبت الأم وسمعت من بعيد عبر الابواب خبطاً شديداً فعرفت ان الغريمتين تتشاجران وبالطبع لم تعتذر لوليتا وبالتالي لم نذهب الى البحيرة .

يوم السبت – منذ أيام وانا اترك باب غرفتي مفتوحاً أثناء

انشغالي بالكتابة ولكن هذا الفخ لم ينجح الا اليوم .. فبكثير من اللف والدوران لتخفي حرصها من زيارتي دون ان ادعوها لذلك دخلت لوليتا الغرفة وبعد ان دارت هنا وهناك لفتت انتباهها الصورة البيانية التي رسمتها لكابوس من كوابسي .. لقد كنت احلل هذه الكوابيس فلا اجدها من قبيل جموح الخيال الادبي انما اجد الدلائل على انها تنبع من شبقي القاتل الى الحورية المسعورة .

وإذ انحنت برأسها الجميل على المنضدة التي اجلس اليها لف همبرت الفاجر (الذي هو انا) ذراعه حول وسطها في حركة من العطف الابوي مصطنعة اصطناعاً رديئاً وإذ كانت زائرتي البريئة تدرس مبهورة رسم كابوسي فقد اخذت تجلس بحركة عفوية تدريجية على حضني. وكان وجهها الرائع وشعرها الحريري وشفتاها المنفرجتان في متناول انيابي العارية ، وشعرت بدفء جسدها يتصاعد من ثنايا ثيابها .. وادركت في الحال بانني استطيع ان اقبل عنقها وألثم فمها دون ان اخشى شيئاً .. فقد كنت اعرف بانها خليقة بان تتركني افعل ذلك وانها خليقة كذلك بان تتقبل قبلاتي وعيناها مغلقتان كنجمة سينمائية...

لست استطيع ان اخبر قارئي الذي لا بد ان حاجبيه قد ارتفعا حتى كادا يمسان أعلى جبهته من أين اتاني ذلك العلم .. فلربما استطاعت اذني المرهفة المدعومة بلا وعي ان تميز تغيراً طفيفاً في الايقاع الذي كان يسير عليه تنفسها ذلك لأنها في الواقع لم تكن مستغرقة في تأمل الرسم انما كانت تنتظر بفضول وتلهف

من نزيل بيت امها ان يفعل ما كان يتحرق الى ان يفعله ، وما كان غريباً عليها ان تتوقع ذلك وهي القارئة الخبيرة بمجلات السينما ومعانقات الشاشة السينمائية . كانت كل الاسباب قد تهيأت ولكن فجأة ملأ صياح الخادمة البيت فقد كانت تخبر المسز هيز القادمة لتوها من السوق عن شيء قد مات .. عن حيوان وجدته ميتاً عند طرف الحديقة .

ولم تكن لوليتا بالتي تضيع فرصة سماع مثل هذه القصة فانحدرت بسرعة الى الصالون .

الاحد – افقت بمزاج متقلب بين الرضى والسأم ، وكذلك كانت لوليتا التي كانت كتكوتة غندورة في ثوبها القصير الذي يكشف عن ركبتها العارية .

الاثنين – كان يوماً ماطراً .. وشعرت بنفسي اشبه ما اكون بعنكبوت شاحب من العناكب التي تراها في الحدائق القديمة وهي جاثمة وراء شباكها تتطلع هنا وهناك .

اما شباكي فقد نصبتها في جميع أنحاء البيت فكنت اتسمع من مقعدي الحركات محاولاً تبين موضع لوليتا في البيت من وقع قدميها .. وانا ارجو بين الحين والآخر ان تظهر أمامي في مباذلها .

ولما طال بي الانتظار خرجت اتفقدها في الصالون فوجدت امها لا تزال تتحدث بالهاتف مع صديقة لها ولكن هذه المرة بصوت هامس .

وتساءلت اذا كانت حوريتي قد خرجت .. وشعرت بان

البيت قد أصبح ميتاً بارداً .. اوه يا لوليتا .. كم تصعب حياتي بدونك .

وفجأة سمعت من خلف بابي المشقوق صوت لوليتا ضاحكاً مداعباً :

« لقد أكلت كل نصيبـــك من لحم الخنزير ، فلا تخبر أمي بذلك ! »

وهرعت الى الباب ، فاذا هي قداختفت . أين أنت يالوليتا؟

أنا لا يهمني طبق الفطور .. لولا ، لوليتا .

الثلاثاء — اضطررنا مرة اخرى بسبب الغيوم الى تأجيـل النزهة عند البحيرة .. هل يتآمر القدر علي ؟

الاربعاء — قالت لي هيز بعد الظهر انها ذاهبة للسوق لشراء هدية لصاحبة لها وطلبت مني ان اصحبها نظراً لان ذوقي رفيـع في اختيار الاقمشة والعطور .

والواقع انها دفعتني دفعاً الي سيارتها فلم استطع الهرب وإذ كنت ادفع بنفسي الى المقعد سمعت صوت لوليتا الرفيـــع من نافذة الصالون :

هيه الى أين ؟ .. انا ذاهبة ايضاً .. انتظراني .

وقالت لي امها ان اتجاهلها بينما اطفأت المحرك بانتظار لوليتا التي فتحت باب السيارة بعنف .

فصاحت هيز : « هذا لا يطاق » .

ولكن لوليتا اخذت تضحك معابثة .. وقالت :

— هيا ازح مؤخرتك حتى أجلس .

وصاحت امها فيها :

– لوليتا .. ما هذا الكلام ؟ انه لا يطاق ان تتصرف طفلة مثلها تصرفاً قليل الأدب .. وان تتطفل حيثما تعرف انها مكروهة .

ولكن لوليتا لم ترد وظلت جالسة وساقها يمس ساقي .. وتطلعت فوجدتها قد اتت حافية ورأيت آثار الصباغ الاحمر على اصابع قدميها ، رباه ما الذي لا ادفعه من اجل ان اقبل كعبها الناحل ذا العظام الرقيقة .. وفجأة انحدرت يدها الى يدي ودون ان تحس امها ضغطت على يدها الدافئة وظللت ممسكا بها طيلة الطريق الى المخزن. وانا اضرع ألا نصل ابداً الى المخزن.

ليس هناك ما اسجله سوى ان امها حملتها في طريق العودة على ان تجلس في المقعد الخلفي .

الخميس – رأيت في احد كتب لوليتا قائمة بأسماء جميع تلميذات وتلاميذ صفها ، بدت لي القائمة مثل قصيدة شعر تهزج بجمال لوليتا .. وتصورت لوليتا في الصف تقضم طرف قلمها الرصاصي وتستجلب كره المعلمة بينما انصبت جميع نظرات الاولاد على شعرها وعنقها .

الجمعة – انني اتوق الى وقوع كارثة رهيبة .. زلزال .. انفجار .. أي شيء .. بحيث اجد لوليتا فجأة بين ذراعي ونحن بين الانقاض فاتمتع بها كما يحلو لي وامها بعيدة عنا .

لو كنت اشجع قليلاً مما انا عليه لنلت منها مرامي امس حيث دخلت غرفتي من جديد لتريني رسوماتها المدرسية ، لو

كان غيري مكاني لاستطاع ان يرشوها ويقضي وطره منها .

وان شخصاً اقل تعقيداً مني كان خليقاً بان يفرج كربه ببدائل تجارية عن لوليتا ، ولكنني لا اعرف أين اذهب من اجل ذلك ، فانا رعديد خجول على الرغم من مظهر رجولتي .

كانت هيز قد قالت ان نشرة الطقس تبشر باحد مشمس فاذا صحت نبوءتها فاننا سنذهب الى البحيرة .. استلقيت على سريري في حالة من التوتر الجنسي وانا اتخيل لوليتا محاولاً ان انام وشبحها بين ذراعي .. وفجأة اخذت افكر في خطة نهائية للاستفادة من النزهة . كنت عارفاً بان امها تبغضها لأنها تلاطفني وتتدلع علي .. وهكذا فقد قررت ان اجعل النزهة مناسبة لاكتساب رضاء الام .. فقررت ان اقتصر على الحديث معها الى ان تحين لحظة مناسبة ادعي فيها انني نسيت ساعة يدي في المكان المعشب الذي كنت اضطجع فيه واذهب للتفتيش عنها في الغاب يداً بيد مع حوريتي لوليتا .

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل اخذت قرصاً منوماً ورأيت في منامي البحيرة التي لم ازرها بعد .. رأيتها متجمدة ورأيت احد رجال الأسكيمو يحاول كسر جليدها بفأسه .. ورأيت لوليتا وامها على حصانين ورأيت نفسي بينهما ولكن دون ان يكون ثمة حصان تحتي إذ كنت امتطي متن الهواء .

الأحد : رأيت منظراً بديعاً .. رأيت وانا امر امام نافذة الصالون شيئاً من صدرها الجميل وهي تطل لتتحدث مع بائع الصحف .. تطلعت اليها بعينين زاحفتي النظرات وشعرت

باطرافي تذوب وتموج كاطراف عنكبوت عجوز . وكان يخيل إليّ أني اراها من فتحة تلسكوب عملاق . ودخلت المنزل وصعدت إلى الصالون اجرجر نفسي كالمشلول محدّداً بصري بردفها المبسوط واخيراً انسللت الى ورائها حيث ارتكبتُ حماقة تافهة بمفاجأتها مفاجأة حمقاء .. اذ امسكت بطرف منديل عنقها واخذت اهزها .. لقد فعلت ذلك لاخفي اضطرابي .

فصاحت بي الجنية الصغيرة بصوت رفيع وبلهجة مبتذلة :

كفى .. كفى ..

فتراجعت الى الوراء بذلة بينما مضت في حديثها مع بائع الصحف .. كأنما اثقلت عليها ..

ولكن بعد الظهر بينما كنت جالساً اقرأ حجبت نظري يدان رقيقتان . فقد جاءت من خلفي وعمشت عيني باصابعها التي بدت حمراء قرمزية وهي تحاول حجب ضوء الشمس عن ناظري .. وما لبثت لوليتا ان انفجرت ضاحكة .. واخذت تتمايل يسرة ويمنة بينما كنت ادفع اليها ذراعاً متسللة .. وسرعان ما لمست يدي ساقيها الرقراقتين الدافئتين ووقع الكتاب الذي كان بيدي الاخرى على حجري ..

وفجأة دخلت الام وقالت باستياء :

ـ اصفعها في المرة الثانية إذا قطعت عليك قراءتك العلمية ..

وأردفت قائلة بصوت عديم الطعم : آه كم احب هذه الحديقة ...

قالت السيدة الثقيلة الظل هذا وافترشت الارض المعشبة وهي

ترفع ابصارها الى السماء ..

وفجأة وقعت عليها طابة تنس قديمة غبراء.. وسمعنا صوت لوليتا من المنزل ضاحكا :

ـ العفو يا ماما لم أكن اقصدك .

بالطبع لم تقصدها فقد كانت الجنية اللعوب تقصدني .

- ١٢ -

فشلت جميع محاولاتي الشيطانية .. وظلت الحال على ما هي عليه . ففي كل يوم يغريني الشيطان ويهيجني ثم يتركني فجأة فتتخلى عني شجاعتي واحس بالآلام تأكل كل وجودي .

كنت اعرف تماماً ما ارغب في ان افعله وكيف افعله وذلك دون أن انتهك رغم كل شيء ، عفاف الطفلة . ففي حياتي تجارب سابقة في مداعبة المراهقات دون الاضرار ببكارتهن .. وفي الاحتكاك بهن في الحدائق المزدحمة وفي سيارات الباص .

مرت علي ثلاثة اسابيع وانا ارسم الخطط فتحبطها الام هيز التي ربما لاحظ القارىء انها تخشى ان تستجر ابنتها بعض اللذة مني اكثر مما تخشى ان اتلذذ بابنتها ...

ان التوقد الذي نما في قلبي حيال هذه الحورية كان خليقاً بأن يدفعني من جديد الى مستشفى الامراض العقلية لولا ان ابليس قد ادرك بانه يجب ان يتوفر لي ما يفرج عن نفسي اذا كان يريد أن يلعب بي زمناً اطول .. فقد كانت لوليتا آخر حورية يمكن ان تصل اليها مخالبي المألومة الخجولة ...

ولعل القارىء قد لاحظ ان سراب البحيرة قد كثر في حديثي ولكن القارىء لا يعلم ان المسز هيز قد حطمت احلامي إذ اخبرتني بان ماري هاملتون المراهقةالسمراء الجميلة ستأتي معنا ايضاً .. فخطر لي كيف ان الحوريتين المسعورتين ستقضيان الوقت في التهامس واللعب مع بعضهما بعضاً .. بينما سأضطر الى التسامر مع امها ونحن نصف عاريين وبينما ستشرد عيناي اثناء الحديث صوب لوليتا .

- ١٣ -

ان القدر يعاكسني .. فقبيل اليوم المحدد للنزهة تلفنت ام ماري هاملتون لتخبر السيدة هيز بان ابنتها مريضة بالحمى .. ولن تذهب للنزهة ..

ونتيجة لذلك ابلغت هيز ابنتها لوليتا بان النزهة ستؤجل.

سمعت ذلك وانا اخرج من غرفتي لاضع في المرصينية افطاري بعد ان انتهيت من طعامي .. وران السكوت على المنزل فحلقت ذقني ثم تسللت دون ان امسح الصابون تماماً عن وجهي منحدراً الى الصالون بحثاً عن لوليتا .

انني اريد من قرائي ان يشتركوا في الحادثة التى سأرويها . اريدهم انيحصوا كل تفاصليها ليروا كم كانت طاهرة نقية الحادثة العذبة اذا نظروا اليها بما وصفه المحامي الذي يدافع عني بانه « عطف منزه عن الهوى » .

ان بطل الحادثة المسرحية هوبالطبع انا همبرت .. اما زمانها

فهو يوم احد من حزيران(يونيو) اما مكانها فهو قاعة الاستقبال السابحة في ضوء الشمس .

كانت لوليتا تلبس ذلك اليوم ثوباً ظريفاً مقلماً رأيته عليها مرة واحدة فقط وكانت قد صبغت شفتيها بالاحمر انسجاماً مع قوامها المشوق الذي يرصد الثوب ويبدي مكوراته ولتكمل الصورة الجميلة بذراعيها العاريتين وخديها المضرجتين كانت تحمل في يدها تفاحة حمراء نضرة .. لم تكن على كل حال راغبة في الذهاب الى الكنيسة فقد كانت محفظتها البيضاء ملقاة كيفما اتفق قرب الفونوغراف .

واخذ قلبي يقرع كالطبل بينما جلست على الاريكة بجانبي والهواء ينفخ تنورتها البيضاء وهي تلعب لاهية بالتفاحة فقذفت بها الى الاعلى والتقطتها ..

وفجأة انتزعت التفاحة منها فصاحت متوعدة بيد بضة : اعطني اياها .. فمددت يدي بالتفاحة وسارعت فتناولتها وقضمت منها قضمة بينما كان قلبي يذوب كالثلج تحت تأثير ملامساتها. وما لبثت ان انتزعت من يدي المجلة التي كنت اتظاهر بقراءتها واخذت تقلب بسرعة الصفحات بحثاً عن موضوع تريدني ان اراه . وافتعلت الاهتمام فادنيت رأسي الى قربها بحيث لامس شعرها جبهتي وبحيث لامست ذراعها خدي عندما مسحت فمها بمعصمها .. على انني بسبب الضباب الغائم الذي غطى على ناظري وانا اطل على الصورة أبطأت في التفاعل معها . بينما كانت ركبتاها تهتزان وتتصادمان وتتلامسان بعصبية . ثم ما

لبثت ان سحبت المجلة من يدها فانبطحت علي في محاولة عقيمة لاستعادتها فقبضت على مرفقها النحيل وسقطت المجلة على الارض فتململت « لو » وانتزعت نفسها من احضاني وعادت الى جلستها تستند الى حافة الاريكة ثم ما لبثت الطفلة الغريرة ان مدت ببساطة متناهية ساقيها وأراحتهما على حضني .

في هذه اللحظة انتقلت الى حالة من الهياج تكاد تصل حد الجنون ولكنني احتفظت بمكر المجنون . فمن جلستي على الاريكة استطعت ان اضبط، بعد سلسلة من الحركات المستترة، انغام شبقي المستور الى اعضائها الطاهرة .. ولم يكن سهلاً علي تحويل انتباه المراهقة عن مقاصدي اثناء كنت اقوم بالتعديلات اللازمة لوضعي حتى تنجح العملية .. فاخذت اتكلم بسرعة متظاهراً بوجع الرأس لاوضح التقطع في انفاسي بينما كنت في الوقت ذاته اسلط عيناً داخلية مهبولة على هدفي الذهني النائي .. وبحذر زدت من الاحتكاك السحري الذي كان قد بدأ يتناقص .. زدته في وهمي ان لم يكن في الواقع فقد كان هناك حاجز يعوق تمامه ولايمكنني ازالته اذ كيف كان لي ان اخلع حينئذ بيجامتي والروب دي شامبر ؟ اجل كان الاحتكاك الحسي رائعاً بين ثقل الساقين اللتين لوحتهما الشمس واللتين امتدتا على حضني وبين فوران خفي لشهوة لا يمكنني ان اصفها .

وفي اثناء تلعثم انفاسي وكلماتي وقعت على كلمات اغنية «كارمن يا عزيزتي » التي اخذت اردّدها بشكل آلي كتعويذة سحرية وانا اشعر بفزع شديد من ان تتدخل الاقدار فتقطع لذتي وتزيل عن

حضني الحمل الذهبي الذي بـدا لي ان كل وجودي قـد تركز في التلذذ به . هكذا فقد اجبرني هذا القلق على ان اعمـل في ظرف الدقيقة الاولى باستعجـال لا يتلاءم مع المتعـة المدبرة بشكل متعمد.. اما هي فكانت تصلح لي انغام الاغنية اذا كانت تعرفها وكانت اذنها موسيقية .

كانت ساقاها تختلجان قليلاً في امتدادهمـا فوق حضني المتوثب ولما امررت يدي عليها اطلقت ضحكات مغناجـة وهي ماضية تأكل تفاحتها واخذت تهز قدميهـا حتى سقطت احدى فردتي حذائها على كومة المجلات بجانبي ..

لقد كانت كل حركة تصدر منها تساعدني على اخفاء وتحسين ما ابتدعته حينذاك من وسيلة سرية للاتصال البارع بين الوحش والحسناء . الاتصال بين وحشي الحبيس المتفجر غلمة وبين جمال جسدها البريء ..

شعرت بان رؤوس اعصـابي قـد تحولت الى عيون رأيت واحسست بواسطتها بالزغب الناعم المنتشر على طول قصبة ساقها وسرعان ما ضعت في غمرة الحرارة اللاذعـة التي تتضوع من جسد لوليتا كوهج الصيف .

وبينما كانت تأتي على آخر تفاحتها كنت اضرع بان تبقى كما هي . ولكنها ما لبثت ان انحنت لتلقي ببقية التفاحة في المنفضة فكان ان انحدرت بثقل بطن ساقيها على حضني المتوتر المتعذب وفجأة طرأ على حواسي تغير غامض فقد دخلت مرحلة لم يعـد فيها لأي شيء اهمية سوى دفق المتعـة التي كانت تغمر قرارة

نفسي . اما ذلك الذي بدأ كتمدد لذيذ لأعمق جـــذور كياني الباطني فقد اصبح وخزاً متوقداً وصل الآن الى حـــالة من الاطمئنان المطلق الذي لا يتوفر في اي جانب من جوانب الحياة الواعية ، وشعرت بانني استطيع ان اهدأ من اجل ان اطيل توقدي بعد ان وطدت تلك الموجة العذبة اقدامهـــا في اعماقي واخذت تسير نحو التشنج المطلق ، بينما كنت في اقصى حالات التلذذ بانفرادي هذا معها فاخذت اتأمــل تلك الحورية الزهراء البشرة التي مسحتها الشمس بصبغة ذهبية .. اخذت اتأملهــا ولكن من وراء قناع لذتي المكبـــلة عن رضى وهي غير شاعرة بها بينما كان خيط من اشعة الشمس قد استقر على شفتيها وهمــا تتراقصان اذ كانت لا تزال تغمغم باغنية «عزيزتي كارمن» .ولقد اصبح كل شيء جاهز الآن..فلقد تعرت اعصاب اللذة وبدأت مناطق الاحساس في جسمي تدخل مرحلة الخبل فكان اقـــل ضغط يكفي للوصول الى النهاية الرائعــة السماوية ، في تـــلك اللحظة لم أعد همبرت همبرت الكلب الذليل الذي يلعق القدم التي تركله فلقد اصبحت فوق مستوى محنة السخرية وابعد من متناول يد العقاب . شعرت بنفسي قوياً عتياً مدركا كل الادراك لحريتي كسلطان تركي يرجيء عمداً لحظة الاستمتاع باصغر واجمـــل محظياته .

وإذ شعرت بنفسي معلقاً على شفير الهوةالشهوانية فقدظللت اردد وراءها كلمات الاغنية كانسان يتكلم ويضحك في نومـــه بينما كانت يدي التي تقطر سعادة تدب على ساقها الملوحة بسمرة

الشمس الى ابعد ما تسمح به خلال التأدب !

كانت في اليوم الماضي قد اصطدمت بالخزانـــة الكبيرة في الصالون فترك الاصطدام كدمة بنفسجية - صفراء على فخذها البض البديع أخذت امسدها بيــدي الضخمــة المكسوة بالشعر متحججاً بالشفقة هاتفاً :

« انظري .. انظري مَاذا فعلت بنفسك ؟ »

ومضيت اجس ساقهابراحتي بسهولة ويسر فلقد كانت ثيابها الداخلية من التحلل بحيث لم يكن هنــاك من شيء يمنع ابهــام يدي من الوصول الى الاعماق الحارة في حوضها، وبيـــنما كنت ادغدغ ساقها ردت علي :

- أواه انها لا شيء على الاطلاق .

قالت ذلك واندفعت في ضحكة مغناجة فبــان صف اللؤلؤ الاسفل من فمها واستراح على شفتهــا اليسرى واستقـــامت في جلستها في حضني حتى كاد فمي الذي يئن ؛ يا حضرات المحلفين، يمس قذالها (مؤخر الرقبة) العــــاري ، بينما كنت اركز على إليتها اليسرى آخر ارتعاشة فياطول نشوة عرفها مخلوق بشري أو وحش انساني .

وُبعيد ذلك تدحرجت لوليتا من على الاريكــة وقفزت على قدميها كيما ترد على التلفون الذي كان خليقاً بأن يقرع الى الأبد دون مجيب لو كان الأمر بيدي .

كانت تقف على قدم واحدة طارفةبعينيها،ملتهبة الوجنتين، منثورة الشعر ، وكان بصرها يتنقل بلامبالاة بيني وبين الأثاث

فيما كانت تستمع او تجيب على امها في التلفون .

اما انا فقد مسحت بمنديل حريري العرق من عـــلى جبهتي واخذت ارتب ما تشعث من اجزاء الروب دي‌شامبر بينما كانت لا تزال على التلفون تحادث امهاوتجادلها . وإذ كانت رنة صوتها تتعالى صعوداً تسللت الى الحمام .

- ١٤ -

تناولت غذائي في المدينة بنهم لم اعرفه منذ سنوات فلمـــا عدت الى المنزل كانت لوليتا لم تزل غائبـــة فأمضيت الاصيـــل في التأملات السعيدة وانا كالجمل اجتر ذكريات ما حدث بيني وبـــين لوليتا في الصباح .

وشعرت بالزهو فلقد سرقت عسل التشنـــج دون أن اضر باخلاق القاصرة .. فلم يقع اطلاقاً أي ضرر .. لقد صببت فيها حسياً كل لواعجي ولكن دون ان ادنسها .. وهكذا فقد ظلت لوليتا آمنة وظللت آمناً.فما امتلكتـــه بجنون لم يكن لوليتـــا الواقعية انما كانت لوليتا خيالية خلقتها انا..وربما كانت أصـــدق من لوليتا الحقيقية .. لوليتا لمجردة من الارادة والشعور والحياة كانت تميس بيني وبين لوليتا الحقيقية على الاريكة .

لم تعرف الطفلة شيئاً فلم افعل شيئاً معها وهكـــذا لم يكن هناك ما يمنعني من تكرار عملية لم تؤثر عليها اكثر مما يؤثر احدب قميء في ظلام السينما يزاول العادة السرية على صورة حســنـــاء

معكوسة على الشاشة البيضاء .

شعرت بساعات الاصيل تطول في ذلـــك السكون المريب حيث بدت لي اشجار الدردار كما لو كانت تعرف سري .. وشعرت بشبق اقوى من شبق الصباح يدب في عروقي من جديد، فأخذت اضرع الى الله ان تأتي وان نكرر مسرحية الصباح على الاريكة بينما لا تزال امها منشغلة في المطبخ، ارجوك يا الهي ان تأتي فـأنا اعبدها بشكل رهيب .

كلا ان كلمة «بشكل رهيب» هي تعبير خاطيء ، فالطرب الذي ملأت به نفسي احلام الملذات الجديدة لم يكن رهيباً انما كان شجياً ، انني اصفه بانــه شجي لأنني كنت انوي ان احمي بـكل قوتي وحكمتي طهارة تلك الطفلة هذا على الرغم من النيران التي تأججت في مكامن قابليتي الجنسية .

والآن اسمعوا كيف جوزيت على آلآمي .. لقـد عادت لوليتا ولكن ليس وحدها بل معها جيرانهـــا آل تشاتفيلد الذين اصطحبوها الى السينما فتناولنا العشاء على مائـــدة بالغت المسز هيز في تزيينها .. واثناء العشاء قيل لي أن فيليس تشاتفيلد بنت الجيران ستذهب غداً الى مخيم صيفي للبنـات لمدة ثلاثـــة اسابيع وانه تقرر ان تتبعها لوليتا يوم الخميس المقبل لتبقى في المخيم حتى موعد افتتاح المدارس .

فاجأني هذا النبأ مفاجأة شديدة ، أليس معناه انني سأفقد حبيبتي في الوقت الذي امتلكتها فيه سرياً ؟

ولكي استر وجومي الشديـد ادعيت وجـــع الرأس الذي

ادعيته في الصباح وعزوته الى ضرس ملتهب .

وبعد ان استمعت الى توصيات عدة بشأن طبيب الاسنان الذي يجب ان الجأ اليه ، اثرت بمناورات بارعة مسألة ذهاب لوليتا الى مخيم البنات وسألت امها : هل انت متأكدة من انها ستكون سعيدة هناك ! (يا لهذا السؤال الاعرج) .

فأجابتني : اجل ، ستكون افضل حالاً ، فلن تقضي كل وقتها في اللعب إذ ان المخيم بادارة شيرلي هولمز الاخصائية في تربية المراهقات ولا بد انها ستعلّم لوليتا الكثير من الاشياء والقواعد النافعة وستعلمها على الأخص الشعور بمسؤولياتها تجاه الآخرين .

وانتهى الحديث باقتراح من السيدة هيز بان تذهب الى بركة الماء ولكنني تحججت بضرسي الملتهب وآويت الى غرفتي .

- ١٥ -

في اليوم التالي ذهبت لوليتا الى المدينة لشراء ما تحتاجه من حاجيات للمعسكر وبدت عند العشاء في اقصى حالات النشوة واعتكفت في غرفتها تطالع مجلات الكوميك بينما اعتكفت اكتب بعض الرسائل وانا افكر بمغادرة المنزل الى مدينة ساحلية على ان اعود اليه عند افتتاح المدارس أي بعد ان تعود لوليتا من المخيم حيث تأكدت من انني لا استطيع ان اعيش بدون هذه الطفلة .

وفي عشية السفر تناولت لوليتا عشاءها في غرفتها ، فقد

بكت بكاء شديداً بعد مشاجرة تقليدية مع امها ولم ترغب ان اری عينيها المنتفختين .. فقد كانت بشرتها من الحساسية بحيث كانت مآقيها تحمر وتنتفخ بعد كل فاصل بكاء .

لقد اسفت جداً لأنها ظنت انها تؤذي بمنظر عينيها قيم الجمال التي احسها .. ذلك لأنني احب تلك اللمحة القرمزية التي تنتشر بعد البكاء كورق الورد حول شفتيها واحب رؤية رموشها المبللة بالدموع وهكذا فان استحياءها قد حرمني من كثير من فرص كانت تستطيع ان تمدني بالعزاء العذب .

وعندما جلست في ظلام الليل على الشرفة مع السيدة هيز افكر في وجه لوليتا الشاحب الباكي قالت لي هيز بضحكة مغتصبة بانها قالت لابنتها لوليتا بان محبوبها همبرت يوافق تماماً على فكرة ارسالها للمخيم فاجابتها لوليتا بان ارسالها الى المخيم كان حجة مني ومنك للتخلص منها .

استطعت قبيل يوم السفر ان انفرد بلوليتا لبضعة دقائق وكانت في سروال صبياني قصير (شورت) وقميص شفاف فقلت لها كلاماً اردته ان يكون دعابة ولكنها لم ترد علي انما زمّت شفتيها واصدرت همهمة غامضة ودون ان تتطلع الي .

فربّتُ بخبث على مؤخرتها ، وردت بان ضربتني ضربة مؤلمة على ذراعي .

وفي المساء لم تتنازل بان نتناول طعام العشاء مع الماما ومع همبرت ، انما غسلت شعرها وذهبت الى فراشها لتطالع كتبها المضحكة ، وفي صباح الخميس قادتها امها بهدوء الى مخيم البنات .

لو ان مؤلفاً عظيماً كان يروي قصتي لقال (وانني اترك لخيال القراء ان يتصور حالي) ، ولكنني لن اترك شيئاً لخيـــالهم وسأقول بانني عرفت بأنني قد وقعت في حب لوليتا الى الابد ، ولكنني كنت اعرف كذلك بانها لن تكون لي لوليتـا الأبـدية ففي كانون الثاني (يناير) ستبلغ الثالثـة عشرة وبعـد سنتين لن تظل حورية مراهقة مسعورة ، انما ستتحول الى مجرد صبية ، ثم الى تلميذة جامعية.. وهكذا فان كلمة «الى الابـد» تشير فقط الى هيامي والى لوليتا الخالدة الأزلية كما تنعكس في دمـائي .. اعني بها لوليتا — البرعم الذي لم تتفتح اكامه الوردية بعد . ولوليتا ذات الصوت الرفيع الرقيع والشعر العسلي الغزير، التي استطيع ان المسها واشمها واسمعها بكل جوارحي .

وهكذا تساءلت كيف سأستطيع الا اراها لمـــدة شهرين كاملين ؟ .تساءلت هل اتنكر في ثوب امرأة عـــانس وانصب خيمة قرب مخيم البنات ؟

وهكذا سيضيع علي شهران من الحياة بقرب الجمال والرقـة ومع ذلك لا استطيع ان افعل شيئاً .

كان ما حدث صباح الخميس بمثابة قطرة عسل لم تمكث طويلاً في كأسها ..

لقد قفزت من فراشي واطللت من النافذة، اد سمعت اصوات الرحيل و. أيت الحبيبة امام الممر تظل عينيها بيديهـا من شمس الصباح ، بانتظار امها التي جاءت لتأخذها بسيارتها الى المخيم ، واد كادت تلج السيارة وهي تلوح بيدها مودعـة الخادمة لويز

تطلعت الى الاعلى ورأتني فانفلتت عائـدة الى البيت وسمعت قدميها تقفزان السلم فارتديت بعجلة سروال بيجامتي وفتحت باب غرفتي على مصراعيه وانا احس بقلبي يتوسع فرحـاً حتى يكاد ينفجر ، ولم تمض برهة حتى اطلت لوليتا والقت بنفسهـا بين ذراعي واخذ فمها العذب البريء يذوب تحت ضغـط فـكي وانا اهصرها هصراً .

ولحظة وانفلتت مني عائدة.. وعاد القدر يتحرك اذ تحركت السيارة بها ، وقد كشفت عن ساقها الشقراء وهي تلـج الى مقعدها .

- ١٦ -

لم تزل راحة يدي عابقة بضوع لوليتا .. لم تزل عابقة بضوع تحسسي لمكورات تلك المراهقة ولبشرتها الناعمـة ، عندمـا مضيت الى غرفتها وفتحت خزانة ملابسها الداخلـية وغمرت وجهي بكومة الثياب المشعثة التي كانت قد لامست جسدها .. ووجدت بصورة خاصة رقعة من القماش ملطخة بـلون قرمزي تفوح منها رائحة عرقها فتناولتها وضممتها الى صدري ..

وفجأة سمعت صوت الخادمة لويز وهي تناديني من تحت ، ولما توجهت اليها قالت ان عندها رسالة لي وناولتني مظروفاً فتحته بيدين مرتجفتين وقرأت فيه الرسالة التالية :

« ليست هذه رسالة انما اعتراف فانا احبك . (هكذا بدأت الرسالة التي حسبت من خطها المشوش ان لوليتا هي التي كتبتها) .. لقد كتبت هـذه

الرسالة بعد ان استخرت الله في الكنيسة يوم الاحد الماضي فيما افعل فالهمني ما أفعل الآن ، ليس لي من معدى عن ذلك ...

لقد احببتك من اللحظة التي رأيتك فيها ، ولقد وجدتك حبيب حياتي انا المرأة العاطفية التي تقاسي الوحدة .

اما الآن فقد أصبحت يا اعز عزيز تعرف الحقيقة بعد ان قرأت ما سبق.

وهكذا فانا ارجو ان تحزم امتعتك وترحل في الحال . انني أأمرك هذا بصفتي صاحبة البيت التي تطرد مستأجراً..اجل اننى اطردك يا احب حبيب فاذهب .

انني سأعود هذا المساء ولا ارغب في ان اجدك في البيت ، فـارجوك ان ترحل في الحال ، والا تقرأ هذه الرسالة السخيفة الى آخرها ...

ان الموقف يا عزيزي واضح تماماً ،. انني اعرف بالتأكيد انني لا اعنـي شيئاً بالنسبة اليك.. اجل انك تجد متعة في التحدث معي كما انك اخذت تحب جونا البيتي . ولكنني ظللت كمية مهملة بالنسبة اليك اليس كذلك ؟

بيد أني ساعتبرك اذا قررت بعد ان قرأت اعترافي هذا ، اقول سأعتبرك اسوأ من مجرم منحرف يغتصب طفلة.اذا قررت بعد قراءة الرسالة ان تستثمر الامر وتحاول ان تنالني .

وهكذا فانت ترى يا عزيزي بانك اذا قررت البقاء في البيت (وانا اعرف انك لن تفعل) فان بقاءك سيعني شيئاً واحداًهوانك تريدني بقدرما اريدك.. اي كشريكة حياة وانك مستعد لان تربط حياتك بحياتي للأبد وان تكون اباً لطفلاتي الصغيرة ..

يا حبيبي اي عالم من الحب قد بنيته لك . خلال شهر حزيران (يونيو) هذا !! انني اعرف كم انت متحفظ .. وكم ستهزك جرأتي ..

انك يا عزيزي قد أرويت فضولك الآن.اذ تجاهلت طلبي ومضيت تقرأ تلك الرسالة حتى آخرها .. لا بأس .. مزقها وامض في سبيلك ولا تنس ان تترك لي عنوانك حتى ارد اليك ما يحق لك استرداده عن بقية الشهر.

وداعاً يا اعز حبيب وصلي من اجلي اذا كنت تصلي » .

شارلوت ميز

كان لرد الفعل الأول الذي اجتاحني إثر تلاوتي الرسالة شعوراً بالدهشة والشرود والانكفاء .. ثم شعرت كأن يداً صديقة تربت على كتفي مهدئة .. فهدأت وخرجت من شرودي لأجد نفسي من جديد في غرفة لوليتا وكان هناك اعلان على صفحة منتزعة من مجلة ، معلقة فوق حائط السرير ، يمثل عريساً شاباً ذا شعر أسود، وعينين زرقاوين . وكانت « لو » قد رسمت بقلم هازل سهما متجهاً الى وجه البطل وأضافت اليه بحروف كبيرة : « هـ . هـ » والواقع أن الشبه واضح جداً لولا فرق بعض السنوات .

وكان هناك اعلان آخر ملون معلقاً تحته ، وهو يمثل مؤلفاً مسرحياً معروفاً يعرض سيكارة « دروم » ولم يكن يدخن الا سكاير دروم . وكان الشبه هنا ادعى للشك .

واذ تأكدت من أن لويز قد ذهبت استلقيت على سرير «لو » وقرأت الرسالة من جديد ..

- ١٧ -

حضرات المحلفين : لست استطيع ان اقسم بان الانفعالات والحركات المتعلقة بهذه القضية لم تخطر فيبالي قبلاً .. فلربما مرت علي لحظات اثرت فيها بشكل موضوعي مسألة الزواج من ارملة ناضجة مثل شارلوت هيز.. كيما يتيسر ليسبيل الىابنتها لوليتا .

بل انني مستعد لان اقول لمن يعذبونني بانني القيت نظرة

تثمينية على شفتي شارلوت القرمزيتين وشعرها البرونزي وجيدها المفتوح بشكل مغر ، وحاولت بشكل غامض ان ادخلها في احد احلام يقظتي .

انني اعترف بهذا تحت وطأة التعذيب ، ربما التعذيب الوهمي ، ولكنه تعذيب مخيف .

وعلى كل فانني لم ألبث ان مزقت رسالة شارلوت وذهبت الى غرفتي وأصلحت من حال شعري وانا افكر بالمداعبات التي يمكنني ان افعلها مع لوليتا بصفتي زوج امها ، وتصورت نفسي اعانقها ثلاث مرات في اليوم وكل يوم .

ثم حاولت بمنتهى الحذر ان اتصور شارلوت كشريكة حياتي وفراشي ، وان اتصور نفسي كزوج يعمل من اجل ان يوفر لها اسباب الحياة والمتعة .

بل ان همبرت همبرت الذي تصبب عرقاً تحت ضوء التحقيق الساطع ورجال الشرطة المتصببون عرقاً يجرونه ويدفعونه امامهم .. ان همبرت همبرت وقد فتح للضوء ضميره يستطيع ان يدلي باعتراف آخر : أجل انني لم انو الزواج من شارلوت المسكينة من اجل ان ازيلها من الوجود بذلك الشكل المبتذل الفظيع .. بواسطة دس حامض الزئبق في كأس شرابها ..

اجل لم يخطر ذلك في بالي ، وانا اتصور نفسي زوجاً لشارلوت واتصور نفسي وانا أضع اقراصاً منومة في شراب الام والبنت حتى استطيع ان اتمتع بالبنت طيلة الليل دون ازعاج . فلا يصيبني من ذلك ادنى عقاب ، فبينما يكون البيت مهتزاً من

شخير شارلوت ، تكون لوليتا، وهي لا تكاد تتنفس في نومها ، اهدأ من دمية مدهونة .

ثم تصورت نفسي بانني اذا تزوجت الام، فانني قد استطيع حملها بواسطة تهديدها بالهجر على ان تتركني اقارب صغيرتها التي ستكون ربيبتي الشرعية (الربيبة بنت الزوجة من أب آخر سابق) .

وبالاختصار فقد كنت قبيل ان تعرض علي شارلوت هيز الزواج مثل آدم عندما خرج من الجنة وظل للوهلة الاولى بدون حول او طول ..

والآن انتبهوا الى الملاحظة التالية الهامة :

لقد طغت شخصيتي كفنان على شخصيتي كجنتلمان بعد ان عرضت شارلوت الزواج علي وبعد ان تطورت الاحداث الى قتلي اياها ..

وهكذا فانني رغبة مني في ان اوفر على شارلوت ساعتين او ثلاث ساعات من القلق وانشغال البال ، على طريق مليء بالمنعطفات ، ربما تسبب لها حادثه تهدم احلامي ، نظراً لانني اعرف انها كانت تسوق سيارتها بسرعة جنونية في غمرة انفعالها، اقول انني قمت بمحاولة فاشلة للاتصال بها تلفونياً قبل ان تترك المخيم، ولكنني تأخرت فتحدثت مع لوليتا فاخبرتها وانا ارتجف زهواً بسيطرتي على القدر بانني سأتزوج من امها .. وقد اضطررت ان اكرر النبأ مرتين لان شيئاً ما كان يحول دون ان تكرس لي كل انتباهها ، وسمعتها تهتف ضاحكة ..

– اوه .. هذا رائع .. متى يكون الزواج ؟

انتظر لحظة .. ان هذا الكلب الملعون يلعق ساقي .

اغلقت الهاتف وقد شعرت ان مباهج ساعات من الحياة في المخيم قد حجبت عن لوليتا ذكرى همبرت .. ولكن ماذا يهم الأمر ؟

فسأستطيع بعيد زواجي من امها ان اعيدها الى البيت .

ذهبت بعد المكالمة الهاتفية لاتفقد محتويات الثلاجة فوجدت ما فيها غثاً ، ثم ذهبت الى المدينة واشتريت الاطعمة اللذيذة واغلى المشروبات ، وانا واثق من انني سأستطيع بمساعدة هذه المنشطات وبالاعتماد على مواهبي ، تجنب أي احراج قد يتسبب فيه برودي ، عندما ادعى الى اظهار ميول ملتهبة قوية حيال الارملة .

وعمدت الى تصوراتي لاخلق من شارلوت صورة تقبلها نفسي وتقنع بها وخلصت الى تصورها بجسمها الممتليء كشقيقة لوليتا الكبرى وليست كأمها .. وقلت لنفسي بانني قد استطيع الاستمرار في اعتبارها شقيقة للوليتا ، لولا انني اراها بعين الخيال كما هي : امرأة ذات ردفين ثقيلين وركبتين مدورتين وصدر مليء وجيد دموي اللون .. إمرأة انيقة أي انها في نظري تؤلف شيئاً بليداً قاتماً مملاً .

وبينما كانت الشمس تنحدر نحو الاصيل، صببت لنفسي كأساً ثم كأساً ثالثة من مزيج الجن وعصير الاناناس ، كيما ازيد من شجاعتي النفسية ثم اخذت اشغل نفسي بالحديقة المهملة ، بينما

كانت نظراتي تكنس زاوية الشارع بالاتجاه الذي ستأتي منـه شارلوت .

وبعد قليل جاءت بسيارتها ودارت بها واختفت وراء البيت واستطعت ان المح وجهها هادئاً وخطر لي انها لن تعلم حتى تصعد الى الطابق الاعلى ، اذا كنت رحلت أم لا . وبعد دقيقة اطلت من نافذة غرفة لوليتا والقت علي نظرة كشفت عما تقاسيه من قلق وعذاب ؛ فهرعت اصعد الدرج واستطعت ان اصـل الى غرفة لوليتا قبل ان تغادرها .

- ١٨ -

عندما تكون العروس ارملة والعريس مطلقاً ، وعندمـــا تكون العروس قد قطنت في المدينة منذ سنتين والعريس قـــد قطن منذ شهر ؛ وعندمـــا يريد العريس ان ينتهي من الصفقة الملعونة باسرع مــــا يمكن ، وعندما تستسلم العروس لرغبته بابتسامة تسامح فعند ذلك تكون حفلة العرس هادئة بعيدة عن المظاهرات والمراسم .

ولقد كان بودي ان تحضر لوليتا الحفلة فلقد كان وجودهـا خليقاً بان يشجعني ويضفي على العروس بهاءها ، ولكنني وافقت مع امها على ان الامر لا يستأهل انتزاع الطفلة من مخيمها المحبوب ولم يمض عليها فيه ايام معدودات .

ولقد اكتشفت ان شارلوت واقعية ، وانهـا على الرغم من

عدم قدرتها السيطرة على قلبها ودموعها ، امرأة ذات مبادىء ، فبعد ان اصبحت عشيقتي في عشية الزواج اخذت تستجوبني عن طبيعة علاقاتي مع الله ، وكان باستطاعتي ان اجيب على تساؤلاتها بشكل واضح ، ولكنني بدلاً عن ذلك قلت لها بانني اؤمن بروح كونية .. وبعد أن تأملت اظافر اصابعي سألتني اذا كان ليس في عائلتي من مرض وراثي عصبي فصددتها بان سألتها اذا كانت تتزوجني اذا علمت ان والد جدي لأمي كان تركياً ؟

فقالت ان ذلك لا يهم ، ولكن اذا ما وجدت يوماً انني لا اؤمن بالرب يسوع، فانها ستنتحر . وقالت ذلك بلهجة جدية ارسلت الرعشة في جسدي .

كانت امرأة ثرثارة تحب ان تحيطني بالدعاية لدى صويحباتها، وقد كانت بهجتها عظيمة ، عندما نشرت الصحيفة المحلية حديثاً عقدته معي ونشرت معه صورتها .. اجل لقد سرها ذلك وتغاضت عن خطأ الصحيفة اذ دعتها شارلوت هيزر ..

ولم يمض شهران حتى كانت قد اصبحت احدى البارزات في مجتمع مدينة رامسدال ، باعتبارها زوجة المستر ادرغار ه . همبرت الكاتب والرحالة (اضفت اسم ادغار الى اسمي من اجل مرضاتها) .

ولقد اشعت في حديثي الصحفي باننا (انا وشارلوت) نعرف بعضنا بعضاً منذ ١٣ عاماً ، وانني قريب لزوجها الاول، بل ألمحت الى انه كانت لي علاقة غرامية بها منذ ١٣ عاماً ،

ولكن الصحيفة فضلت عدم الاشارة الى الموضوع وبررت شارلوت ما نشرته الصحيفة بان الصفحة الاجتماعية لا بد ان تحتوي دائماً على سلسلة من الاخطاء .

والآن لنمض في سياق قصتنا الغريبة : لا بد ان القارىء يتساءل عما اذا كنت لم اعان سوى المرارة والقرف ، اذ رفعت من مرتبة نزيل الى مرتبة عاشق ؟.

كلا .. لم اشعر بذلك ، بل ربما شعرت بما يدغدغ كبريائي وينزه غروري .. ولكن الشعور الأوضح الذي راوحني هو شعور الهزء والسخرية من السيدة هيز ومن ايمانها الاعمى بحكمة كنيستها وحكمة نادي الكتاب الذي تنتسب اليه ، وتقاليدها الادبية وتمسكها بمبادىء الاخلاق الاجتماعية بشكل متزمت . وانني لاذكر بهذا الصدد كيف ذعرت اذ وضعت يدي عليها عند عتبة غرفة لوليتا ، فارتدت مبهورة مصفرة قائلة : كلا .. كلا .. من فضلك ..

فمن المعيب جداً في عالم الاخلاق الاجتماعية الجماهيرية ان تستسلم ام في غرفة ابنتها ، حتى ولو كانت الابنة غائبة .

لقد حسّن تحولها من ارملة مهجورة الى عشيقة مظهرها ، واصبحت ابتسامتها المتكلفة ابتسامة حقيقية مشعة بالهيام والسعادة .. وكنا نتناول قبل ان نأوي الى الفراش عدداً من كؤوس الويسكي ؛ وكنت بمساعدة تلك الكؤوس استطيع ان أتخيل الطفلة بينما اداعب المرأة .. بل كنت اسلط خيالي على حواسي فأرى في شعر هيز، شعر لوليتا ، واشم في ضوعها ضوع

جسد لوليتا ، وكنت اردد لنفسي وانا اتملك زوجتي الفسيحة كالحياة بان جسدها هو بيولوجياً اقرب مـا يوصلني الى جسد لوليتـا ، وكنت اعزي نفسي بان ام لوليتا كانت شهية مثل لوليتا ، عندما كانت تلميذة في مثل سن ابنتهـا اليوم . وقد حملت امرأتي على ان تريني صور طفولتهـا ؛ حتى استطيع ان اتبين كيف كانت لوليتـا تبدو وهي طفلة واستطعت ان اخلص الى صورة غائمـة ، عما كانت عليه لوليتا بساقيهـا وهيئتها ووجنتيها ، عندما كانت طفلة صغيرة .

وهكذا كنت في الفراش الزوجي اطل على زوجتي من نافذة الماضي البعيد لاراها بعين الخيال مراهقة مسعورة كلوليتا، مستعيناً بالظلام وانا اجوس خلال مجاهلها ..

لا استطيع ان اخبركم كم كانت زوجتي المسكينة لطيفـة ومرهفة فكانت في الصباح تلف نفسها في ثوبهـا الاحمر وتجلس الى المائدة وتسند رأسها على راحتهـا وهي تتأملني بنظرات رقيقـة وانا التهم فطوري .. وتجد فيوجهي جمالاً ، رغم انـه احياناً يصاب بالتهاب الاعصاب .

اما حنقي الصامت فكان يبدو لهـا صمت الحب . وكان مدخولي القليل الذي اضيف الى مدخولها الاقل يبدو في نظرها ثروة باهرة ليس فقط لأن مجموع المدخولـين كان يكفي لسد معظم احتياجات اناس من الطبقة الوسطى مثلنا ، بل كذلك لأن اموالي كانت تتألق في عينيها ؛ مثلما كانت تتألق معـالم رجولتي .

وفي خلال الخمسين يوماً التي عاشرتها فيهـــا عادت المرأة المسكينة الى مزاولة كثير من اوجه نشاطها المندثرة ، فاشغلت نفسها باشياء كانت قد نستهـا منذ زمن مديد ، أو لم تكن في الاصل مهتمة بها .. وأخذت زوجتي بالجهد العقيم المألوف عن الزوجات الصغيرات ، تمجد الحيـاة البيتية ، عالمـة علماً مبهماً بانني قد عقدت علاقة عاطفية مع هذا البيت .

ولكنها لم تستطع ان تدرك الحافز الكامن وراء هذه الرابطة التي ربطتني به على الرغم مما فيه من بشاعة وقذارة ..

وعلى كل فقد مضت شارلوت تحاول ان تبهج حياتي الزوجية بتجديد بعض معالم البيت والاثاث ..

والواقع ان الاشخاص الوحيدين الذين عقدت شارلوت معهم علاقات ودية حقاً ، قد كانوا افراد اسرة « فارلو » الذين عادوا حديثاً من رحلة تجارية الى الشيلي ، فحضروا عرسنا .

- ١٩ -

يجب ان اقول بعض الكلام الطيب عن زوجتي قبل ان يفوت الأوان (اذ ان حادثة سيئة ستحدث قريباً) .

لقد ادركت منذ البداية نزعتهـــا الاستئثارية ، ولكنني لم افكر في انها ستكون غيورة بشكل جنوني من اي شيء غيرها، احتل ويحتل حياتي ، ولقد اظهرت فضولاً ضارياً لمعرفة خفايا ماضي ، وكانت تريدني ان ابوح لها بغرامياتي الماضيـــة ، حتى

تدفعني الى ان اهين من احببت .. كانت تريـد تحطيم ماضي .. ولقـــد حملتني على ان اخبرها بتفاصيل زواجي من فاليريا ، ولكنني اختلقت في روايتي اشياء كثيرة من اجل ان ارضي غرورها التافه .

وكنت كلما امعنت في تصوير عشيقاتي السابقات في شكل مزرٍ ؛ كانت سعادتها تتعاظم .

أجل لم يسبق ان عانيت في حياتي برهة اعترفت فيهـا هذا القدر ، وسمعت فيها هذا القدر من الاعترافات ، مثل برهـة زواجي من شارلوت .

لقد حدثتني عن جميع غرامياتهـــا ابتداء من اول معانقة بريئة وانتهاء بآخر معانقة غير بريئة .. ولكن مغامراتها كانت نظيفة اخلاقياً بالقياس الى مغامراتي .. ولكنها كانت تتشابه في مؤثراتها الرخيصة القائمة في كيان حياتنا ونفسياتنا .

ولقد وجدت تسلية كبرى في التعرف على بعض العـادات الجنسية الملحوظة ، التي كانت شارلوت قـد اكتسبتها . فقـد كانت عادات جدية وكانت تعتبر عبثي شيئاً غير لائق .

كانت هذه هي كل النقاط المهمة في سيرة حياتها العقيمة .

كانت قلما تتحدث عن لوليتا باكثر ممـا تتحدث عن طفل اشقر فقدته وهو صبي ، وكانت في بعض احلام يقظتها تتنبأ بان روح ذلك الغـــلام الاشقر ستعود الى الارض في شكل غـلام ستحمله مني ..

ومع انني لم اشعر بحافز الى ان اعطي لوليتا شقيقاً من امها،

(ها انتم ترون كيف انني بدأت اعتبر لوليتا ابنتي) فقد خطر لي ان ذهاب الأم الى مستشفى للولادة في الربيع القادم، ربما اتاح لي فرصة الانفراد مع لوليتا ؛ وخاصة اذا تعقدت الأمور وتطلب الأمر اجراء العمليـــة القيصرية للأم وتصورت كيف سأتمتع بمحاسن المراهقة المسعورة ، بعد ان ادس لها الأقراص المنومة..

. لقد كانت تبغض ابنتها وترى فيها طفلة شقية متمردة سلبية قلقة وعنيدة ، وكانت تبدي كرهها بتحطيم سمعة ابنتها حيثما تيسر لها .

- ٢٠ -

كان الجو في الاسبوع الاخير من تموز (يوليه) شديد القيظ ، فكنت وزوجتي نذهب يومياً الى بحيرة تبعد كيلومترات قليلة ، ويخيل الي بانه يجب ان اصف بالتفصيل آخر مرة سبحنا فيهـا معاً في صباح احد ايام الثلاثاء .

تركنا السيارة في المنطقة المخصصة لوقوف السيارات واخترنا طريقاً مختصراً عبر غابة الصنوبر للوصول الى بحيرتنـا ، وبينما كنا نسير وهي تجاذبني اطراف الشائعات عن غراميات احدى جاراتها قالت لي :

– هل تعرف يا همبرت بان حلماً طموحاً للغاية يراودني ..

قالت هذا وخفضت رأسهـا كأنما هي خجلة من حلمهـــا الطموح واستطردت :

– انني اتمنى الحصول على خادمة حقيقية مدربة كالخادمة الألمانية التي حصل عليها جيراننا آل تالبوت لتقيم معنا في البيت .

ولما قلت لها ان ليس في البيت من غرفة لايوائها .

اجابت : اوه انك لا تقدر طاقة بيتنا الاستيعابية حق قدرها .. اننا نستطيع ان نضعها في غرفة لوليتا ، وعلى كل حال فانني انوي تحويل غرفتها للضيوف فهي ثقب وليست غرفة .

شعرت بالدم يتصاعد الى وجنتي وقلت لها :

– عم تتحدثين (قلت ذلك بلهجة من القرف وعدم التصديق والهياج) .

– هل يزعجك ازالة مسرح ذكرياتك الرومانتيكية (كانت تشير بذلك الى اول مرة استسلمت فيها الي) .

– كلا .. ولكنني أتساءل اين ستضعين ابنتك اذا جاءك نزيل ، أو اذا أتتك خادمة ؟

فأجابتني بابتسامة حالمة :

– آه تعني لوليتا الصغيرة .. اخشى الا يكون لها اي مكان في وجودنا الجديد .. فسأرسلها من المخيم رأساً الى مدرسة داخلية ممتازة ، ذات نظام شديد وتدريس ديني سليم .. أجل لقد رتبت كل شيء فلا تقلق ..

وكنا في هذه الآونة قد اشرفنا على البحيرة البراقة الامواج ، فقلت لها انني نسيت نظاراتي في السيارة وانني سأعود اليها حالاً ..

لقد كنت دائماً اظن ان رفع اليد بالضراعة يؤلف حركة مسرحية روائية انحدرت الينـا من شعائر القرون الوسطى ، ولكنني لما قفلت عائداً الى الغابة في حالة من القنوط بسبب ما سمعته من شارلوت اخذت الوح بيدي الى السماء قائلاً : انظر يا ربي .. هذه القيود الجديدة التي تريد تلك المرأة ان تكبلني بها.

لو كانت شارلوت هي زوجتي الاولى فاليريا لعرفت كيف اعالج هذه الحالة .. فقد كان يكفي في الزمـان الاول ان ابرم معصم فاليريا حتى احملها على تغيير رأيها ، ولكن هذه الخطـة غير واردة ولا يمكن ان تطبق على شارلوت المرأة الامريكية المعتزة بنفسها. كانت تخيفني ، كما انه ليس من الصائب ان اسعى الى السيطرة عليها عن طريق غرامها بي ، ثم اني ما كنت أجرؤ على ان افسد الصورة التي كونتها لنفسهـا عني ، واخذت تتعبدها . لقد تملقتهـا عندما كانت الصورة المكبرة لحبيبتي الحقيقية لوليتا وظل بعض التملق عالقاً في موقفي منها ، حتى استطيع ان اتصورها تجسيداً مكبراً للوليتا .

كانت الورقة الهامة في اللعبة هي جهلها بحبي المخيف الهائل لابنتها لوليتا .. وكنت الحظ ضيقها لان لوليتا تميل الي .. ولكنها ما استطاعت يوماً ان تحدس بحقيقة مشاعري .. ولو كانت زوجتي الاولى فاليريا مكانها لقلت لها :

إسمعي ايتها البدينة البلهـاء .. انا صاحب الامر والنهي فيما ينفع ويضر لوليتا همبرت ..

ولكنني ما كنت استطيع ان اقول لشارلوت حق: « عفواً

يا عزيزتي انني لا اوافقك الرأي . أجل دعينا يا عزيزتي نعطيها فرصة اخرى .. دعيني اكون معلمها الخاص لمدة عام .. »

والواقع انه ما كان باستطاعتي ان اقول لهـا شيئاً بصدد لوليتا دون ان اكشف سري .. إذ انها ستكون في هذه الحالة قادرة على ان تميز اي افتعال لحسن النية، هذا رغم انها لم تلاحظ زيف الحياة المحيطة بها بعاداتهـا وأعرافها وقواعد سلوكها .. انها مثل الموسيقي الذي يكون مبتذلاً وسوقياً في حياته العادية مجرداً من كل ذوق مرهف ، ولكنه يستطيع في الوقت ذاته ان يكتشف اية نغمة نشاز في القطعـة الموسيقية بدقة صحيحة شيطانية ... وهكذا فان تحطيم ارادة شارلوت يتطلب تحطيم قلبها ، ولكني اذا حطمت قلبهـا فان الصورة التي رسمتها لي في خيالها ستتحطم كذلك . واذا انذرتها بانهـا اما ان تترك لي مطلق الحرية مع لوليتا، واما ان نفترق في الحال فانها خليقة بان تصفر وتبهت وتشحب وتقول :

— حسناً فلتكن هذه هي النهاية مهما قلت وبررت .

وهكذا فان النهاية خليقة بان تأتي ..

هذه هي الخواطر التي تضاربت في نفسي ، اذ وصلت الى مكان السيارة حيث اقبلت على المضخة أنهل المـاء متهافتاً كأنمـا سيمدني بالحكمة والشباب والحرية والقدرة على حل المشكلة .. ثم جلست على حافة الغاب وبانت لناظري من بعيد صبيتان في سراويل قصيرة ، وفجأة خطر لي الخاطر : ان الحل الطبيعي يكمن في القضاء على السيدة هيز .. ولكن كيف

يكون ذلك ؟

ما من انسان يستطيع ان يقترف ما يدعى بالجريمة الكاملة التي لا تثير فيها شبه ولا تترك عليها اثراً .. ولكن للانسان ان يجرب ، فربما تسنح الفرصة بذلك .

وعند هذا الخاطر عدت الى البحيرة حيث كان المكان الذي نستحم فيه انا وشارلوت وعدد من الجيران بمثابة شاطيء خاص لنا فقد كان محجوباً بنتوء صخري عن الأنظار ، ويهيء كما يقال مجالاً للسباحة أو الغرق ..

جلست بجانب زوجتي متسللاً اليها بهدوء بحيث ذعرت اذ احست بوجودي المفاجيء .. ثم سألتني :

– هيا هل نقذف بانفسنا الى الماء ..

فقلت : اجل بعد دقيقة .. اذ اريد ان اتابع في خيالي فكرة طارئة ..

وبعد اكثر من دقيقة قلت :

– حسناً هيا بنا ..

– هل كنت راكبة في قطار افكارك ؟

– بكل تأكيد ..

فقالت وهي تغطس في الماء انها ترجو ذلك . ولما وصلت المياه الى ردفيها تبعتها فوجدتها تتهيأ بذراعيها المبسوطتين لان تقذف بنفسها الى العباب .. ثم ما لبثت ان اندفعت الى الأمام مرسلة الرذاذ الكثير واخذنا نمضي الى منتصف البحيرة ، حيث لمحت على شاطئها الآخر الذي يبعد عنا الف خطوة رجلين يحفران جادين

في رقعة من الساحل وقد عرفت تماماً من هما فقد كان احدهما شرطي متقاعد والثاني سنكري سابق وكانا يملكان معظم الغاب المجاور للبحيرة .

وتطلعت حولي فلم أجد غير الرجلين البعيدين المنهمكين في العمل. كان كل شيء معداً كمسرح لجريمة قتل مفاجئة صاعقة ... فقد كان الرجلان يستطيعان ان يميزا من مكانهما حادثة غرق، ولكنهما ما كانا ليستطيعا ان يريا جريمة ترتكب بهدوء، وخاصة اذا كانت جريمة يقوم بها زوج يسبح مع زوجته ثم يغطس بها ويخنقها تحت الماء .

أجل كان الرجلان من القرب بحيث يسمعان سبّاحاً يتخبط في الماء وينادي طالباً النجدة لانقاذ امرأته التي بدأت تغرق . . هذا بينما كانا من البعد ، بحيث لا يستطيعان ان يميزا شيئاً اكثر من سباح يلهو مع زوجته ويجرها من راحة قدمها .

لم اكن قد وصلت الى هذه المرحلة عملياً .. انما كنت ارسم صورة واقعية في ذهني لسهولة الوضع وملاءمته خلصت منها الى انني لست بحاجة الى اكثر من ان اتقدم منها بعد نفس عميق ، ثم امسك بكاحل قدمها واغطس بسرعة وانا اجر الجثة الاسيرة الى الاعماق .. اقول الجثة لان المفاجأة والذعر وقلة الخبرة ستجعلها تبتلع في الحال غالوناً من مياه البحيرة المالحة بينما سأستطيع ان اظل غاطساً بها تحت الماء مدة دقيقة كاملة .

تصورت الحادث يجري بلمح البصر ويمر متساوقاً كذيل

الشهاب الهاوي عبر الظلمة.. وتصورت نفسي استطيع ان اصعد الى سطح الماء لاخذ نفس عميق آخر ، بينما تكون يدي محتفظة بأسيرتي تحت سطح الماء.. وبعد ان تمر عشرون دقيقة ، سيأتي الرجلان في قارب إذ يسمعان صياحي في طلب النجدة.. بعد فوات الأوان..

ان الأمر بسيط أليس كذلك يا حضرات القراء ؟ اجل ولكنني مع ذلك لم استطع ان احمل نفسي على الإقدام عليه !!

كانت شارلوت هيز تسبح معي باقصى الاطمئنان ، بينما كان منطق شبقي الى لوليتا يهتف في اذني بان اقدم على الجريمة فهذا وقتها.. ولكني لم استطع.. فتوجهت نحو الشاطيء وتبعتني ، بينما نصيحة المنطق الشيطاني تهدر في اذني ، كانت هذه النصيحة الصادرة من الجحيم تتعالى في اذني ، بينما اخذت ادرك الحقيقة المحزنة ، وهي انني لن استطيع غداً او بعد غد أو في أي يوم آخر ان احمل نفسي على انهاء حياتها...

ربما لو كنا في عام ١٤٤٧ بدلاً من ١٩٤٧ لكنت قد دبرت امرها بان ادس سماً في طعامها يوصلها الى ذراع الموت بكل لطف ، ولكن ذلك لم يعد مستطاعاً في هذا العصر الذي تقدم فيه التشريح الجنائي.. ففي هذه الايام يتوجب عليك ان تكون من علماء الطبيعة اذ اردت ان تكون قاتلاً..

ولكني لست بعالم ولست بقاتل.. ولم استطع ان اكون ايا منهما..

حضرات المحلفين :

ان معظم اصحاب الشذوذ الجنسي الذين يلتمسون علاقات جسدية مبهورة راعشة لذيذة مع فتاة مراهقة ، هم من اصحاب الشخصيات الغريبة وهم في ذلك غير مؤذين ، بل انهم موادعون مسالمون مستكينون ، انهم لا يطلبون من المجتمع اكثر من ان يسمح لهم بمتابعة سلوكهم غير المؤذي الذي يدعى بالسلوك الشاذ .. كل ما يطلبون هو ان يزاولوا اعمال انحرافهم الجنسي (التي هي غير مؤذية عملياً) الهادئة دون ان ينقضّ المجتمع والجهاز البوليسي عليهم بسوط العذاب .

اننا لا نغتصب الفتيات ، كما يفعل الجنود في الأيام الذهبية . فنحن رجال مستكينون مهذبون تهذيب الطالب ونحن على ما يكفي من احترام النفس بحيث نسيطر على حوافزنا امام الفتيات البالغات ؛ بينما نكون مستعدين ان ندفع سنوات وسنوات من عمرنا ثمناً لفرصة واحدة لملامسة مراهقة قاصرة مسعورة بالشبق.

اجل لسنا بالقتلة.. فالشعراء لا يرتكبون جرائم القتل ابداً.. ونحن كالشعراء ..

ايه ! يا شارلوت العزيزة عسى الا تبغضيني وانت في دار الخلود وانت بين الارواح الخالدة هناك ...

ولنعد لرواية ما حدث :

عدنا الى الشاطيء وجلسنا على مناشفنا نتمتع بالشمس الساطعة ، ثم ما لبثت شارلوت ان تطلعت الى ما حولها وازاحت ثوب استحمامها واستلقت على بطنها لتعطي ظهرها فرصة تقبل

المغازلات مني ومن الشمس ..

قالت انها تحبني وتنهدت تنهداً عميقاً ، ومدت يداً تفتش في جيب ثوبها عن سيكارة.. ثم جلست واخذت تدخن ومالت نحوي وقبلتني بقوة بفم تفوح منه رائحة التبغ اللاذعـة..وهنا سمعنا خشخشة في الدغل القريب ، ثم برزت جين فارلو تحمل عـــدة الرسم فقالت لها شارلوت :

لقد اخفتنا !

فقالت جين بانها كانت تحاول ان ترسم منظر البحيرة، ولكن عبثاً فهي رسامة غير موهوبة .. فاكتفت بتأمل الطبيعة.. اجل هذا هو شأن الجاسوسات انهن دائماً يتميزن بموهبة فنية فجة .. لا يستطعن التعبير عنها وهي التي تقودهن الى صب مواهبهن على التجسس ولقد قالت جين انها كانت من مكمنها ترانا بوضوح حتى انها استطاعت ان تميز بأنني اسبح وساعتي في معصمي .

وتنهدت جين وقالت :

ذات مساء رأيت فتى وفتاة في مطلع العمر يتساقيان كؤوس الهوى .. وكان ظلاهما يمتدان امتداداً هائلاً في نور الغسق ..

- ٢١ -

كانت عادتي في التزام الصمت ، عندما أكون منزعجـاً .. تخيف زوجتي الاولى فاليريا وتهدم اعصابها فكانت تقول :

« ان ما يجنني هو انني لا اعلم بما تفكر ، عندما تكون في مثل هذه الحالة .. »

لقد حاولت ان اكون صامتاً مع شارلوت ، ولكنها كانت تحطم صمتي بمعانقتي وتقبيلي تحت فكي .. انها امرأة مدهشة .. فكنت اتحجج بان عندي ما اكتبه واذهب الى غرفتي ، بينما تمضي شارلوت في اعمالها البيتية مرحة لاهية.. لا يثيرها صمتي.

ها قد مر اسبوع من الظلال والغثيان على آخر زيارة لنا للبحيرة .. ولست استطيع ان اتذكر في حياتي اسبوعاً يعادله في الكآبة والقنوط .. ثم ما لبثت ان التمعت في الجو خيوط من الرجاء ..

فقد تذكرت بانني على ذكاء بديع وان عقلي يؤدي وظائفه بنظام فمن الاجدى ان استخدمه .. وقلت لنفسي بانني اذا كنت لا استطيع التدخل فيما تضعه شارلوت من خطط لمستقبل ابنتها التي تزداد سمرة وسعيراً في مخيم البنات ، فانني استطيع استنباط وسائل غير مباشرة انفذ منها عبر خططها الى وطري وأهيء لنفسي فرصة سانحة .

والواقع ان شارلوت بذاتها قد فتحت لي بنفسها ذات مساء بداية الطريق اذ قالت وهي تحدجني بنظرات والهة ونحن على مائدة العشاء .

– عندي مفاجأة لك.. اننا ذاهبان نحن الاثنين في الخريف لى بريطانيا ..

فمسحت شفتي بالفوطة الورقية وقلت لها :

– وانا كذلك عندي مفاجأة لك يا عزيزتي .. وهي اننا لسنا ذاهبين نحن الاثنين الى بريطانيا ..

وقالت لي وقد ظهرت عليها من معالم الدهشة اكثر مما توقعت :

– لماذا ؟ ما السبب ؟

كنت في ذلك الحين امزق الفوطة الورقية بحركات لا ارادية الا ان وجهي الباسم هدأ قليلاً من روعها وهي تستمع الي اقول :

– السبب بسيط .. هو ان الزوجة لا تنفرد باتخاذ جميع القرارات حتى في بيت الزوجية ، الذي يضارع بيتنا من حيث كمال الانسجام فهناك امور من شأن الزوج وحده ان يبت بها .. انني استطيع ان اتصور ما قد يخالج نفسك من انفعال فرح ، انت الامريكية المعتدة بنفسك ، والباخرة تعبر بك الاطلسي . اجل استطيع ان اتصور انبهارك وانت على الباخرة مع ملك اللحوم المثلجة .. او مع احدى عاهرات هوليود .. ولست اشك في اننا (انت وانا) نستطيع ان نكون موضوعاً طيباً لصورة تستخدمها مكاتب السفريات .. صورة تمثلك تحدقين بدهشة ولذة الى تبديل الحرس امام القصر الملكي في بريطانيا .. بينما تمثلني وانا اكبح جماح ملامح اعجابي .. ولكن يجب ان تعلمي ان اوروبا بما فيها بريطانيا القديمة المرحة تثير غثياني .. فليس لى غير ذكريات تعيسة عن العالم الأوروبي القديم المتآكل الفاسد .. ولن يغير من موقفي اي اعلان ملون في مجلاتكم الامريكية ..

وحاولت شارلوت ان تقاطعني لتفسر حسن نيتها فقلت لها :

– انتظري لحظة ان القضية التي اشير اليها هي مجرد قضية عرضية .. فما يهمني حقاً هو المبدأ العام لعلاقاتنا الزوجية .

فعندما اردتني ان اقضي ساعات بعد الظهر عند البحيرة بدلاً من ان اقضيها في التأليـــف الأدبي انصعت بسرور وتحولت من اجلك الى شاب مرح برنزي الجسم .. بدلاً من ان ابقى استاذاً ومربياً وقوراً .. وعندما جررتني الى لعب البريــدج واحتساء الويسكي مع جيرانك آل هارلو تبعتك صاغراً ..

ولقد لمست كيف انني لا اتدخل في شيء ، عندما تقومــين بتزيين بيتك.. كما لمست بانني الـــتزم الصمت وانت تقررين كل امور البيت ، وان كنت اخالفك الرأي في بعض الحالات .. على انني كما قلت لك استطيع ان اتجاهل حالات خاصة ، إلا انني لا استطيع تجاهل الاتجاه العام.. انني احب ان تقودي اموري ، ولكن لكل لعبة اصولها وقواعدها .. فانا لست كمية مهملة .. انني نصف هذا البيت وان لي فيه صوتا و كلمة .

في هذه الاثناء دنت شارلوت الى قربي وجثت على ركبتيها ، واخذت تمسك بي من ساقي ، وما لبثت ان قالت لي بانها لم تنتبه الى ذلك قبلاً وانها تؤمن باني سيدها وربها .. واقترحت علي ان اخذها وأنا في مكاني بين ذراعي وان اجامعها نظراً لأن الطباخة لويز غائبة ، وقالت انها ستموت اذ لم اصفح عنها .

ملأتني هذه الحادثة البسيطة بنشوة عظمى ، فقلت لها ان القضية ليست قضية طلب الصفح ، بل قضية تغيير منهجها . فسكتت مستكينة ، بينما قررت ان امضي في استثمار تفوقي من اجل ان اقضي شطراً طيباً من الوقت في التأليف .. او في التظـــاهر بالتأليف ..

وبعد يومين من الحادثة كنت في غرفتي غائصاً في الكرسي المريح ، عندما نقرت شارلوت على الباب ودخلت .. يا الهي ما ابعد الفرق بين حركاتها وحركات لوليتا التي كانت تدخل الى غرفتي بسروالها الرجالي وهي تتضوع برائحة خمائل جزيرة المراهقات السحرية .. بينما كانت تقدم رجلاً وتؤخر اخرى ، ولكن بحركات متدلعة فاتنة ، تكشف عن زوايا من صدرها الكاعب عبر القميص الذي لم تكن تقفل كل ازراره ..

حاولت ان اتظاهر بالنوم ، ثم تظاهرت بانني غارق في الكتابة فاقتربت بحذر وجلست على حافة الكرسي وخيل الي انها تتضوع بنفس العطر الذي كانت تستخدمه زوجتي الاولى.. وقالت لي .

– هل تحب ان اعد لك شيئاً خاصاً للعشاء .. ان جون وجين هارلو سيزوراننا الليلة ..

وأجبتها مغمغماً فقبلتني عند اسفل شفتي قائلة انها ستعد كعكة كبرى ، ثم تركتني لوحدتي ..

كانت قد سألتني عما تحتويه احد صناديقي فقد كان دائماً مغلقاً ولقد تهربت من الجواب عليها، فلما غادرتني تفقدت مخبأ مفتاحة فوجدته حيث هو .. مع انه من الصعب جداً ان يخبيء الانسان شيئاً ، عندما تكون زوجته حريصة على تفقد كل قطعة من الأثاث .

- ٢٢ -

اظن انه كان قد مضى اسبوع على سباحتنا الاخـــيرة في البحيرة ، عندما تلقت شارلوت رداً من المدرسة الداخلية جاء فيه انها قد تأخرت في طلب تسجيل ابنتها ، ولكن اذا جاءت بها الى المدرسة في كانون الثاني (يناير) فان الادارة قد ترتب امر قبولها . وفي اليوم التالي ذهبت بعد الغداء لمقابلة طبيب العائلة ، وهو شخص ودود لطيف مهذب للغاية ، ولكن تهذيبه يخفي جهله الطبي ، فهو يعتمد على اعطاء أدوية معينة لمختلف الحالات.

وكنت في حالة من الغبطة الطاغية فقد كان قرب عودة لوليتا الى رامسديل بمثابة ينبوع اخذت اغترف منه النشوة .. ولقد اردت ان اعدّ نفسي اعداداً كاملاً لهذا الحدث ، وهكذا فقد بدأت حملتي قبل ان تتخذ شارلوت قرارتها القاسية بابعاد لوليتا .. فكان علي ان اكون متأكداً من انني سأمتلك من الوسائل ما يمكنني من ان أهيء نوماً عميقاً للوليتا وامها ، بحيث لا تستطيع ضجة أو لمسة أن توقظهما من نومهما كل ليلة منذ ان تعود لوليتا الى ان تأخذها المدرسة مني ..

وعلى هذا الاساس ظللت طيلة شهر تموز (يوليو) اجرب مختلف أقراص المساحيق المنومة على شارلوت المغرمة بابتلاع ما يقدم لها من حبوب.. وكانت قد ظنت ان آخر حبة منومة اعطيتها لها هي حبة لتسكين اعصابها ، اما الحقيقة فان الحبة قد افقدتها الوعي عدة ساعات عمدت في اثنائها الى رفع صوت الراديو الى مداه

الاعلى والى قرصها وتقبيلها وزحزحتها وتعريتها وتحريكهـــا، ولكن ما من شيء من ذلك استطاع ان يخل من انتظام انفاسها وان يوقظها من سباتها العميق.. هذا بينما كانت في العادة تستيقظ متوثبة كالحصان، عندما اقبلها مثلاً قبلة خفيفة .

ومع ذلك فان نتيجة ذلـك القرص المنوم لم تقنعني فاردت شيئاً ادعى الى اطمئناني، فذهبت الى طبيب العائلة وقلت له ان الوصفة الاخيرة لمعالجة أرقي (وهي الوصفة التي جربت حبوبها على شارلوت) لم تنفع في ازالة ارقي، وقد دهش لذلك ورفض ان يصدقني مقترحاً ان اجرب الحبوب ثانية ، وحاول ان يغـــير الموضوع فاراني صورة ابنته وهي في سن لوليتا ، غير انني تنبهت الى قصده وألححت عليه في ان يكتب وصفة اقراص منومـــة اشد مفعولاً .. وبعد ان اعيته الحيل معي قال لي انه سيصف لي حبوباً فعالة حقاً .. وفعلاً اخرج من خزانته اقراصاً بنفسجية اللون قال عنها انها آخر المبتكرات الطبية فقد استنبطت ليس لمداواة ارق الذين يمكن مداواة ارقهم بسطل من الماء ، انهـــا لمداواة ارق الفنانين الذين لا يستطيعون النوم حقاً ..

فرحت اذ جازت خدعتي على الطبيب ، ذلك انني احب أن اخدع الأطباء ، الا أنني كتمت معالم فرحي ، وأخـــذت الحبوب وانا اتظاهر بالشك. فقد كان يجب ان اكون حذراً معه إذ لمحت اذنيه تـكادان تندفعان الى فمي فضولاً ، عندما انزلق لساني ذات مرة وذكرت له اسم آخر مصح نفسي كنت فيه .

ولما كنت حريصاً ألا تعرف شارلوت وغير شارلوت أي

شيء عن تلك الفترة من حياتي، فانني سارعت الى تفسير الأمر بالادعاء انني قمت ببحث نفساني بين المجانين من اجل كتابة احدى قصصي .

غادرت عيادة الطبيب وانا في نشوة عظمى امسك بمقود سيارة زوجتي باطراف اصابعي في حركة تعكس اعتدادي وثقتي واطمئناني وسروري، ورأيت الدنيا تضحك لي في كل مكان.

كنت قبل زيارتي هذه للطبيب بيوم واحد قد انهيت العزلة التي فرضتها على نفسي ، وهكذا فقد أطلقت صيحة تعبر عن فرحي بعودتي الى البيت ، عندما رأيت شارلوت في الصالون ترتدي التنورة الكستنائية والقميص الأصفر اللذين كانت ترتديهما عندما قابلتها للمرة الأولى وكانت منحنية تكتب رسالة، فأطلقت من جديد صيحه الفرح ووجدتها تتوقف عن الكتابة وتجلس جامدة لبرهة ، ولم تلبث ان دارت واسندت معصمها على ظهر كرسيها ، فبدا وجهها وقد شوهت الأنفعالات معالمه مخيفاً لا يسر .. وما لبثت هذه الهرة العجوز الأم الكريهة المتسلطة والكلبة العريقة ، ان صاحت في وجهي :

ـ ان شارلوتك البلهاء لم تعد العوبة في يدك.. انها .. انها..

وتوقفت عن الكلام وهي تبتلع لعابها ودموعها ، ثم استأنفت هجومها :

ـ انك وحش رهيب.. انك مجرم عتل زنيم وغد ، وحاذر ان تقترب مني فسأصرخ مستنجدة .. هيا ابتعد .

ولعله مما لا يؤخر أو يقدم ان اسجل هنا ما غمغمت به رداً

عليها ... بينما استطردت تقول :

انني ذاهبة الليلة وسأترك لك البيت كله .. ولكنك لن ترى بعد الآن تلك الطفلة البائسة .. هيا اخرج من امامي .

لقد اطعتها ايها القارىء العزيز ، وصعدت الى الغرفة التي كنت اعتزل فيها ووقفت هناك جامداً لبرهة وانا اتأمل الصندوق الذي يحتوي على اوراقي السرية منتهكاً مفتوحاً مخلوع القفل .. وتوجهت من الغرفة الى مخدعي ، حيث اخرجت دفتر مذكراتي من مخبئه تحت الوسادة ووضعته في جيبي ؛ ولما بدأت انزل الدرج توقفت عند منتصفه ، فقد سمعتها تتكلم على الهاتف القريب من باب الصالون فحبست انفاسي لأسمع ما كانت تقوله ، وسرعان ما فهمت من كلامها بانها كانت تلغي طلباً بشراء شيء كانت قد اوصت عليه .. فاستعدت انفاسي وتسللت الى المطبخ ، حيث فتحت زجاجة من الويسكي .. كانت شارلوت لا تستطيع على حد علمي ان تقاوم اغراء الويسكي ولهذا فقد حملت الزجاجة الى الصالون وتوقفت في مدخل الباب قائلاً بهدوء :

– شارلوت انك تهدمين حياتي وحياتك .. فلنكن متعقلين متمدنين .. انك مجنونة يا شارلوت وكل ما في رأسك هو نتيجة تصوراتك وأوهامك فالمذكرات التي كانت مخبوءة في الصندوق ليست سوى مقتطفات من رواية اؤلفها . اما اسمها واسمك فقد جاءا فيها بمحض الصدفة ؛ فقد كانا الوحيدين اللذين خطرا لي .. فكري ملياً بالموضوع من جديد وسآتيك بقدح ..

لم ترد ولم تلتفت ، انما مضت في كتابتها .. كانت قد بدأت رسالة ثالثة اذ رأيت بجانبها مظروفين مغلقين معنونين . على انني عدت الى المطبخ وملأت قدحين وانا افكر قائلاً لنفسي: لتقرأ المذكرات مرة ثانية فلا يهم، طالما تمسكت بزعمي انها مقتطفات من رواية خيالية والأحسن ان اضيف على تلك المذكرات شيئاً آخر اتركه في متناول يدها لتقرأه على ان تكون محتوياته متصلة بمحتويات المذكرات وبشكل يعزز ادعائي .. وفتحت البراد وصورة لوليتا تتراقص امام عيني وانا اخرج مكعبات الثلج .. ثم اغلقت البراد بشدة وحملت القدحين ووقفت عند مصراعي باب الصالون وقلت لها من فرجته الضيقة :

ـ لقد صببت لك قدحاً .

ولكن الكلبة المسعورة غضباً لم تجب فوضعت القدحين قرب الهاتف الذي بدأ يرن .. فتناولت السماعة لأسمع صوتاً يقول :

ـ انني لزلي طومسون.. لقد دهست سيارة جامحة زوجتك السيدة همبرت .. والأفضل ان تأتي حالاً !!

فأجبته بشيء من التأدب بان زوجتي على خير ما يرام ثم فتحت دفة الباب وانا لا ازال ممسكاً بالسماعة وقلت :

ـ هناك رجل يقول انك قد قتلت دهساً يا عزيزتي ..

وتطلعت الى الصالون .. فلم اجد لشارلوت اثراً فيه ..

- ٢٣ -

اندفعت خارجاً من البيت ليواجهني الشارع بمنظر فريد . فقد رأيت سيارة باكارد سوداء قد تسلقت حاجز حديقة الجيران ووقفت تلتمع بهيكلها في اشعة الشمس وقد انفتحت ابوابها واستلقى بجانبها على العشب كجثة من شمع رجل وجيه عجوز وقد هرعت اليه مربية الجيران تحمل بيدها قدحاً من الماء ... فلم يكن ميتاً ولم يكن مغمى عليه انما كان مصاباً بنوبة قلبية .. انه والد فردريك بيل سائق سيارة الباكارد .. وتطلعت الى اليسار فرأيت بقايا المخلوقة التي كانت تدعى شارلوت هيز .. اعني شارلوت همبرت زوجتي .

لقد طرحتها السيارة الجامحة ارضاً ودحرجتها امامها عدة أقدام بينما كانت مندفعة لتلقي في علبة البريد الرسائل الثلاث التي كانت قد انتهت من كتابتها .. وقد التقطت طفلة هذه الرسائل وسلمتها الي فمزقتها ارباً ارباً ودسستها في جيب سروالي .

وما لبث ان جاء آل فارلو وثلاثة اطباء لمعالجة الموقف .. اما انا فقد تظاهرت بالذهول وهم ينقلون الجثة المشوهة مما اضطرهم الى جري الى البيت ووضعي في فراش لوليتا .. لقد اشرف جون وزوجته جين على امري وقد آويا الى غرفتي لقضاء الليل معي .. وما اعرفه هو انه ربما لم يمضيا في مخدعي ليلة تتصف بالبراءة التي يتطلبها الموقف الجدي .

ليس هناك من سبب يدعوني للاطالة في وصف اجراءات الجنازة والجنازة بالذات ، ويكفي ان اقول انها كانت هادئة كحفلة الزواج بالضبط ولكنني يجب ان اشير الى عدة حوادث تتصل بما جرى بعد اربعة او خمسة ايام من موت شارلوت ..

لقد امضيت ليلتي الاولى كأرمل وانا مخمور الى حد انني نمت كطفل .. نمت نوماً عميقاً كالطفلة لوليتا التي كانت تنام في الفراش .. وفي الصباح سارعت الى تفقد قصاصات الرسائل الثلاث التي دسستها في جيبي .. كانت احدى الرسائل موجهة الى لوليتا وكانت الثانية تشير الى رغبة شارلوت في الهرب مع لوليتا الى مسقط رأسها خوف ان تتعرض لوليتا لخطر من احد الشواهين او الذئاب .. اما الثالثة فكانت عبارة عن طلب تسجيل لوليتا في مدرسة داخلية للبنات اشتهرت بصرامة نظامها بحيث كانت تلقب باسم « اصلاحية الفتيات » .

وفجأة فرغ البيت فقد ذهب جون لمقابلة احد زبائنه وذهبت جين لاطعام كلبها .. وهكذا حرمت من رفقة الزوجين اللذين كانا يخشيان ان انتحر حزناً اذا تركت لوحدي ! ولم يلبث ان جاء ليزلي وزوجته لويز بايعاز من جين ليبقيا في صحبتي .. ولما جاء جون وجين فارلو اريتهما في لحظة الهام صورة صغيرة لشارلوت كنت قد وجدتها بين امتعة الراحلة . كانت الصورة تمثلها والهواء يعصف بجدائلها وكانت تبتسم .. وكان المكتوب على ظهر الصورة يشير الى انها التقطت عام ١٩٣٤ في مدينة بيسكي فقلت لهما انني كنت ذلك العام في زيارة

اعمال للولايات المتحدة وانني امضيت الصيف في بيسكي والتقيت بشارلوت وعقدت معها علاقة غرامية منذ ذلك الحين ، وعندما عدت الى اوروبا بقينا نتراسل بواسطة صديق مات الآن ثم جئت الى بيتها نزيلاً وتزوجت منها ..

وهمست جين بانها كانت قد سمعت عدة اشاعات عن الموضوع .. فهز زوجها رأسه ولم يلبثا ان غادرا البيت بعد ساعات وما كادا يختفيان حتى جاءني قسيس المنطقة فحاولت جهدي ان اجعل المقابلة مختصرة ولكن دون ان امس مشاعره او أثير شكوكه واكدت له بانني سأكرس كل حياتي لهناء الطفلة لوليتا وأريته صليباً قلت له ان شارلوت كانت قد اعطتني اياه عندما كنا صغيرين ثم ذكرت له ان لي ابنة عم تقيم في نيويورك وانها عانس محترمة وانها تتولى الاشراف على تدريس لوليتا في مدرسة لائقة ..

أجل كم كنت داهياً معه . !

ومن اجل ليزلي ولويز وبأمل ان ينقلا النبأ الى جون وجين (وقد فعلا) قمت بمكالمة هاتفية وهمية مع مخيم البنات حيث تقيم لوليتا ولما جاء جون وجين عاجلتهما قائلاً وانا اتظاهر بالحيرة والاضطراب بان لوليتا قد ذهبت مع بنات صفها في رحلة خلوية تستغرق خمسة ايام .. ولا يمكن لأحد ان يتصل بها لينهي اليها النبأ ..

وتساءلت جين : يا الهي ما العمل ؟

فاجابها جون بان الأمر بسيط لا يتطلب اكثر من الاتصال

بشرطة كليماكس ولن تمضي ساعة حتى يعثر رجال الشرطة على البنات الجوالات وواصل حديثه قائلاً :

ـ اسمع ما قولك في ان اذهب بسيارتي الى المخيم في الحال لابلغ الصغيرة الأمر .

وكرر الاقتراح بشكل يوحى بانني استطيع اثناء ذلك ان انام مع زوجته التي ساندته بحرارة وبشكل يوحى بان الحرارة هى قبول منها بان امضي الليلة بين احضانها ..

شعرت بان هذا العمل سيفضحني فناشدت جون ان يترك الاشياء كما هى تمضي في مقاديرها.. وقلت له انني لست في حالة تمكنني من ان اطيق رؤية الطفلة تبكي وتعول وتتعلق باذيالي وحذرته من ان الصدمة قد تؤثر نفسانياً على مستقبلها كما ثبت من دراسات لعلماء النفس ..

واستسلم جون قائلاً :

ـ ان الأمر يرجع اليك.. ولكنني اريد ان اعرف ما انت فاعل بالطفلة ؟..

فصاحت به جين :

ـ جون.. أنت تعرف انها ابنته .. انها ليست ابنة هارولد هيز .. ألا تفهم .. ان همبرت هو والد لوليتا الحقيقي .

ـ أجل فهمت .. انني متأسف .. لم يخطر ذلك في بالي ..

ـ أجل ان القضية باتت بسيطة .. ان همبرت اعرف الناس بمصلحة ابنته لوليتا .

وقلت لهما وانا اتظاهر بالعطف الشديد بأني سأذهب بعد

الجنازة مباشرة لاستعادة لوليتا وسأبذل كل جهدي كيما اعزيهـا واسليها .. وفي بيئة اخرى.. ولذا فربما سأصحبها في رحلة الى كاليفورنيا أو نيومكسيكو .

لقد مثلت لهما هدوء اليائس القانط بحيث ان جون وجـين اشفقا على حالي واخذاني الى بيتهما حيث اويت الى صالونهما .

والآن يجب ان اشرح الاسباب التي تحدوني الى ابقاء لوليتا بعيـــدة .

عندما زالت شارلوت من الوجود وعـدت الى البيت والداً حراً متحرراً سارعت فكرعت القـدحين المترعين بالويسكي ثم ذهبت الى الحمام انفرد بنفسي هارباً من الأصدقاء والجيران وفي فكري تمثل خاطرة محمومة..خاطرة يصنعها ادراكي بان لوليتا بجسدها الدافيء وشعرها العسلي ستكون بعد ساغات بين ذراعي.. وهي تذرف دموعاً سأكفكفها بفمي باسرع مما تنحـــدر من مآقيها .. وبينما كنت احدق في مرآة الحمام مفتوح العينـين نقر جون فارلو على باب الحمام يسألني بأدب اذا كنت على ما يرام وهنا ادركت ان من الجنون ان اتركها تـــأتي الى البيت وهو يعج بالناس الذين يدبرون الخطط لانتزاعها مني .

بل لعل لوليتا بالذات خليقة بان تبـدي بعض الارتياب وعدم الثقة في شخصي .. وربما يراوحها خوف مفاجيء مني وهكذا تذهب مني الغنيمة الذهبية في لحظة انتصاري وهكذا تخطف اللقمة من فمي ..

وبمناسبة الكلام عن هؤلاء الطفيليين المتطوعين للتدخـل في

شؤون الجيران يجب ان اشير الى ان بيل الذي ازهق روح زوجتي قد زارني وقد كسى وجهه بالحزن والرزانة فبدا كمعاون الجلاد .. كالمعاون المبتدىء.. وبعــد ان ذكر لي ان له ابنتين تدرسان مع ابنة زوجتي ، فرش رسماً بيانياً عن الحـادث ملأه بالأسهم ليثبت لي بأنه لا ذنب له فقد كان يحاول ان يتحاشى ان يدهس كلباً عندما اندفعت زوجتي فجأة ودون احتراز امام السيارة فكان ما لا بد له ان يكون.. ولما وافقته على ان الذنب ليس ذنبه قال لي وهو ينفخ انفاسه الحـــارة من منخريه بشكل ذكرني بمخارج اللهيب من الطائرات النفاثة ، قـال لي بهيئة المتكارم النبيل انه مستعدلكي يدفع مع ذلك نفقات الجنازة.

قال لي ذلك وهو يتوقع مني ان ارفض عرضه ولكني قبلته شاكراً فتراجع مدهوشاً وكرر لي العرض ببطء وتردد وارتباك فشكرته ثانية وبحرارة أشد من المرة الأولى ..

ونتيجة لهذه المقابلة المسحورة الفاتنة حلـَّت للحظة العقـدة التي خدّرت روحي ، ولا عجب فلقد رأيت في بيل عميل القــدر ومبعوثه . هذا الذي ربتُ على كتفه وأنا أشعر بأنني ألعب باشلاء القدر .. وشعرت بتخول عجيب مفاجىء في نفسي بعد ان قابلت اداة القدر في إزالة شارلوت من الوجود وتصورت ظروف الواقعة فأدركت بان بيل والسيارة والكلب ليسوا فقط الأدوات التي نفذت إرادة القـدر فقد كنت شريكاً خبيثـــاً خفياً للقدر .. فلو لم أكن من الحمق بحيث أسجـــل انطباعاتي السرية في دفتر مذكراتي لما قرأت شارلوت حقيقـــة ما يدور

في خلدي ولما اعتملت نفسها بالغضب والخوف والأنفعال بحيث اندفعت الى صندوق البريد وهي كالعمياء فدهستها السيارة ..

أجل لقد تصورت نفسي وأنا أصافح بيل مودعاً بانني أصافح القدر الذي يهنئني مما جعلني أخرج من بلادة شعوري .. فبكيت أجل يا حضرات المحلفين أقسم لكم بانني بكيت !

- ٢٤ -

كان المطر ينهمر مدراراً مصحوباً برياح عاصفة بينما كنت أتطلع حولي ملقياً نظراتي الاخيرة على مدينة رامسدال ذلك انني مدفوعاً بحافز مغامرات خفية قررت ان اغادر المنزل الداكن الذي كنت قد استأجرت غرفة فيه ثم تزوجت صاحبته وترملت وكل ذلك في بحر شهرين . وبينما كان جون يضع امتعتي في السيارة ذهبت عدة مرات الى ذلك البيت لأسباب شتى وهنا حدثت واقعة غريبة لا ادري اذا كان لها من مكان في هذه الصفحات الدراماتيكية ..

ولست ادري اذا كانت هذه الصفحات الدراماتيكية قد عززت في ذهن القارىء تأثيري على النساء من مختلف الأعمار والبيئات بفضل مظهري الذي هو بين بأس الرجولة وبراءة الطفولة .. وبفضل جمال ملامحي .. فكانت لوليتا البالغة تستكين لسحري أما لوليتا المراهقة الناضجة فقد احبتني بعاطفة ناضجة أنانية أأسف لها واحترمها بشكل لا يؤاتيني القدرة على التعبير عنه .

الحادثة الغريبة هي ان جين فارلو المختلة الأعصاب حتماً الجميلة التي انمت في نفسها ميلاً قوياً نحوي أمسكت جبيني باصابعها المرتجفة دائماً والدموع تترقرق في عينيها الزرقـــاوين البراقتين وحاولت بدون نجاح ان تلصق شفتيها بشفتي بينما كان زوجها ينقل أمتعتي وقالت متوسلة :

ـ اعتن بنفسك وقبل ابنتك عني ..

وفرقع الرعد في السماء وهز جوانب البيت بينما استطردت تقول :

ـ ربما قد تؤاتينا الأقدار على ان نلتقي في ذات يوم وفي ظروف أقل بؤساً .

(إيه يا جين اغفري لي ما كتبته سواء أكنت حية في هذا العالم أم ذرة ضائعة في العالم الآخر) .

صافحتها في الشارع الذي يغتسل بسيل مدرار من الأمطار وفي جو ينبىء بالطوفان .. ومضيت بالسيارة تماماً فوق الرقعة التي وجدت فيها شارلوت جثة هامدة بعينيها الطويلة الأهداب اللتين كانتا لا تزالان مخضبتين بالدموع ..

- ٢٥ -

قد يفترض القاريء ان زوال شارلوت قد أزال جميع العقبات في طريقي الى ما ينتهي من المسرات التي تنتظرني ولكن الأمر لم يكن كذلك .

فبدلاً من ان اصطلي بشعاعات الحظ الباسم ركبتني مختلف أنواع الشكوك والمخاوف الأخلاقية فتساءلت مثلاً : ألن يثير دهشة الناس ان تكون لوليتا قد أبقيت بعيدة عن عرس والدتها ثم عن جنازتها ؟

وثمة شيء آخر : إذا سلمنا جدلاً بأن يد المصادفات قد لا تتجاهل في لحظة تكفير ما فعلته يدها فتغدق على لوليتاحنواً سابقاً لأوانه على يد أشخاص يدخلون مسرح الأحداث من حيث لا أريد .

وهكذا فلم استطع منع نفسي من التصور بأن بعضهم ربما يكون قد ابلغ لوليتا النبأ وربما كان ثمة اصدقاء أجهلهم يصطحبونها الآن من المخيم عائدين بها في اللحظة التي انا ذاهب فيها لأخذها من المخيم ..

على ان اكثر ما استدعى قلقي هو كوني وانا المواطن الأمريكي الجديد المنحدر من اصل اوروبي غامض لم اتخذ اية خطوات من اجل ان اصبح الوصي الشرعي على ابنة زوجتي المتوفاة البالغة من العمر ١٢ عاماً و ٧ اشهر .

وتساءلت اذا كنت سأجرؤ مثلاً على اتخاذ تلك الخطوات ؟ ولم استطع ان اكبت القشعريرة التي تهزني إذ كنت أتصور نفسي وقد تعريت على حقيقتي في دنيا القوانين والاعراف السائدة .

كانت خطتي في أخذ لوليتا إحدى بدع الفن البدائي فهي تقضي بأن اتصل بمخيم البنات لأخبر لوليتا بان عملية جراحية ستجري لأمها في مستشفى وهمي بعيد وبأن أخرجها من المخيم

واصطحبها من فندق ريفي الى آخر وانا اخبرهـا بين اليوم والآخر بأن حالة أمها تتحسن.. الى ان أبلغها انها قد ماتت... من التحسن .

ولكنني إذ كنت متجهاً بسيارتي صوب المعسكر ازداد قلقي ولم اطق مجرد التفكير باحتمال عدم وجود لوليتا في المخيم.. أو التفكير بأنني قد أجد لوليتا أخرى مذعورة تطالب معولة باصدقاء لعائلتها قد لا أنسجم معهم .. ولا استطيع تدبير شأني واياهم ..

وأخيراً قررت ان اقوم فعلياً بتلك المكالمة الهاتفية التي تظاهرت منذ ايام بانني قمت بها ، وكان المطر ينهمر بشدة انحدار المياه من أفواه القرب ، عندما توقفت في إحدى الضواحي عند محطة بنزين وتحدثت منها هاتفياً مع مخيم البنات ، حينما أجابتني مديرة المخيم بان لوليتا قد ذهبت يوم الاثنين مع رفيقات لها في رحلة الى التلال ، ولكن المتوقع ان يعدن في ساعة متأخرة اليوم ، واقترحت أن أرجىء مجيئي الى الغد وسألتني عن الخطب فقلت لها بشكل غامض ان أم لوليتا قد دخلت المستشفى وان حالتها خطيرة ، إنما يجب إعدادها كيما تذهب معي غداً .. وافترقنا على الهاتف ونحن نتبادل التمنيات الحارة .

أمضيت بعد الظهر في ضاحية باركنغتون في شراء أشياء جميلة للوليتا .. اشياء جميلة تثير ابتهاج المراهقات، ولم لا اشتري لها كل جميل ؟ أليست هي لي ، كما كانت بياتريس للشاعر دانتي؟

لقد اشتريت لهـــا تنورة جميلة .. وتساءلت في نفسي أصوات خفية مكتومة إذا كان في ذهني أمر ما خاص بالطفلة ! ! أجل انني أنوي أمراً .

لقد أشتريت لها اجمل الملابس الداخليـــة الحريرية وانا أتصور مقياسهـــا كما عرفته ، إذ ليس معقولاً ان تكون قـــد كبرت كثيراً في ايام معدودات وبالاضافـة الى معرفتي بقياساتها فقد كنت أستطيع ان اتصورها حية أمامي تميس دلالاً ورقة كجسد نوراني .. واستطيع ان اتصور ثديهـا البارز الذي مس مرة أو مرتين صدري عند موضع القلب تماماً .. واستطيع ان أتمثل ثقلها الدافيء في أحضـــاني .. انني أكاد أكون مع لوليتا كما تكون الأم مع إبنتها فأنا أعلم كل شيء عنها .. وفيما بعد تأكدت عملياً من صحة تقديراتي .

بعد ان انتهيت من مشترياتي تطلعت الى الدليل السياحي واخترت بلدة ريفيـــة تبعد أربع ساعات بالسيارة عن مخيم البنات وقررت ان تكون هذه البلدة المرحلة الأولى من جولتي مع لوليتا .. وقد أردت ان اتلفن الى الفندق الريفي هنـــاك لاحجز غرفتين ثم خفت أن تفضحني انكليزيتي المكسرة فقررت ان أبرق إليهم .

يجب ان اشير الى امر مضحك وهو انني وجدت صعوبة فائقة في صياغة البرقية ! ماذا اكتب فيها : احجزوا غرفتين لهمبرت وابنته الصغيرة ؟ أم لهمبرغ وابنته اليافعة ؟أم لهومبرغ وطفلته ؟ ..

ثم اخترت همبورغ ... ولم يأتني نوم بعد ذلك طيلة ليـلي ، وتساءلت اذا كان لي ان ابتلع قرصاً منوماً لأعالج أرقي الحقيقي هذه المرة ؟ ثم عدلت عن هذه الفكرة مفضـلاً ذلك الأرق العذب .. الأرق الذي تتراوحه أحلام من اليقظة والذعر كانت كل لحظة من لحظاته تعادل في مسراتها جيلا من النوم ... أجل كان يجب ان أسهد في عشية عرسي .. كما يفعل الناس .

- ٢٦ -

استطعت ان اختلس من سهادي ساعة نمت فيها مجهـداً وأفقت في الساعـة السادسة صباحاً بعد حلم مزعج رأيت فيه نفسي مع خنثى مكسوة الجسم بالشعر ..

ولما ارتديت ملابسي كانت الساعة قد بلغت السابعة صباحاً ، فخطر لي بانه ربما كان من الأفضل ان اصل قبل الموعد ، ذلك انني إذا كنت قد قلت لمديرة المخيم بانني قادم لأخذ لوليتا بعـد الظهر ، فإن ذلك يعود الى ان أهوائي ووساوسي قد أصرت على ان يفصل بيني وبينها نهار يكون بمثابة دواء لفروغ صبري ..

على انني بدأت أتصور إمكان حدوث الكثير مما لا يستحب إذا أطلت غيابي فلقد تتلفن الى أحد مـا في رامسديل وتفهم الحقيقة .. على انني لما حاولت ان امضي فوجئت ببطـارية سيارتي فارغة ، وهكذا لم استطع مغادرة باركينغتون إلا عند الظهر فوصلت الى المخيم حوالي الثانيـة والنصف بعد الظهر ،

وأوقفت سيارتي تحت ظلال اشجار الصنوبر وسألت عن مكتب المخيم فدلني عليه يافع كان يلعب لوحده في وحدة تامـــة .. وواجهت المديرة وهي امرأة ذات شعر اشعس ونظرات قاسية اخذت تتفحصني بها تفحصاً شديد الوطأة ، ثم ابلغتني بان لوليتا قد حزمت امتعتها وانها مستعدة للرحيل ، وانها تعرف ان امها مريضة ، ولكنها تعلم كذلك ان حالتها ليست خطيرة ، وسألتني اذا كنت مهتماً بمقابلة المشرفات على المخيم أو تفقد غرف نوم البنات ؟

ثم ما لبثت الشمطاء ان جلست الى منضدتها وسحبت درجاً وتناولت قطعاً نقدية صبتها في يدي المرتجفة .. انها ما تبقى من مصروف لوليتا .. وناولتني شهادة للوليتا منهـا مع تقرير عن سلوكها في شهر تموز (يوليو) وفيه تشير الى اقبالها على السباحة والتجذيف .

كنت ادير ظهري لباب المكتب المفتوح ، عندمـا شعرت بالدماء تتدفق الى رأسي .. لقد سمعت انفاس لوليتا وسمعت صوتها قادماً من ورائي وقد جاءت تجر حقيبتها الثقيلة .. وصاحت :

— هاي ..

ووقفت جامدة تتطلع إلي بعينين بارقتـــين فرحتين ، بينما افترت شفتاها عن ابتسامة تراوضها مسحة من البله ، ولكنها مع ذلك كانت ابتسامة ساحرة مغرية ..

رأيتها انحف واطول وللوهلة الأولى بدا لي وجهها اقل جمالاً من الوجه الذي رسمته في ذهني لهـــا وظللت أحنو عليه في

تصوراتي طيلة الشهر الماضي .

فقد بدت وجنتاها غائرتين كما بدا ان النمش قد تزايد على قسمات وجهها ..

فكان الانطباع الأول الذي خامرني هو ان كل ما يترتب علي ان أفعله بصفتي زوج أمها الأرمل هو ان اعطى هذه الصبية الشقية التي لوحتها الشمس مظهر فتاة وديعة وان أوفر لها تعليماً جيداً وبيتاً جميلاً ورفيقات من سنها قد استطيع ان اجد بينهن حورية مسعورة أقضي منها وطري ..

ولكن بلمحة عين تبدلت الصورة وانمحى كما يقول الألمان الخط الملائكي لنواياي (فالزمن يسبق غالباً خيالاتنا) واستعدت فريستي وعادت من جديد لوليتا خيالي .. وسرعان ما طوقت عنقها بيد ، واخذت باليد الثانية حقيبتها .. كانت لوليتا كلها مشتهيات .. كانت تمثالاً من ماء الورد والعسل .. وكانت ترتدي ثوباً شفافاً يكشف عن محاسنها وخطوط جسدها الأنيقة وعن ساقيها المخدشتين .

وداعاً ايها المخيم المرح .. وداعاً ايها المخيم السيء الطعام .. وداعاً ايها البواب .. بهذا كانت تنطق حركات يديها وهي تلوح لرفيقاتها وللمخيم وهي تستقر في جلستها بجانبي ..

وما لبثت ان اهوت بكفها على ذبابة استقرت على ركبتها بينما كانت تعلك بحمية قطعة من العلكة ملأت فمها .. وبعد ان انطلقت بنا السيارة عبر الغابة قالت كمن تؤدي واجباً :

— وكيف حال أمي ؟

فقلت لها ان الطبيب لم يعرف بعد حقيقة علتها وان كانت تتعلق بمرض باطني ، ولذا تقرر وضعها وقتاً مـــا في المستشفى للمراقبة . ولما قلت لها ان المستشفى هو في ليبنغفيل ، قالت انها تظن ان الأمر سيكون رائعاً إذا وصلنا إلى ليبينغفيل قبـــل التاسعة ليلاً .

فأجبتها باننا يجب ان نكون وقت العشاء في برايسلاند على ان نزور ليبينغفيل غداً .. ثم سألتها عن أحوالها في المخيم وعما إذا كانت قد قضت وقتاً طيباً ؟

ـ أواه .. كان رائعاً ..

ـ هل أنت آسفة لتركك المخيم ؟

ولما غمغمت غمغمة غير مفهومة قلت لها ألا تغمغم وان تجيبني بكلام واضح .. قولي شيئاً ما .

ـ أي شيء يا بابا .. (مطت كثيراً بكلمة بابا بلهجة تهكمية)

ـ أي شيء قديم ..

ـ حسناً ما قولك إذا دعوتك باسم « الشيء القديم العتيق » ؟

ـ إخرسي ..

ـ انني أمزح .. قل متى وقعت في غرام أمي ؟

ـ ذات يوم ستفهمين يا لوليتا الكثير من العواطف والحالات .. مثل الانسجام وجمال العلاقات الروحية .

ـ طظ ..

وخيمت فترة من الصمت البليد على هذه المحاورة قطعتها بقولي :

ـ أنظري الى البقرات على سفح التل ..

ـ أظن انني سأتقيء إذا رأيت بقرة مرة أخرى ..

ـ أتعلمين انني اشتقت إليك أشد الاشتياق يا لولو ..

ـ أما انا فما اشتقت اليك .. لم اكن امينة لعهدك ، ولكن هذا لا يهم ذلك انك لم تعدتهتم بي على كل حال.. أواه يا حضرة.. انك تسوق أسرع من أمي ..

فخففت سرعة السيارة من السبعين الى الخمسين وقلت :

ـ ولماذا تظنين بانني لم أعد اهتم بامرك ؟ .

ـ حسناً .. مثلاً انك لم تقبلني حتى الآن..قل لي هل قبلتني؟

سألتني ذلك وأنا أتحرق في باطني الى ذلك ، وأكاد أموت شوقاً الى ضمة منها ورأيت أمامي طريقاً فسيحاً فملت بالسيارة الى جانب الطريق .. وما كادت السيارة تقف حتى كانت لوليتا قد طارت الى ما بين ذراعي ..

على انني اكتفيت بأن أمس مساً رقيقاً وبأقصى الورع شفتيها المنفرجتين الدافئتين ، ذلك انى لم أجرأ على ان اطلق لنفسي العنان ولم أجرأ على أن أدع نفسي تدرك من ان هــذه هى بداية الحياة الرائعة التي انفتحت لي أبوابها بمساعدة من القدر .

كانت قبلتي لها بريئة خالية من كل شهوانية ؟ ولكن لوليتا دفعت نفسها بفروغ صبر وأطبقت بفمها على فمي بقوة وأحسست بوطأة أسنانها الامامية وتذوقت رضابها الممتزج بطعم نعنــــاع العلكة .

كنت أعرف بأن هذه القبلة بالنسبة اليها لم تكن سوى لعبة

بريئة وسوى تقليد لما علق بذهنها من مراسم الغراميات العامة ، وكالعادة فإن حدود مثل هذه اللعبة هى حدود مائعة وهى من « الولدنة » بحيث لا يستطيع الشريك الكبير الناضج ان يبقى فيها ضمن حدود البراءة .. ولهذا فقد خشيت كثيراً من ان اذهب في « اللعبة » الى أبعد مما يجب وخشيت ان اتسبب في اخافتها وقرفها .. ثم فوق كل شيء كنت حريصاً على ان أهربها بعيداً عن متناول الصيادين السحرة .. فأمامنا ثمانون ميلاً يجب أن نقطعها لنصل الى الفندق المبارك..وفي لحظة إلهام مباركة قطعنا عناقنا وبعد لمحة عين وصلت دورية شرطة في سيارة عبرت بقربنا وتوقفت وسألني سائقها بعينيه البليدتين :

ـ هل رأيت سيارة زرقاء من نفس طراز سيارتك تمر بمفرق الطريق ؟ .

ـ كلا .. لماذا ؟ .

وقالت له لوليتا باهتمام وفضول وهي تنحني نحوه فوقي وتضع يدها على ساقي .

ـ كلا لم نر سيارة زرقاء .. قل لي هل انت متأكد من انها زرقاء .. ذلك لأننا ..

ولكن الشرطي اغدق عليها ابتسامة ساخرة ومضى بسيارته وانطلقنا وراءه فقالت لوليتا :

ـ الحمار كان يجب ان يحرر لك مخالفة .

ـ ولماذا بحق السماء ..

ـ لأنك تتجاوز السرعة القصوى في هذه الولاية انك تسير

بسرعة ثمانين أي بزيادة ثلاثين .. كلا لا تبطيء ايها الجبان. ألم ترى انه قد ذهب .

ـ لا يزال طريقنا طويلاً وأريد ان أصل قبل حلول الظلام.. فكوني عاقلة .. هيه ..

ـ كلا انني رديئة فاجرة .. مراهقة منحرفة، ولكنني صريحة..

ومضينا صامتين عبر البراري الصامتة الى ان قطعت لوليتا الصمت :

ـ قل لي ألن يجن جنون أمي، إذا علمت اننا عاشقان ؟

ـ بحق الإله يا لوليتا لا تتحدثي هكذا ..

ـ ولكننا عاشقان متحابان أليس كذلك ؟

ـ لا أعلم شيئاً عن ذلك.. أترين السماء؟ اعتقد انها ستمطر.. والآن ألن تحدثيني عن مغامراتك الصغيرة في المخيم ؟

ـ انك تتكلم كالأستاذ الرزين يا بابا .

ـ هيا انني أصر على ان أعرف ..

ـ هل تهتز أعصابك بسهولة ؟

ـ كلا .. حدثيني .

ـ دعنا ندخل الى مكان منفرد وسأحدثك ..

ـ اسمعي يا لوليتا انني أسألك جاداً لا تهزلي ..

ـ حسناً .. لقد اشتركت بجميع أوجه النشاط التي عرضت لي ..

ـ وبعد ؟

ـ وبعد علموني كيف اعيش سعيدة مع الآخرين وكيف

أني شخصية قوية .. كيف أكون شهية كالكعكة ..

تعلمت شعارات الكشافة القائلة انني يجب ان اجعل حياتي مجموغة من جلائل الأعمال وان اكون نافعة وان اصادق ذكور الحيوانات .. وان اطيع الأوامر ..

ولكنني لا أزال قبيحة التصورات وسخة الأفكار .. ولا أزال رديئة قولاً وفعلاً ..

ـ ان ذاكرتك طيبة . ولكن اسقطي من كلامك التعابير الوسخة .. والآن أهذا كل شيء ؟ ..

ـ كلا .. لقد غسلنا ملايين وملايين الصحون ..

ـ هل كان ذلك كل شيء ؟

ـ كل شيء باستثناء شيء واحد .. لا استطيع ان اخبرك عنه دون ان احمر خجلاً ..

ـ هل ستخبريني به فيا بعد ؟

ـ اذا جلسنا في الظلمة وتركتني اتكلم همساً ، فأنني سأفعل.. قل لي هل تنام في غرفتك القديمة ، أم مع أمي في فراشها ؟

ـ في الغرفة القديمة .. ان امك قد تضطر الى اجراء عملية جراحية خطيرة .

ـ هل لك ان تتوقف عند حانوت بائع الحلوى ..

ولحسن الحظ فلقد التهمت ما طلبته من حلوى بنهمها المعهود، اذ كنت اتحرك الى الوصول بأسرع ما يكون الى برايستون. ولما عدنا الى السيارة قبلتها على عنقها فقالت :

ـ لا تفعل ذلك.. لا تتغالظ علي أيها القذر..
ومسحت مكان القبلة بطرف كتفها ، بينما قلت لها :
ـ متأسف .. فعلت ذلك لأنني هائم بك ليس إلا ..
ـ وأنا كذلك هائمة ..

قالت ذلك بصوت يترقرق بالحنو وينم عن تأوه ،ثم ازدادت اقتراباً مني ..ومضيت بالسيارة فوصلت برايستون وقد لفهـا الغسق وكانت الريح دافئة على الرغم مما كان يتخللها من زخات المطر .. ومررنا بدار للسينما ازدحم الجمهور أمام شباك تذاكرها فقالت لوليتا :

ـ أوه انني أريد ان ارى هذا الفيلم .. فلنذهب الى السينما بعد العشاء ..

فقلت لها بأننا قد نذهب ،هذا مع اني أعلم تماماً بأنها ستكون في الساعة التاسعة غارقة في نوم عميق بين ذراعي .

وأخذت ألف وأدور بحثاً عن « فندق الصيادين المسحورين » وقد تعبت من القيادة ، بينما كانت معدة لوليتا تتلهف الى وجبة العشاء .. وعندما أتذكر عنـائي في البحث عن الفندق فإنني أضحك لتصرفي الصبياني ، فقد كانت هناك على طول الطريق عشرات الفنادق التي تعلن بأضواء النيون عن الغرف الفارغـة لديها .. الغرف الجاهزة لإيواء الباعة المتجولين والمساجين الهاربين والأزواج العنينين والأزواج الذين يربط بهم وثاق الفحش ..

وأخيراً وجدنا الفندق بمعجزة من معجزات الصدف وحمـل حقائبنا حمال أحدب يعاونه صبي الفندق الزنجي وألقت لوليتا

بنفسها على الطنفسة المزدهرة بالالوان ، وأخذت تداعب كلباً صغيراً ذا أذنين سوداوين ، فكان يسترخي تحت يديها — ومن ذا الذي لا يسترخي ، يا قلبي . ولما شققت طريقي الى مكتب الفندق قال لي الكاتب الأصلع العجوز وهو يصليني بشكوك خفية ويتطلع الى الساعة :

ـ آسف لقد حجزنا لك غرفة بسريرين حتى السادسة والنصف ، فلما لم تأتِ أجرناها .. فهناك مؤتمر ديني في المدينة ..

وأجبته ان الأمر لا يهم اذا كان يستطيع اعطاءنا أية غرفة فان ابنتي البالغة من العمر عشر سنوات مجهدة للغاية ..

وتطلع العجوز الى لوليتا التي كانت تستمع بشفتين منفرجتين الى ما كانت تقوله لها سيدة عجوز تحيط رأسها بشال بنفسجي . ولا بد ان منظر لوليتا البريء ، قد أزال كل ما كان لدى العجوز من ريبة ، فقال انه سيعطينا غرفة بسرير مزدوج ..

ولما سألت اذا كان لا يمكن تدبير أريكة تنام عليها ابنتي حاججني الكاتب بأن فراشهم المزدوج يسع أكثر من ثلاثة اشخاص وان ثلاث سيدات وطفلة نمن ذات مرة في هذا السرير بالذات .. ومع ذلك فهناك أريكة سندبرها .. فقلت له : سندبر أمرنا بشكل ما .. ولقد تلحق بنا زوجتي .. ولكننا مع ذلك سندبر أمرنا ..

وسجلت بيد المجرم الهادئة المطمئنة :

« الدكتور إدغار همبرت وابنته من سكان رامسديل »

وصعدنا نحو غرفتنا مجتازين الدهليز المعتم الذي يخيم عليه صمت

الموت .. ورأينا الغرفة تضم سريراً مزدوجاً ومرآة وخزانة بمرآة وكرسيين وطاولة .. وشعرت بدافع يحثني على أن أضع خمس دولارات في يد غلام الفندق ، ولكنني خشيت أن يثير الشكوك فأعطيته ربع دولار وأشفعته بربع آخر فانسحب وبقينا لوحدنا .. بينما هتفت لوليتا :

ـ هل سننام في غرفة واحدة ؟

لم تقل ذلك باستياء أو استنكار ، انما قالته بعنف ديناميكي كعادتها في كل سؤال ..

ـ طلبت إليهم أن يصنعوا أريكة سأنام عليها انا إذا أردت.

ـ انك أحمق ..

ـ ولماذا يا عزيزتي ؟

ـ لأن أمي يا عزيزي ستطلقك وستخنقني ،عندما تكتشف الأمر .

كانت لوليتا في كلامها مجرد فتاة ديناميكية ،ولم تكن جادة وقد وقفت على بعد خمسة أقدام من حيث جلست وأخذت تتأمل نفسها في المرآة غير مدهوشة من منظرها المشعث فقلت لها :

ـ اسمعي يا لوليتا دعينا نتفق على الأمر الآن والى الأبد .. انني أبوك ويجب ان اكون هكذا في نظر الناس لألف سبب وسبب .. والواقع انني أشعر حيالك بحنان عظيم ، وسأكون مسؤولاً عن أحوالك في غياب أمك .. أننا لسنا بأغنياء وسنضطر الى ان نأوي غالباً الى غرفة واحدة ..

ومعلومك ان شخصين يتشاطران غرفة واحدة ينتهي بهما

الأمر حتماً الى .. نوع ..

ـ نوع من المضاجعة غير المشروعة .. الفسق ..

قالت لوليتا ذلك وهي تغنج متمايلة ، ثم توجهت الى الحمام ، بينما غيرت قميصي المعروق وتفحصت أنبوبة حبوب النوم في جيب سترتي .. وأقفلت باب الغرفة ..

ولما خرجت لوليتا من الحمام حاولت ان اعانقها بشكل عرضي ، وفي حنان مكبوت قالت لي :

ـ اسمع .. اتركنا من لعبة المعانقة هذه .. ودعنا نتعشى بدلاً من ذلك ..

اتجهت لوليتا نحو حقيبتها وأخرجت ثوباً جديداً ونضت ثوب السفر فبدت ركبتاها الجميلتان وارتدت الثوب الجديد بأناقة مغناجة ، ثم تسللت الى ذراعي المفتوحين بانتظارها وهي تشع نضارة وأخذت تتفحصني بنظرات حانية غامضة من عينيها البراقتين اللتين لا تنمان عن طهارة .. كأرخص الداعرات في العالم .. ذلك هو مظهر الحوريات المسعورات بالشبق الجنسي اللواتي نحتضر من أجلهن ونموت شوقاً إليهن .

وقلت لها وأنا أهمس وشفتاي بين شعرها :

ـ ما الضرر في التقبيل وما اعتراضك على القبلات ؟

ـ إذا كان لا بد ان تعرف فان طريقتك في التقبيل خاطئة ..

ـ هيا أريني الطريقة الصائبة حالاً ..

ـ كلا .. في الوقت المناسب ..

وضبطت بصعوبة أعصابي فقد كدت اندفع الى تجربة فجة

وقبل الأوان .. ولحسن الحظ انفلتت من بين ذراعي عائدة الى حقيبة ثيابها فقد كنت أوشك على ان ارتكب خطيئة قاتلة ..

توجهت الى الحمام وأمضيت وقتاً طويلاً حتى استعيد رباطة جأشي ومظهري الطبيعي .. ثم خرجنا وأنا أسير أمامها (لم أدعها تسير أمامي فهي ابنتي وليست سيدة) ونزلنا الى قاعة الطعام وهي تتثاءب. كان ثمة بضع سيدات عجائز متناثرات هنا وهناك ، ورجلا دين ورجل في سترة رياضية ، ينهون طعامهم في صمت. والتفتت اليّ لوليتا وقالت بصوت منخفض : « ألا ترى أنه يشبه تماماً «كيلتي» . وكانت تشير على الرجل ذي السترة الغامقة الذي كان يتناول عشاءه وحيداً في الركن المقابل من القاعة .

ـ تقصدين طبيب الأسنان الضخم في رامسدال ؟

وأجابت وهي تنثر رذاذ لعابها من شدة الفرح: كلا ! وانما أقصد الكاتب الذي يُرى على اعلانات « الدروم » .

وبعد ان تناولنا الطعام وانتهينا من الحلوى أخرجت الأقراص المنومة القرمزية اللون ، ولما سألتني عنها قلت لها انها أقراص فيتامين تجعل الانسان قوياً كالثور شديد البأس كالفأس ، وتطلعت حولي فلما لم أجد من يراقبني وضعت قرصاً في راحة يدي وتظاهرت بأنني ابتلعه .. فمدت لوليتا يدها وتناولت واحداً وبلعته .. وكان مفعول القرص سريعاً فتبخرت فكرة الذهاب إلى السينما من مخيلتها ونسيتها ونحن نغادر غرفة الطعام وهي تتثاءب، ولما كنا في المصعد ألقت رأسها على كتفي فقد كاد

يقتلها النعس ، بل انني كدت اضطر الى ان احملها حمــلاً الى الغرفة .. وعندما وضعتها على حافة الفراش قالت لي بصوتها الناعس :

ـ إذا اخبرتك .. إذا اخبرتك هل تعدني بأنك لن تغضب وتحتج ؟ ..

ـ فيما بعد اخبريني .. سأتركك الآن وحدك فنامي وسأعود بعد عشر دقائق ..

ـ أوه لقد كنت فتاة مقرفة .. دعني أخبرك ..

ـ غداً يا لوليتا غداً .. اذهبي الى الفراش ..

قلت هذا ووضعت مفتاح الغرفة في جيبي وخرجت .

- ٢٧ -

حضرات المحلفين .. سيدات المحكمة الجميلات ! صبراً عليّ .. إذا أخذت قسطاً من وقتكم الثمين ..

هكذا اذن حلت اللحظة العظمى .. لقد تركت لوليتا لا تزال جالسة على طرف السرير وهي ترفع في الهواء ساقاً فتكشف حتى عن طرف سروالها المشدود .. كعادتها فهي دائماً مستهترة لا تستحي من كشف عري ساقيها .

هذه هي الصورة التي اختزنتها في ذاكرتي وانا أخرج من الغرفة بعد ان تأكدت من ان بابها لا يحوي مزلاجاً داخلياً بجانب القفل .. وأخذت أدغدغ المفتاح وأشعر بأنه يمدني برعشة جنسية ،

أخذت أضغط عليه حتى تحول الى جزء من راحة يدي.. لقد أصبحت لوليتا لي كلها وبعد عشرين أو ثلاثين دقيقة سأعود الى الغرفة ٣٤٢ لأجد حوريتي.. لاجد عروستي أسيرة لنومها العميق الصافي ..

حضرات المحلفين لو استطاعت سعادتي ان تنطق لكانت قد ملأت ذلك الفندق الوديع الهادىء بهدير مصم .. على اني لست أأسف على شيء اسفي ، لأنني تلك الليلة لم أضع ذلك المفتاح في مكتب الفندق لأغادر مدينة برايستون بل الولايات المتحدة بل القارة الأمريكية بل الكرة الأرضية ..

دعوني أوضح لكم بأن تلميحاتها الى ما ارتكبته من فحشاء في المخيم لم تقلقني .. ولم تخل بتوازني إيماءاتها لي بأنني استطيع ان أفعل ما أشاء .. ذلك انني كنت قد صممت على ان لا أدنس عملياً بكارتها ، بل ان اكتفي بأن ألامس خلسة في ظلمة الليل جسدها العاري المخدر .. أجل لن أضاجعها مطاجعة كاملة ، حتى ولو ان بكارتها كانت قد زالت بعمل صبياني في مخيم البنات ، حيث السحاق بين المراهقات أمر شائع .

كان طبيعياً وأنا ابن العالم القديم ان اعتبرها ، عندما قابلتها أول مرة بأنها « طفلة لم تمس » وصافية كصفاء مفهوم « الطفلة العادية » .. هذا المفهوم الذي بدأ يضفي البراءة على الطفلة منذ نهاية عالم ما قبل المسيح .. فنحن غير محاطين في عصرنا الحضاري المتنور بالجاريات اللواتي هن في عمر الزهور ، واللواتي يمكننا قطفهن كيفما اتفق قبل الحمام أو بعده ؛ وعند الذهاب

الى العمل أو العودة منه ، كما كانوا يفعلون أيام زمان ، كما اننا لسنا نقتنع ، كما كان يفعل الشرقيون بالخدمات الدافئة التي تقدمها محظيات صغيرات السن بين وجبة الطعام ووجبة الشراب.. فالأمر الواضح هو ان الصلة القديمة بين عالم البالغين وعالم الطفولة قد انصرمت تماماً في أيامنا هذه بأعراف وقوانين جديدة.

ومع انني تعمقت في علم النفس والشؤون الاجتماعية ، فإنني لا أعرف إلا القليل عن الأطفال ... وبعد فقد كانت لوليتا ، عندما قابلتها في الثانية عشرة من عمرها فكان انطباعي حرياً بأن يعطيني فكرة انها مراهقة طاهرة بريئة ، ولو لم يغب عن ذهني ان طلاب المدارس الأمريكية يتصرفون تصرفاً فجاً ..

وكان يتنازعني عاملان عندما رأيتها : عامل فكرة مايجب أن تكون عليه طفلة في الربيع الثاني عشر من عمرها ، وعامل الانسان الشهواني الذي يراها بخياله وقد بلغت المرحلة الأخيرة من طفولتها ، وأصبح يستطيع ان يقطف منها بعض بواكير اللذائذ .. ولكن كان يجب عليّ ان افهم منذ الوهلة الاولى ، ان لوليتا هي شيء يختلف تماماً عن آنابيل البريئة ، وان الشر الجنسي المسعور يتراوح مع أنفاس هذه الطفلة المشبوقة المسعورة التي قررت ان أعدها لتلذذي الخفي ، كأن اجعل السر وهمياً والتلذذ مميتاً .

ثم كان يجب ان اعلم بأن هذا الطرب المتوقع ، لن يتمخض إلا عن الألم والشدائد المرعبة ..

على انني طرحت هذه الأفكار جانباً .. فها هي لوليتا قد

أصبحت ملك يميني . لي وحدي .. وهـــا هو مفتاح الغرفة أعصره في قبضتي وانا أتصور كيف سأعريها في نومها العميق .. سأتركها مرتـدية فردة جورب وأقلبهـــا عارية تماماً إلا من أسورتها .. وافرشها على السرير وامرغ وجهي على جسدهـــا العسلي اللون .. الذي لوحت الشمس كل ما فيه عدا ثدييهـا الشاحبين .. وكان ظل من الزغب يلتمع ، تحت ضوء مصبـاح السرير الوردي ، على رابيتها الناتئة .. وكان المفتاح البـارد ، مع خشبته الفاترة ، في يدي .

بانتظار النصف ساعة اخذت أتجول في ردهـــات الفندق مبتهج الجسم مظلم الروح ، متحاشيـاً الاحتكاك بالنزلاء . وفي احدى الصالونات لمحت عدداً من النـاس معهم مراهقة في سن لوليتا إلا ان بشرتها اكثر بياضاً .. كانت شهية مثل لوليتـــا فأخذت أرمقهـا بنظرات حـادة مستورة ، ولكنها لاحظت نظراتي فرفعت يدها تتحسس وجنتها التي تسارعت إليهـــا الدماء .. بينما أسدلت باليد الأخرى طرف تنورتها على ركبتها، ثم أدارت كتفها إلي ، وفتحت حديثاً مع أمهـا التي تشبه البقرة ..

خرجت من الردهة الى الدهليز المعتم وانا اتأمل الفراشات التي تحوم حول المصابيح وفجأة احسست بأن هناك شخصاً قربي يجلس على كرسي في الدهليز وعندما هممت بالابتعـــاد سمعته يسألني :

— بحق الشيطان من أين حصلت عليها ؟

- عفواً ؟
- قلت ان الطقس قد تحسن
- يبدو كذلك
- من هي كتكوتتك ؟
- انها ابنتي ..
- كذاب .. انها ليست ابنتك ..
- عفواً ؟ ماذا قلت ..
- قلت ان تموز (يوليو) كان شهراً قائظاً .. أين أمها ؟
- ماتت ..
- آسف .. قل لي هل لكما ان تتناولا الغداء معي غداً حيث سيكون الازدحام قد خف ..
- نحن كذلك سنذهب غداً .. طابت ليلتك ..
- آسف لازعاجك.. لقد افرطت في الشراب فسكرت.. ليلة سعيدة .. ان ابنتك تحتاج الى نوم طويل .. والنوم هو الذي يزين الشباب بورود الحسن ، كما يقول المثل الفارسي ..

غادرت المكان مسرعاً وقد بدأت اعصابي تتوتر وأحسست بحاجة الى الشراب ولكنني فضلت ان اتوجه الى غرفتي واخترت صعود الدرج فقد كان قوم كثيرون ينتظرون المصعد.. وربما كان بينهم فضولي آخر ..

كان نور الحمام يتسرب من الباب المشقوق وكان ضوء مصابيح الشرفة يتسلل بين ألواح الستائر ، وكانت هذه

الشعاعات المتشابكة تعيث في ظلام الغرفة فتكشف لي اللوحة التالية :

كانت حبيبتي لوليتـا في ثوب النوم وقد توسطت السرير وأدارت لي ظهرها وكان جسدها المستور بالثوب الرقيق ملتوياً على بعضه ؛ بينما كانت ساقاها مكشوفتين وكانت قد وضعت الوسادتين تحت رأسها فتسلل النور الشاحب الى نقرتها ..

ويبدو انني خلعت ثيابي ولبست مناميتي بتلك السرعـة العجيبة التي تتسم بها المشاهد المماثلة في الأفلام ، حيث لا تسمح الرقابة بعرض تسلسل تغيير الثياب .. ولكنني ما كدت أضع ركبتي على طرف الفراش حتى أدارت لوليتـا رأسها نحوي وتطلعت طويلاً إلي عبر الظلمـات المزقة .. كان هذا شيئاً لم اتوقعه .. فقد كان المفروض ان يجعلهـا القرص الذي بلعته تنام نوماً عميقاً لا يزعجه مرور فرقة عسكرية عبر الغرفة .. ولكن هاهي تحدق بي وها انا اسمعها تناديني بصوت أجش : « برباره » .. كانت تتكلم في نومهـا وهي بين اليقظة والمنـام فجمدت في مكاني أرقبها ، فما لبثت ان اصدرت آهـة وعادت الى وضعها السابق .. ومكثت انتظر دقيقتين في حالة مريعـة من التخوف فلقد شعرت بأنني على حافة الهـاوية .. ثم عاد تنفسها منتظماً يوحي بأنه تنفس شخص نائم .. واخيراً استلقيت على مـا بقي لي من حافة الفراش ووضعت طرف الغطـاء على قدمي الباردتين فرفعت لوليتا رأسها من جديد وحدقت في وجهي .

لقد علمت فيما بعد من صيدلي صديـق بأن القرص القرمزي الذي اعطيته اياها لا ينتمي الى فصيلة الأقراص المنومة النبيلة وانه خفيف المفعول او معدومه بالنسبة لشخص عادي ، وان كان يستطيع ان يوحي بالنوم لشخص مأروق يتناوله ..

ولست أدري إذا كان طبيب رامسديل الذي اعطـاني الأقراص دجالاً أم رجلاً داهية .. بل لا يهم اذا كان جاهـلاً أم مكاراً فالمهم انني خُدعت ...

وعندما فتحت لوليتـــا عينيها من جديد ادركت بأن الاطمئنان الذي اعتمدت عليه هو اطمئنان كاذب ، سواء فعل القرص المنوم مفعوله فيما بعد او لم يفعل ..

عادت لوليتا فأدارت رأسها ببطء عني ودفنت وجههـا في الوسادة ، بينما ظللت لا أتحرك على الحافة متطلعاً الى جدائلهـا والى الاطراف العارية من جسدها محاولاً ان استقصي مدى عمق نومها . ومرّ بعض الوقت ولم يتغير من الوضع شيء فقررت بأنني استطيـع ان اخاطر بالاقتراب قليلاً من وهيـج جسدهـا الجميل المثير . ولكنني مـا كدت انتقل الى ملكوته الدافىء ، حتى توقف صوت تنفسها وحل بي شعور مرعب أوحى لي بأن لوليتا قد استيقظت تماماً ، وانها ستنفجر في صراخ استنجـــاد اذا مسستها بأي جزء من جسدي الدنس .

ارجوك ايها القارىء مهما كان رأيك في شخص حساس مثلي ، ومهما كنت تأنف وتضجر من رعديد مثلي .. أرجوك ان تتصورني وانا أحاول ان اميز بين جرأتي وبين هلعي المرتجف

في غابات قلقي ومجاهل فزعي ..

كان وضعي حرجاً وغير مريح ، فلم يكن هنـــاك موضع لرأسي .. ومع انها رحمت أعصابي فعادت تغط في نومها العميق، فإنني ظللت لا أجرؤ على ان امضي في رحلتي المسحورة الى مكامنهـا الخـلابة .. وقررتُ ان أحشيها غداً بتلك الأقراص الأولى التي كانت تحوّل أمها الى دمية من لحم ودم ، ولكنها فاقدة الحس .. وقررت ان انتظر مؤقتاً دون الاتيان بحركة ، ذلك ان مقاربة المراهقات المسعورات فن تام له قواعده ويتطلب الصبر الجميل والحذر الشديد ..

وامضيت ليلتي مسهداً تتلقف أذناي كل صوت .. وليس هناك من مكان اكثر ضجيجاً من فندق أمريكي في الليل والنهار ..

وبدأت خيوط الصباح تتسلل من النافذة ، وانا في مكاني على مسافة شبر واحد من التي هي حياتي المحترقة .. واخيراً تقاربت منها اطرافي، ولكن ازيز رفاصات السرير لم يوقظها هذه المرة .. واستطعت ان اقترب منها بكتلتي حتى شعرت بوهج كتفيهـــا العاريتين يكاد يسلق عنقي .. وفجأة نهضت جالسة واخـذت تتمتم بكلام سريع محموم شيئاً ما عن نزهة في قـــارب ..وعن بربارة وعن تشارلي .. ثم مالبثت ان هوت عائدة الى نومهـا العميق .. وأثناء ذلك مدت يدها في حركة عفوية فأصابتني في وجهي وأمسكت بذراعها لحظـــة وانا انهل دفء زندها ، ولكنها سرعان ما حررت يدها كذلك بحركة عفوية .. طبيعية تصدر عن النائم اللاواعي ، دونما عنف او قرف . وعاد الوضع

كما كان : همبرت يتوسد ذراعه على حافة السرير ولوليتا متكورة في نومها تدير ظهرها إليه ، بينما هو يغلي شبقاً وحنيناً ويتحرق صبوة .

واضطرني ذلك الى ان الجأ الى الحمام ، فليس مثل الماء البارد من دواء في مثل هذه الظروف ، ولما عدت وجدتها قد نهضت من نومها وطلبت مني قدحاً من الماء بصوت مطمئن.. ومدت يدها وتناولت الكأس الورقية ونهلت الماء البارد واهدابها الطويلة المنسدلة تكاد تمس حافة الكأس .. ثم اقتربت مني بحركة صبيانية ومسحت شفتيها على كتفي مسحة فيها من السحر اكثر من أية مداعبة مقصودة شهوانية .. ثم انكفأت الى وسادتها وعادت الى نومها في الحال .

لم اجرؤ على ان اقدم لها مع الماء قرصاً منوماً آخر .. إذ لم أكن قد تخليت تماماً عن الأمل في ان القرص الاول سيفعل مفعوله ويسجنها بين ذراعي إله النوم ، وهكذا بدأت أزحف نحوها مستعداً لأية خيبة ، إذ لم أعد أطيق صبراً مع انني كنت أعلم بأن من الأفضل ان أتريث . أخذت أزحف نحوها ببطء متوقفاً أو متراجعاً ، حينما خيل إلي بأنها على وشك ان تهتز .. وشعرت بنسمة من آفاق مسحورة تؤثر في أفكاري .. آفاق جزيرتي الخيالية التي تسكنها حوريات مراهقات مسعورات بالشبق .. وأخذ جسمي المرهق يدخل بين الفترة والأخرى ملكوت النوم ، بل انني ضبطت نفسي أكثر من مرة وانا أكاد أشخر ..وشعرت بضباب الحنان يلف في نفسي جبال الحنين وتلال التوقد ، وأخذ

يخيـل إلي بين الفترة والأخرى ان الفريسة الساحرة ستلاقي في منتصف الطريق الصياد المسحور .. ثم يخيل لي انها ستبتعد عني الى الأبد إذ ستلامسني فجأة بوركيها .

اذا كنت أميل الى ان اصف بالتفصيل احداث هـذه الليلة السحيقة من عمري فانني افعل ذلك عمداً من أجل ان أقيم الدليل على انني لست وما كنت ولم أكن قطعاً محتـالاً فظاً أو مجرماً عتياً .. فما كانت آفاق احـلامي ورغباتي خاضعة للفكر الاجرامي ، انما كانت ذروة شعرية .. وكان هدفي نشوة رفيعـة عن طريق ملامسات رقيقة ما كان لها ان تشعر بحرارتها ، حتى ولو كانت مستيقظة تماماً .. وهكـذا ظللت أرجو ان تنزلق تدريجاً الى نوم عميق يسمح لي بأن أتذوق شيئاً اكـثر من وهج جسمها المتقد ..

وفي هذه الغمرة دقت الساعة معلنة الخامسة وعـاد الفندق يضج بالأصوات ، وبدأ المصعد يرسل أزيزه باستمرار .. وخيل إلي ان أجيالاً ستمضي قبل ان تستيقظ لوليتا وتشاهدني نائمـاً بجوارها ، ولكن ما كادت تدق الساعـة السادسة ، حتى كانت قد استيقظت تماماً .. ومـا كاد الوقت يصبح السادسة والربـع حتى كنا فنياً عاشقين ..

انني أوجه كلامي الآن الى العضوات في هيئة المحلفين التي ستقرر مصيري .. وأقول لهؤلاء النسوة اللواتي لا بد انهن مصابات بالبرود الجنسي ، بأنني سأكشف عن أمر غريب :

في هذه الربع ساعة لم أكن انا الذي أغويت لوليتا ، إنما هي

التي اغوتني.. انقلب الصياد الى فريسة ، وهذه هي القصة :

عندما سمعتها تتثاءب مستيقظة تظاهرت بالاستغراق بالنوم إذ لم اكن أعرف ما يجب ان افعل واخذت أتساءل إذا كانت ستذعر لرؤيتي ممدداً بجانبها وفي ذات السرير ؟ .. وتساءلت إذا كانت ستجمع ثيابها وستلتجىء الى الحمام وتقفل على نفسها الباب ، وإذا كانت ستطالبني بإعادتها الى رامسديل في الحال لنكون بجانب سرير أمها ؟ .

ولكن حبيبتي لوليتا كانت ماجنة ذات روح رياضية ..فقد شعرت بنظراتها مصوبة إليّ، ولما ألقت تحية الصباح أدركت من رنة صوتها ان عينيها تضحكان .. وما لبثت ان تدحرجت نحوي فجاءت جدائلها فوق عيني وتظاهرت بالاستيقاظ..وظللنا ممددين بهدوء ثم أخذت أداعب شعرها برقة .. فالتقت شفاهنا في قبلة رقيقة جنونة.. ووجدت في طريقتها في التقبيل مسحة انفعالية واسلوباً رفيعاً ، ولكنه مضحك بالنسبة لسنها ماجعلني أتأكد من ان مراهقة سحاقية قد قاربتها وعلمتها منذ الصغر فنون التقبيل واعتصار الشفاه . فليس بوسع أي مراهق ذكر ان يعلمها ذلك .. وكأنها أرادت ان تختبرني لتعرف اذا كنت وعيت دروسها في التقبيل فإنها تباعدت عني قليلاً وقد تضرجت وجنتاها والتمعت شفتاها برضابها .. بينما كنت أشعر بان انحلالي التام بات وشيكاً ..

وأطلقت لوليتا صيحة مغناجة هازجة هي من مميزات الحوريات المسعورات، وانحنت بفمها على أذني فظل ذهني لبرهة

طويلة عاجزاً عن ان يفسر بالكلام رعيد همسها الدافىء ومـــا لبثت ان ضحكت ولملمت الشعر الذي انسدل على وجههـا ، ثم عادت مرة أخرى تهمس في أذني فضج رأسي بقصف غامض من همسها ؛ فما لبثت ان دخلت في عالم حالم جديد إذ فهمت ما الذي كانت تقترحه بهمسها ..

كانت تطلب مني ان « نلعب اللعبة » التي لعبتها مع تشارلي ابن مديرة المخيم .. الذكر الوحيد في مخيم البنات ، فلما أجبتها بأنني لا اعرف كنه هذه « اللعبة » أجابتني وقـد ارتسمت على وجهها معالم الاستنكار وعدم التصديق :

– أتعني انك لم « تلعب » أبداً تلك « اللعبة » .

وفي تلك الأثناء اخذت احوم بشفتي على كتفيها العـاريتين فقالت لي وهي تنفلت عني بحدة : كفاية من فضلك .

وكانت لها طريقة غريبة ، احتفظت بها أشهراً طويلة ، بأن تنظر الى جميع الملامسات ، باستثناء قبلة الفم والمجامعة المحض، كأمور « غير طبيعية » أو رومانتيكيـة .. وأردفت بإصرار وفضول وهي تنحني من جديد فوقي :

– هل تعني انك لم تفعلها عندما كنت صبياً ؟

فلما أجبتها صادقاً بأنني لم افعلها .. قالت لي :

– حسناً .. من هنا نبدأ إذن .. إليك كيف يُعمل هذا .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

لن أثير ضجر قرائي المتمرسين برواية مفصلة عن ادعاءات لوليتا بأنها خبيرة في قضية الجنس إذ يكفي ان اذكر بأنني لم ألمح أثراً للتواضع في تلك المراهقة التي لم تكد تستكمل تكوينها ، فلقد حرمها التواضع واستكمال التكوين عوامل شتى منها عامل الدراسة المختلطة .. وعامل الانحرافات الخلقيــة لدى المراهقين وعامل الذئاب البالغين الذين يحومون حول مدارس البنـــات ومعسكراتهن ..

وجدت لوليتا تعتبر العمل الجنسي بمثابة جزء من عالم المراهقين الصغار الخفي المستور .. العالم الذي يجهله البالغون .. فما يفعله البالغون من أجل حفظ النوع لم يكن يعنيها إطلاقاً .. ولهذا فقد قاربتني كأن الأمر بديهي وكما لو كانت حياتي الجنسية شيئاً مجرداً من التحسس ومنفصماً عني .. ومع انها كانت متلهفة الى ان تثير إعجابي بسنن عالم المراهقين الأشداء ، فانها لم تكن متهيئة تماماً لبعض الفوارق بين حياتها كمراهقة وحياتي كرجل بالغ متقدم في العمر .

ولقد كان الكبرياء وحده هو الذي منعها من ان تتوقف عما مضت فيه ، ذلك انني في غمرة دهشتي تظاهرت بالهبل المطلق وتركتها تتصرف كما تشاء .. وبالطبع الى المدى الذي استطيع تحمله .

ولكن هذه قضايا تافهة في الواقع فلست بالذي يهمه ما يدعى باسم « الجنس » ، ذلك ان باستطاعة كل انسان ان يتصور عناصر الحيوانية تلك في ذلك اللقاء الجنسي بيني وبينهـــا .. ثم انني

شعرت بميل أعظم من ميلي إلى ارواء غلمتي . لقد استهواني ميل جارف الى ان أتحرر في تلك اللحظة مرة أولى وأخيرة من سحر الحوريات المسعورات .. ذلك السحر الذي ينطوي على الأفكار المرعبة ..

- ٢٩ -

إنني أحاول ان أصف هذه الأشياء ليس من أجل ان أعيشها من جديد في هذا الشقاء الذي أحياه في زنزانتي .. انما أصفها من اجل ان افرز الجانب السماوي على الجانب الجهنمي من عالم الولع بالمراهقات المسعورات ..

انه حب تتماوج فيه الحيوانية مع الجمال الروحي.. وانه ولع تلتقي فيه الحيوانية مع قيم الجمال عند هامش الحياة احب ان أحدد موضوعه ، ولكنني افشل في ذلك فشلاً ذريعاً ..

لقد تبنت الكنيسة منطوق القانون الروماني القائل بأنه يمكن للفتاة ان تتزوج في الثانية عشرة من عمرها ، ولا يزال هذا القانون سارياً في بعض الولايات الأمريكية .. كما ان القانون في كل مكان يبيح للفتاة الزواج وهي في الخامسة عشرة. فالمشرعون سواء في النصف الغربي أم في النصف الشرقي من الكرة الأرضية يقولون بأن لا ضير من أن يعمد عتل زنيم في الأربعين من عمره ، باركه القسيس وربطه بعقد الزواج مع فتاة في الخامسة عشرة ، اجل لا ضير من أن يعمد هذا العتل إلى ان يقلي جانباً بقواعد الرقة

في المعاملة ليقذف بنفسه الى مفاتن عروسته الصغيرة ويقتحمها اقتحاماً ..

وقد وجدت في مكتبة السجن مجلة جاء فيها ان الطقس المنشط في مدن كسانت لويس وشيكاغو يجعل البنات بالغات ناضجات في عامهن الثاني عشر .

ان لوليتا قد ولدت على بعد يقل عن ٣٠٠ ميل من طقس شيكاغو « المنشط »، ولكنني لم افعل شيئاً اكثر من انني اتبعت معها سنة الطبيعة .. لقد استجبت للطبيعة ، لانني كلب مخلص من كلاب الطبيعة ..

ولكن لماذا كل هذا الهول الذي الصق بي والذي لا استطيع ان ازيله عني ؟.

هل انا الذي قطفت زهرة لوليتا ؟

انني اوجه كلامي الى العضوات الحساسات الرقيقات في هيئة المحلفين فأقول :

كلا .. لم اكن انا الذي قطفت الزهرة .. بل لم اكن العاشق الاول الذي ضاجع لوليتا .

- ٣٠ -

حدثتني لوليتا عن الطريقة التي انتهكت بها ونحن نتناول في الفراش طعام الأفطار .. حدثتني وهي تزدرد الموز وتلتهم مربى الكمثرى .. حدثتني بكل شيء وبصراحة ..

بدأت قصتها المثيرة بذكر بربارة رفيقتها التي كانت تنام معها في خيمة واحدة في مخيم الصيف السابق . وفي مخيم آخر للبنات. ووصفت رفيقتها بأنها بنت عظيمة ونصف مجنونة !! وقد علمتها كثيراً من « العمليات » ..

كانت بربارة الصبية الشقراء الفارعة تكبرها بعامين ، وكانت أقدر سبّاحة في المخيم وكان عندها قارب سريع خاص بها ، فكانت تدعو لوليتا الى مشاركتها اياه ، لان لوليتا هي اقدر البنات على السباحة على ظهرها .. فكانتا في كل صباح تحملان القارب الى بحيرة صغيرة عبر الغابة يعاونهما في ذلك الذكر الوحيد تشارلي هولمز ابن المديرة البالغ من العمر ١٣ عاماً ..

في كل صباح كان المراهقون الثلاثة يختارون طريقاً جانبياً عبر الغابة البريئة وفي نقطة معينة كانت بربارة تختلي مع تشارلي تحت دغلة بينما تقف لهما لوليتا خفيرة .

وفي بادىء الأمر رفضت لوليتا ان « تجرب كنه ذلك الشيء » ، ولكن فضولها مشفوعاً بنفوذ زميلتها تغلبا على برودها ، وما لبثت ان اصبحت تتناوب وبربارة الخلوة مع تشارلي الذي كان مراهقاً وسيماً لا يكل ولا يمل والذي كان يملك مجموعة ساحرة من الصور المثيرة ، ويحتفظ بمجموعة عجيبة من « الأكياس الواقية » كان يصطادها من بحيرة مجاورة اوفر سعة وأحفل بالناس .

ومع ان لوليتا اعتبرت الأمر « نوعاً من اللهو » كما اعتبرته « شيئاً مفيداً للبشرة » فإنه يسرني انها كانت تكنّ احتقاراً شديداً

لمسلك تشارلي ولذهنيته.. فما اثار هياجها وسعيرها ذلك الشيطان القذر .. بل اعتقد انه اشاع فيها البرود رغم ما كانت تحسه من « متعة » .

كانت الساعة قد بلغت العاشرة ، عندما فرغت من قصتها ، وعندما بدأ يضج في رأسي شعور موجع بالفظاعة يزيده وطأة ما يتميز به ضوء النهار من كشف للنواحي الواقعية ..

كانت لوليتا تقف عارية مرهقة الجسد امــام المرآة وقد ادارت لي قفاها الابيض البض وراحتاها على خاصرتيها ، ورجلاها متباعدتان ، بينما كانت تتأمل نفسها في دهش مبتــذل وتعبث اناملها بخصلة طويلة كانت تتدلى على جبينهــا . وبدأنا نسمع اصوات الخدم في الدهليز والغرف المجاورة ، بل ان احدهم جرب ان يفتح باب الغرفة فدفعت بلوليتا الى الحمام لتأخذ دوشاً حاراً كانت تحتاجه للغاية ، بينما اخذت انتض عن السرير ما تناثر من فتات الطعام واسوي من وضعه بحيث يدل على ان ابا وابنته قضيا ليلتهما فيه ببراءة ، وبحيث لا يعطي احداً اية فكرة بانــه كان مسرح غرام ..

وارتدت لوليتا ثيابها بسرعة ، بينما وضعت في حقيبتها بعض القطع النقدية وقلت لها ان تنتظرني في صالون الفنــدق ، وان تشتري لنفسها مجلة تتلهى بها الى ان اوافيها ، ولم انس ان احذرها برفق من ان تتجنب الحديث مع الأغراب .

ولما نزلت وجدتها تقرأ وقد لفت ساقاً على ساق فبان بعض لحمها البض الذي كان يسترق النظر اليه رجل في مثل سني أظن

انه كان يشبه قليلاً أحد أقربائي السويسريين، العم « غوستاف » الذي كان هو ايضاً هاوياً كبيراً من هواة الأكتشاف. وكان الرجل يتظاهر بقراءة احدى الجرائد ..

لم يكن هناك ما يعادل في الصبيانية والطفولة البريئة مظهرها بأنفها السوي ووجها الوضيء، وعنقها الذي تراوحه لطخات حمراء (فقد كان عنقها مائدة لوليمة مسعورة)، ثم بالعلكة التي كانت تفرقعها بين الحين والآخر بين اضراسها .

وتوجهت الى مكتب الفندق لأتم المسرحية وهكذا سألت الكاتب اذا كانت زوجتي لم تتلفن فلما رد بالنفي رجوته ان يبلغها اذا تلفنت اننا ذهبنا الى مزرعة العمة كلارا .. ودفعت الحساب وجررت لوليتا من يدها وهي لا تزال تقرأ في مجلتها ..

وهنا يجب ان اذكر القارىء الصبور بأن وجهتنا المقررة هي مدينة ليبينغفيل القريبة من المستشفى الوهمي الذي قلت للوليتا ان امها قد دخلت اليه ..

وبينما كنا ندخل السيارة رأيت معالم الألم ترتسم على وجه لوليتا، ثم تزايدت هذه المعالم وضوحاً، عندما جلست بجانبي .. ولا شك انها فعلت ذلك لتشعرني بأنها تتألم جسدياً ولغباوتي سألتها عما بها فاجابتني :

— لا شيء .. ايها الوحش ..

فلما سألتها : ماذا تقولين ؟

التزمت الصمت .. ولكن صمتها دفع عناكب الذعر تدب على ظهري بمخالبها الباردة .. وتصورت الوضع الواقعي : هذه

فتاة يتيمة وحيدة .. فتاة قاصرة قزمة جامعها علج عتي ثلاث مرات هذا الصباح بالذات .

ولكن اذا كان حلم حياتي قد تحقق بأروع مما كنت ارجو فان ذلك لم يمنعه الآن من ان يتحول الى كابوس مرعب .. ادركت في هذه اللحظة بأنني كنت طائشاً غبياً وخسيساً فاجراً .

واذا اردت ان التزم الصراحة ، فإنني مع كل ذلك شعرت في غمرة هذه الدوامة المفزعة باهتزازات الرغبة تجوس في اعماقي .. اجل الى هذا الحد كانت شهيتي مرعبة مخيفة وهائلة الى تلك الحورية المسعورة .

وهكذا اختلط في نفسي تأنيب الضمير ونخزات الشعور بالاثم ، مع خاطر عذبني اذ اوحى لي بأن مزاجها الحالي قد يمنعني من ان استمتع بها مرة اخرى اذا وجدت على الطريق مكاناً جميلاً منعزلاً استطيع ان اخفي فيه سيارتي ..

وبعبارة اخرى كان المسكين همبرت تعيساً وهو يسوق سيارته مسرعاً الى ليبينغفيل ، وهو يشغل فكره في استنباط وسيلة مناسبة يجرؤ بواسطتها على مقاربة جليسته .

على انها كانت هي التي قطعت حبل الصمت الطويل اذ قالت مدمدمة :

– اوف .. يا للعار ..

فقلت لها متلهفاً مازحاً :

– اجل يا عيب الشوم .. اليس كذلك ..

– ارجوك ان تقف عند اول محطة بنزين ، فإنني أريد أن أقضي حاجة ..

ومررنا بدغل من اشجـــار السنديان الظليلة فاقترحت عليها ان نتوقف اذ قد يكون بالامكان ان ..

ولكنها صاحت محنقة : هيا سر على طول ..

فأجبتها :

— امرك .. ولكن على مهلك .. اهدئي .

وتطلعت اليها فوجدتها والحمد لله تبتسم .. ثم ما لبثت ان وجهت لي الحديث قائلة ، ولكنها بابتسامة عذبة :

— ايها السافل الكريه . . لقـــد كنت فتاة نقية نضرة كالأقحوانة بالأمس ، فانظر مـــا فعلت بي .. يجب ان اذهب للشرطة وابلغهم بأنك اغتصبتني اجل اغتصبتني ايهـــا العجوز القذر ..

هل كانت تمزح ؟

لقد كانت ثمة مسحة هستيرية تخالط كلماتها التي اتبعتها بالشكوى من الآلام ، قائلة انها لا تطيق الجلوس إذ أنني مزقت شيئاً ما في باطنها .. وإذ سمعت ذلك اخذت حبات العرق تتساقط باردة وتنزلق الى عنقي وكدت لارتياعي ادهس كلباً ، بينما مضت رفيقتي الملتهبة غضباً تسبني سباً مقذعاً ، ولما توقفنا عند محطـة البنزين دخلت الى الحمام وبقيت فترة طويلة ولما ظهرت قالت لي بتلك اللهجة الباردة التي آذتني كثيراً :

— اعطني بعض النقود ، فانني اريـد ان اتلفن الى أمي في المستشفى .. ما هو رقم الهاتف ؟

— هيا اصعدي الى السيارة انك لا تستطيعين مخاطبة ذلك الرقم

– ولماذا ؟

– ادخلي واغلقي الباب ..

دخلت السيارة واغلقت الباب ، فاندفعت بهـا الى الطريق الجبلي ، بينما قالت متسائلة :

– ولماذا لا استطيـع ان أتلفن الىأمي اذا أردت ان اتلفن؟

فأجبتها .

– لأن أمك قد ماتت !!

– ٣١ –

في مدينة ليبينغفيل المرحة اشتريت لها اربعة كتب مصورة وعلبة ملبس وعلبة ادوات المانيكور وساعـة ومضرب للتنس وحذائين بكعب عالٍ وراديو يد وعلبة علكة ومشمعاً شفافاً ونظارات وبعض الجوارب والملابس الداخلية .

وفي الفندق اخذنا غرفتين منفصلتين ، ولكنهـــا جاءت في منتصف الليل منتحبة الى غرفتي وتمت العملية بيننا بكل رقـة ولطف ..

وكما ترون فانه لم يكن لديها قطعاً من مكان آخر تلجأ اليه..

* * *

الجزء الثاني

- ١ -

عند ذلك التطور في علاقاتنا بدأنا سفراتنا الحثيثة في جميع ارجاء الولايات حيث خلصت الى تفضيل نوع واحد من الفنادق هو المنزل الريفي النظيف الامين ، الذي ينطوي على اماكن مثالية لنوم العشاق ولمشاجراتهم ولمصالحاتهم ولغرامياتهم الماجنة غير المشروعة .

وفي بادىء الامر كنت ادفع في غمرة الخـــوف من اثارة الشكوك في علاقاتي مع لوليتــا اجر حجرتين متصلتين تحتوي الواحدة على سرير مزدوج ولقد تساءلت كثيراً عن الدافع لمثل هذا التنظيم ، ذلك لانه ما كان يمكن تحقيق غير نوع من الخلوة المرائية الكاذبة بهذا الانفصــــام غير الكامل ، الذي يقسم في الحقيقة حجرة كبرى الى حجرتين او الى عشين غراميين متصلين بسهولة . ولم يمض وقت طويل حتى ادركت ضآلة احتمال اثارتنا انا ولوليتــــا لاي شكوك ، فاصبحت اكثر جرأة ، فرحت لا استأجر سوى غرفة بسريرين او غرفــة بسرير واريكة .. وكانت تلك الغرف تبدو لي كزنزانات في الجنة بستائرها الصفراء المسدلة ، التي تعكس في الصباح جو يوم مشمس رائق من ايام

البندقية ، بينما تكون في الواقع في بنسلفانيا وفي صباح مطير .
وبالتدريج عرفنا كيف نمضي وقتاً طيباً في الاكواخ النائية المماثلة لما وصفه من اكواخ غرامية كل من فلوبير وشاتوبريان وعرفنا كيف نستخدم الحمائل والادغـــال على طريق السفر .. اجل عرفنا مختلف انواع الفنادق والحانات والاستراحات الصيفية .. بحماماتها المختلفة الغريبة الانواع .. وبالتعليمات المعلقة فيها وهي تطلب الى الزبائن الكرام الا يلقوا في بيت الخلاء بالاقذار وعلب البيرة .. والمواليد الجدد .
وعرفنا مختلف انواع اصحاب الاستراحات التي يأوي اليها المسافر مع سيارته في باحة طليقة فعرفنـــا منهم المجرم التائب والمعلم المتقاعد ، والخائب في التجارة ، وعرفنـا من صاحبات تلك الاستراحات المرأة التي تحاول ان تظهر بمظهر ارستقراطي والمرأة الجانية .. والعاهرة المتقاعدة .. والعجوز المتصابية .
واخذنا بحكم الخبرة نتجنب الفنـادق المعروفة باسم « بيوت السواح » الجنائزية المظهر الخاليـــة من الدوش والمتميزة بموائد كثيرة الزخرفة وبغرف ملونة باللونين الوردي والابيض بشكل يثير المقت ، وصور ابناء صاحبة الفندق في ثياب العيد .
ولكنني في بعض الاحيان كنت استسلم لاصرار لوليتا على النزول فيما يدعوه الدليل باسم «الفندق الحقيقي» المتميز بأطيب الطعام .. وبنزلاء من ارفع مستوى ، واذكر انني دفعت ١٢٠ دولاراً اجراً لمقامنـــا يومين في مثل هذا الفندق !! الذي يصر اصحابه اللصوص على ان يجاملوا النزيل بقهوة مجانية في الصباح

وعلى عدم قبول من هم دون السادسة عشرة (بالطبع لوليتا غير مقبولة نظرياً في مثل هذا الفندق !) .

على اننا اخذنا نقصد اكثر ما نقصد استراحات السيارات رغم ما كان يطرأ على لوليتا من نزوات فيها ، فكانت تسألني بصوت منتحب لماذا لا اسمح لها بأن تقوم بالنزهة الموصى بها على طريق الجبل . وكانت تطالب مثلاً بأن نفتش عن مقهى فيه كراسي شيزلونغ تحت اشجار الصنوبر وتصر على ان تجلس في مثل ذلك المقهى . فكان الامر يقتضيني ساعات من الوعيد والترغيب ، كيما تعيرني اطرافها السمراء بضعة دقائق حتى لا تضيع هباء الدولارات الخمس التي دفعتها اجراً للكابين ؛ وقبل ان احقق لها اياً من رغباتها التي تفضلها على متعتي التاعسة .

ان لوليتا تستطيع حينما تريد ان تكون اكثر المخلوقات اثارة للمتاعب والاعصاب بسلوكها الذي هو مزيج من الطيش والرقة والتبذل والدلع والخفة والنزق . والواقع انني لم اكن مهيأ النفس لمعالجة نزوات نزقها وضجرها وحردها المتمثلة بتصرفات بهلوانية ذات طابع صبياني وسوقي . وكنت اجدها من الناحية العقلية مراهقة صغيرة عادية بشكل مقرف .. فكانت موسيقى الجازباند المحمومة والرقصات السريعة واقداح البوظة المليئة بالبندق والفريز ، والمجلات السينمائية الخ .. في رأس قائمة احب الاشياء الى قلبها والله يعلم كم من القطع النقدية حشوت بها العلب الموسيقية البراقة لتعزف ما تختاره لوليتا من موسيقى سوقية رعاعية محمومة ، عند كل وجبة في المطعم .

ولا تزال تتردد في مسامعي اصوات هؤلاء المغنـــين .. الاصوات الماجنة الرقيعة التي كانت تتمايل عليها لوليتا حالمة ..

وكانت تؤمن بثقة مستسلمة ، بمـا يكتب في الاعلانات التي تنشرها مجلات السينما وكانت تعتبرها كشيء منزل من السماء .. بل كانت تستجيب لكل اعلان فاذا مررنا باعلان يقول: زوروا مخزن الهدايا فاننا يجب ان نزوره واذا مررنا باعلان يقول : اشتروا عرائسنا الهندية فان علينا ان نشتري العرائس والدمى والتذكارات .. واذا ما صادفنا اعلاناً مضيئاً يعلن ان الملهى يقدم مشروبات مثلجة ، فانها تثار آلياً الى شرب شيء من هذا الملهى بالذات مع ان جميع المشروبات تقدم مثلجة في كل مكان..

الى لوليتا ومثيلاتها كانت تتوجه هذه الاعلانات، فقد كانت مثال المستهلك المغفل المثالي ، وكانت هدف وموضوع كل لوحة اعلانية مخاتلة ..

في تلك الايام لم يفكر أي منا في استنباط طريقة الرشوات المالية التي خلصنا اليها فيما بعد، لتسكين اعصابي ورفع معنوياتها..

لقد اعتمدت على ثلاثة مناهج لابقاء محظيتي السرية في حالة خضوع ومسالمة :

١ – كانت قد ذكرت لي انها قضت منذ سنوات صيفاً مقيتاً مقرفاً في مزرعة ريفيـــة تحت اشراف استاذة عانس ، كانت تجبرها على تعلم اشياء كثيرة في جو كريه منعزل ، فقـــد كانت المزرعة تبعد عشرين ميلاً عن اي مكان مأهول ... وعندما حدثتني عن هذه الذكرى ارتسمت على وجهها معـــالم القرف

والمقت التي شوهت ملامحها ..

واستناداً الى ذلك اخذت كل مرة تثير فيها اعصابي بنقيقها وتصرفاتها الصبيانية النزقة ؛ اتوعدهـا باني سآخذها الى مكان منعزل لمدة اشهر بل لمـدة سنوات اذا لزم الامر لتدرس تحت اشرافي اللاتينية والفرنسية هذا اذا لم تغير « مسلكها الحالي »..

ولكونهـا ساذجة كانت تصيح مستنكرة وتمسك متوسلة بيدي المشغولة بمقبض السيـارة ، كما لو كانت تتصور بأنني فعلاً اتجه في غمرة غضبي منهـا الى زجها في مثل ذلك المنفى المقيت المظلم .. ولكن تأثير هذا الوعيد اخذ يخف كلما مضينـا قدماً في اسفارنا نحو الغرب فكان لا بد من ان التمس وسائل اخرى لاقناعها واخضاعها .

٢ – من بين تلك الوسائل اذكر بشعور من الخجل والعار تهديداً تأديبياً كنت اوجهه اليها ..

لقد كنت منذ بداية علاقتنا الفاجرة من المهـارة بحيث ادركت بأنني يجب ان اؤمن تعاونها التام لابقاء علاقتنا سراً مخفياً ، بحيث يصبح كتمان الامر طبيعة ثانية فيها ، وفي جميع الظروف مهما بلغ حقدهـا علي ، ومهما كانت الملذات الاخرى التي قد تتطلبها نفسها .

فكنت اعوّدهـا على ذلك حتى في خلواتنا ، حيث كنت اخاطبها مثلاً : « تعالي وقبلي اباك العجوز .. وكفي عن هذا السخف » .

ايه ! يا لوليتا لقد كنتُ في السابق فارس احلامك، وكنتِ

تحصين تأوهاتي وخلجاتي بين ذراعيك ، اما الآن فأنا مجرد ابيك العجوز .. مجرد اب خيالي يحمي ابنته الخيالية .

كنت افعل ذلك كيما احمي عزيزتي لوليتا من كل الاهوال التي تتعرض اليها الفتيات الجانحات من ذئاب البشر في الازقة المظلمة والمنعطفات الخالية .. وتحت خمائل الفريز في الغابات والبراري ايام الصيف الصافية ..

أجل قررت ان اكون حارسك وحاميك ولعل المحكمة تجد مبرراً قانونياً لهذه الحراسة ..

ولكن لندع التعابير القانونية حول شرعية المساكنة والمعاشرة بين رجل في الخمسين وقاصرة لم تبلغ الثالثة عشرة . انني لست مجرماً فاسقاً منحرف الميول يبيح لنفسه حرية مقاربة قاصرة مقاربة وضيعة .. ان الذي انتهك عذارها اجرامياً هو تشارلي هولمز ابن المديرة اما انا فلست الا الطبيب المداوي ..

كنت اقول للوليتا : انظري يا عزيزتي انا ابوك الحبيب انظري .. ها هو كتاب نفيس عن الشابات الصغيرات اسمعي ماذا يقول :

« ان البنت الطبيعية ـ انتبهي البنت الطبيعية ـ هي عادة حريصة للغاية على ارضاء والدها ، وانها لتجد فيه صورة للرجل الذي تحلم به وتشتهيه ، أما الأم الحكيمة فانها خليقة بأن تشجع الزمالة بين الاب وابنته لادراكها بأن البنت تستقي مثلها العليا عن الحب والغرام مع الرجال من رابطتها مع والدها » .

والآن ما هي الرابطة التي يقترحها ذلك الكتاب النفيس ؟

اني انقل منه من جديد :

« ان العلاقات الجنسية بين الوالد وابنتـه لدى سكان صقلية هي أمر مقبول باعتباره امراً واقعـاً وان المجتمع هناك لاينظر باستنكار الى البنت التي تشارك في مثل تلك العلاقات » .

ولقد علقت على هذا المقطع إذ قرأت للوليتا بقولي : انني من المعجبين بسكان صقلية يا لوليتـــا .. فهم رياضيون ممتازون وموسيقيون ممتازون واناس ممتازو التربية .

ولكن لا حاجة تدعونا الى الشذوذ والانحراف .. لقد قرأنا في الصحف مؤخراً عن رجال اعترفوا بخرقهم قانون حماية الآداب العامة تنلوا من ولاية الى اخرى قاصرة في التاسعة من عمرهــا لأغراض فاسقة .. والآن يا عزيزتي لوليتا انك لست في التاسعة بل تكادين تبلغين الثالثة عشرة ولست انصحك بأن تعتبري نفسك جاريتي .. انني اهزأ بقانون حماية الآداب العامة فهو يورط نفسه في تورية مزدوجة المعنى، إذ انه في الواقع يمثل فقط انتقام الآلهة الخرافية من الفاسقين المرائين .. اما انا فلا يطالني القانون لأنني والدك .. انني أتكلم الانكليزية واحبك .

وإستطردت مخاطباً لوليتا :

« اخيراً لنتصور مــاذا سيحدث اذا اتهمت انت القاصرة بإفساد اخلاق رجل بالغ في فندق محترم؟ ماذا يحدث اذا شكوت للبوليس من انني اختطفتك وانتهكتك ؟

لنفترض ان رجال البوليس قد صدقوك :

ان العقوبة القصوى هي السجن عشر سنوات للشخص الذي

تجاوز الواحدة والعشرين اذا سمحت له انثى قاصرة بان يقاربها جنسياً .. اجل ان سماحها بذلك ينطوي على تعريض ضحيتها لطائلة القانون بدعوى انه قام باغتصاب موصوف لقاصرة او بمضاجعة غير مشروعة . وهكـذا سأذهب الى السجن بموجب ذلك .. حسناً ما الذي سيحدث لك ايتها اليتيمة اذا زجني البوليس في السجن ؟

انك في هذه الحالة ستكونين اسعد حظاً .. اذ ستصبحين امانة في يد دائرة الشؤون الاجتماعية وستأتي امرأة عانس صارمة متزمتة تزيل الاصباغ عن شفتيك ، وتأخذ عطورك وثيابك الحديثة الحريرية وتعطيك تنورة طويلة وقميصاً مقفل الياقة وتأخذك الى الاصلاحية .. انني لست اعلم يا لوليتا اذا كنت قد سمعت بالقوانين المتعلقة باصلاح القاصرات المنحرفات ..

اذا بلغ الخبر البوليس سأقف وراء القضبان ، بينما ستخيرك دائرة الشؤون الاجتماعية انت الطفلة المهملة السعيدة بين الذهاب الى هذه الاصلاحية او تلك ، حيث تمضين النهار في انشاد الأغاني الدينية والدراسة واعمال التدبير المنزلي ؛ وحيث تحصلين يوم الاحد فقط على القطائف مع وجبة الغداء .. اجل في هذه الحالة سيجبرونك على الذهاب الى واحدة من تلك الاصلاحيات ، لانك قاصرة جانحة تتطلب الاصلاح والارشاد ..

وبعبارة اوضح فانك ستزجين اذا اكتشف البوليس امر علاقتنا .. اقول انك ستزجين مع ٣٠ او اربعين قاصرة مثلك في

قاووش قذر معتم تحت اشراف مربيات قاسيـات متغطرسات متزمتات ..

وهكذا ألا تظنين والحالةهذه ان من الافضل للوليتا هيز ان تظل مع «ابيها» العجوز ؟ .

استطعت بترددادي ذلك بالتفصيل ان ارهب لوليتـــا التي لم تكن بالطفلة الذكية الى المدى الذي توحي به ملامحها وقـــد استطاع هذا الأرهاب ان يلطف من طيشها ويجعلها اقل حرداً ، ولكن ليس الى حد كبير .

وعلى كل حال فقد نجحت في ان اثبت في ذهنها وجاهـــة المحافظة على السرية والمشاركة في التكتم بالاضافـــة الى الشعور بالمشاركة بالذنب والأثم ، الا انني كنت اقل نجاحـــاً في ابقاء مزاجها رائقاً طيلة الوقت .

فكنت كل صباح اضطر الى اجهاد نفسي في إبتكار مايمدهـا بالرجاء والأمل ، حتى يحين موعد لجوئنا الى الفراش، ولولا ذلك لانهار هيكل يومها وساء مزاجها.. وقـد يكون ما اعدهـا به شيئاً تافهاً مثل زيارة المنارة في فرجينيـــا او زيارة لكهف طبيعي في اركانساس حول الى مقهى عام الخ .. ولـكن يجب ان يكون ما اعدها به موجوداً امامنا كنجم ثابت نستهديـــه طريقنا لتغرد لوليتا وتزقزق فرحاً اذ نصل اليه .

بذلت احسن جهدي في ما لايعد من الساعات ، كيما اوحي للوليتا باننا نقوم بسياحات ممتعة ، اذ كنا ننتقل بـــين مرافق امريكا الجغرافية عبر طرق جميلة وسهلة تصل بين ٤٨ ولاية وكنا

نمضي معظم ساعات الطريق في الصمت .

اما لوليتافلم تكن فقطمن اللواتي لا يتذوقن المناظر الطبيعية، بل كانت كذلك تستاء بغضب من لفتي نظرها الى تفاصيل ما نرى من مناظر الطبيعة الساحرة .

لقد اقترح المحامي ان اعطي تقريراً واضحاً عن تنقلاتنا، واعتقد انني وصلت في روايتي الى مرحلة لا استطيع الا ان افعل فيها ذلك بدقة، ذلك انني لم اكن ادون مذكرات عن الرحلة ولست املك الا سجلاً مقطعاً عن رحلتنا هو في حالة زرية تشبه ماضي الممزق .

- ٢ -

يجب على القارىء ان يذكر اذ يتابع ما يلي بان رحلتنا كانت شاقة رغم جوانب المتعة فيها ، وكان المبرر الوحيد لها هو ان ابقي رفيقتي في حالة مرضية بين القبلة والاخرى .

لقد مررنا بمختلف انواع المطاعم الامريكية وشاهدنا معظم التقاليع ومختلف ما يثير القرف ، وزرنا كل مرافق التاريخ الامريكي .. التاريخ الذي لا يزيد عمره عن ٣٠٠ عام !

وزرنا في الأقليم المسيسبي متحفاً مكرساً لعرض صور الفنادق الأوروبية فقط.. وبزهو دافىء اكتشفت فندق ميرانا الذي كان يملكه ابي في الريفيرا ولما ذكرت ذلك للوليتا هزت كتفيها غير عابئة قائلة :

– وماذا يعني ؟

وفي غابة في ولاية اركنساس لسعت حشرة كتف لوليتا فاحمر مكان اللسعة وانتفخ، فازلت بأصابعي سمَّها ذي الشفافية اللذيذة،قبل ان احمل اليها شفتي لأقتات من دمها المعطر الحامز .

وزرنا اماكن الهنود الحمر وقمم الجبال وزرنا وزرنا..وعرفنا في طريقنا الكثير من انواع المسافرين المجانين : رجل العلم الذي يفتش عن الحشرات والمتحجرات .. الجندي المتواضع الذي يقف هادئاً على قارعة الطريق وهو يشعر بجاذبية ثوبه الكاكي العسكري ؛ والتلميذ الراغب في الانتقال ؛ والقاتل الراغب في ان يبتعد الف ميل على الاقل ، والوجيه الغامض الذي يقف بحقيبة انيقة وشاربين منمقين، وطالب الجامعة الفخور بجامعيته وهو يرتدي قميصاً مزيناً باحرف كبيرة تصوغ اسم جامعته ، والسيدة اليائسة التي نفدت بطارية سيارتها .. ثم الشبان الذئاب بوجوههم الصبوحة وقمصانهم المفتوحة ونظراتهم النهمة المتحدية، الذين يقفون لاغواء مسافرة تقود وحيدة سيارتها وتحس بالحاجة الى رفيق. وكانت لوليتا تشير الى هذا النوع من الشباب بسخرية قائلة : دعنا نأخذه ..

على انني طيلة الطريق كنت اتابع بعين حريصة لوليتا التي كانت تشع ، وربما بفضل علاقاتنا الجنسية المستمرة ، ببريق خاص مثير للخيالات الزرقاء الناب في صدور صبيان الفنادق ومحطات البنزين والشبان المسافرين في سيارات فخمة والذئاب من رواد المقاهي ومحلات الحلوى .. وكنت المح مشاعرهم تعبر

عنها ملامحهم بشكل كان يجب ان يداعب غروري لولا انه كان في الواقع يزيد من غيرتي .

اما لوليتا فكانت مدركة لتألقها وكنت غالباً افاجئها وهي ترسل نظرة مسروقة باتجاه شاب رقيع انيق وما اكاد ادير ظهري لاشتري قطعة حلوى للوليتا حتى اسمعها هي والشاب يغنيان احدى الاغاني الغرامية الشائعة .

وعندما كنت اثناء استراحاتنا الفورية الزم الفراش للراحة بعد صباح عنيف محموم في الفراش كنت بدافع من طيبة قلبي الرقيق اسمح للوليتا بالذهاب الى الحديقة او الى مكتبة الأطفال او مع بعض الصغار من ابناء النزلاء الآخرين .. وتصوروا اوهامي وهي تعود بعد ساعة متقدمة على الصغار وتسير بين مراهقين بشيعي الوجه وقحي النظرات لتسألني اذا كنت اسمح لها بالذهاب معهما الى حلبة التزلج .

واذكر عندما سمحت لها اول مرة بالذهاب الى مثل تلك الحلبة كيف انها قالت بقسوة انه ليس هناك متعة في مرافقتي لها اذ ان وقت الصباح مخصص للمراهقين فقط .. فبقيت لوحدي في السيارة امام موقف الحلبة حيث كان زهاء خمسين من الفتيان والفتيات يتزحلقون زوجاً زوجاً على انغام الموسيقى . واخذت ارقب لوليتا من بعد الى ان اختفت فجأة .. وما لبثت ان مرت من جديد تتزحلق بين ثلاثة من الشبان الرعاع الذين سمعتهم قبل لحظات «يحللون» من خارج المكان الفتيات المتزحلقات . وسمعتهم يمصون شفاههم تشهياً لمرأى فتاة جاءت تتزحلق مرتدية الشورت

الذي يكشف عن ساقيها ..

منذ ذلك الحين لم اعد ارافقها الى تلك الامكنة ..

لقد حفلت رحلتنا بالكثير مما يثير الغضب ، ففي بعض نقاط الحراسة كان يطل من نافذة السيارة شرطي ويبحلق بنظرات تجعل العرق يتساقط بارداً على رقبتي ويسأل لوليتا :

– اهناك ما تشتكي منه يا حلوة ؟..

كنت في كل مدينة نقف عندها اسأل بطريقتي الاوروبية المهذبة عن المتاحف والمرافق الثقافية وعن المدارس وعدد الطلاب وغير ذلك من الأسئلة التي تكرس في الاذهان براءة رفقتي للوليتا .. وكنت اوقف سيارتي دائماً قرب احدى مدارس البنات وارقب البنات وبجانبي لوليتا وهن يخرجن من المدرسة .. انه منظر حبيب الى قلبي منظر هؤلاء المراهقات خارجات من المدرسة ..

الا ان ذلك اخذ يبعث الضجر في نفس لوليتا ولما كانت تفتقر الى تفهم اهواء الآخرين فقد درجت على شتمي وعلى شتم رغبتي في ان تداعبني والمراهقات السمراوات والبيضاوات يخرجن من المدرسة بتنورات وبشورتات تكشف سيقانهن البضة ..

وكحل وسط لاختلاف مزاجينا اتفقنا على ان نذهب كلما كان الأمر ممكناً الى مسبح البنات .. فقد كانت تعبد المياه المتلألئة البراقة وكانت سباحة ماهرة .. وكنت اعبد تلك الاجساد العارية .. اجساد المراهقات .. فكنت اجلس تحت المظلة غارقاً في مقعدي وارقبها وهي تسبح برشاقة مع الفتيات .. واقارن بينها وبين غيرها من المراهقات المسعورات .. وانا في

منتهى السعادة لانها ملك يمني ..

انني اليوم في الزنزانة اضع يدي على قلبي الموجوع وانا اذكر انني لم اشاهد اية حورية مسعورة تتفوق عليها في اثارة الرغبة .. بل لم تماثلها في ذلك غير فتيات قلائل وفي ظروف غير طبيعية فقد كانت احداهن مضمخة بعطر مثير لا ينسجم مع سنها .

وبالطبع كان لا بد ان ادرك وانا في غيرتي المحمومة مخاطر انفلات لوليتا من رقابتي المباشرة ، فقد كان يكفي ان ابتعد عن لوليتا هنيهات او خطوات .. في شأن ما حتى اراها عند عودتي وهي تلطم الماء بطرف قدمها على حافة بركة السباحة بينما انبطح بقربها مراهق اسمر جذبه جمالها الاسمر بشكل لا بد ان يعذب احلامه المحمومة عدة اشهر .

لقد حاولت ان اعلم لوليتا لعب التنس ولكنني اثبت انني معلم فاشل مع اني كنت في زمني لاعباً ماهراً وهكذا دبرت لها أن تأخذ عند بطل متقاعد دروساً خاصة في التنس كلفتني مبلغاً كبيراً .. وكان ذلك من اجل ان اوفر لها ولي المزيد من المتع المتشاركة .

الا ان لوليتا لم تتذوق هذه اللعبة وقد اثبتت على الاقل قبل وصولنا الى كاليفورنيا بانها تفضل مطاردة الكرة على اصابتها في الهواء .. وبعد ذلك اخذت اشجعها على اللعب مع بنات في سنها وغالباً ما كانت هي ورفيقاتها ترتكبان من الاخطاء ما لا اطيق صبراً عليه فكنت اهرع عادة الى البنت الاخرى واشم ضوعها وانا امسك بساعدها لأعلمها كيف تضرب الكرة وكانت

لوليتا عند ذلك تشرأب بقامتها وتضرب مضرب الكرة على الارض كمنجل الحصـــاد وتطلق « اوف » الاستياء بصوت مجلجل احتجاجاً على تدخلي . فكنت عند ذلك اتركها لشأنها وابتعد مكتفياً بمراقبتها ومقارنة جسديها والغصة في حنجرتي .

وكان من عادة لوليتا في الايام القـائظة ان تخطىء الكرة فتشتم وترسل الى الشبكة بصقة احتجـــاجية .. واذكر انني عرضت ذات يوم ان أأتيها ورفيقتها ببعض المرطبات من الفندق وذهبت فعـلاً وعدت بكأسين من الاناناس البـارد ثم شعرت بفراغ في صـــدري اوقفني عن الحركة اذ رأيت ملعب التنس خاوياً .. فاتجهت لاضع الكأسين على المقعد الخشبي ولسبب ما تراءى لي وجه شارلوت وهي ميتة ثم تطلعت جانباً ولمحت لوليتا بشورتها الابيض وهي تختفي في ظلال ممر الحديقة برفقـة رجل طويل كان يحمل مضربي التنس فاندفعت نحوهمـا لارى لوليتا ورفيقتها تفتشان بمساعدة الرجل عن آخر كرة تنس بقيت لهما .

انني اذكر هذه الاحداث التافهة كيما ابرهن لقضاتي بانني قد فعلت كل ما في طاقتي من اجل ان اوفر للوليتـا وقتاً طيباً .. وكم كان يحلو لفؤادي ان اراهـا وهي تُري لطفلة في مثل سنها بعض حركات للقفز على الحبل التي كانت تتقنهـــا فتثير دهشة رفيقتها .. واقصد بها تلك الحورية الاسبانية المسعورة التي كانت تحاول دائماً ان تتعلم من لوليتا تلك الحركات البهلوانيـــة .. كانت كذلك شهية كلوليتا وذات جسم بديع مثير .. ، كنت ارقبها الى ان تنتهيا من ذلك لأقود لوليتا نحو غرفتنا وانا اضع

يداً « أبوية » تداعب شعرها ثم تنحدر برفق على قذالها .. ولا انسى ان القي بابتسامة الى خادمة الفندق الزنجية وانا اقود حبيبتي المترددة الى عشنا الصغير .. من اجل وصلة سريعة قبل العشاء ..

وبينما كنت عادة أتجنب ما امكن الناس كانت لوليتا تبذل كل ما في وسعها كيما تجتذب اكثر عدد من الشهود الى مدارها.. كالهرة الجميلة التي تجتذب الايدي الحانية اذ تهز ذيلها الانيق وهي ترسل مواءها المغناج .. وفي هذه الحالات كثيراً ما كنت أتعرض الى خطر الانكشاف فقد كانت السيدات اللواتي تجتذبهن وسامتي يسألن لوليتا الكثير من الاسئلة عن ابيها ويقترحن احياناً ان تذهب مع ابنائهن وبناتهن الى السينما ... فلا استطيع ان ارفض ذلك لخشيتي من ان اثير شبهتهن ثم لا استطيع الا ان اخشى من ان ينزلق لسان لوليتا بشيء عن واقع حالنا ..

لكني لم اقلق قط من رقة الحواجز قدر قلقي ذات ليلة احببت فيها لوليتا حباً صاخباً اكثر مما ينبغي ، فملأ سعال النزيل المجاور السكون التالي بشكل قوي جداً . بيد ان الليلة مضت بسلام .

كانت لوليتا معظم الاحيان تصحو متأخرة فكنت انزل وحدي الى بار الفندق لاتناول الفطور واحمل لها قدحاً من القهوة الساخنة الى فراشها .. وكم كان يسرني ان احمل اليها القدح وأوقظها ثم احجبه عنها الى ان تؤدي واجبها

الصباحي » .. ولا عجب فقد كنت لها صديقاً راعياً وابا محبا وطبيباً يسد كل احتياجات جسدها الحلو الصغير الاسمر ! . ولم اكن احقد على الطبيعة الا لشيء واحد هو انني لا استطيع ان اقلب باطن لوليتا الى ظاهرها كيما اقبل كل احشائها .. بشفتين نهمتين .. وكم كانت تحلو لي لمسة المقعد الجلدي وانا غارق فيه بعريني التام ولوليتا جالسة في حضني اكثر ساعات بعد الظهر في الايام القائظة .. في تلك الاثناء كانت لوليتا تبدو طفلة – طفلة فكانت تغطس بوجهها في صحيفة او كتاب غير عابئة بنشوتي كأنما لا تجلس على حضني انما تجلس على شيء ما .. على حذاء .. او مضرب تنس .. وكأنها لا تستطيع لشدة تكاسلها ان تمد يدها كيما تزيحه من تحتها .. وكانت تتأمل الصور وتصدق كل ما تنشره الجرائد من شرح لها .. وتهتم اكثر ما تهتم بصور العرائس وهن في اثواب العرس البيضاء حاملات باقات الورود .

واذكر احياناً كيف كانت تفتح الصحيفة على زاوية (اختبر معلوماتك) لتلقي علي ما فيها من اسئلة مثل :

هل تقل الجرائم الجنسية اذا انصاعت الفتيات الى نصائح قليلة مثل : لا تلعبي قرب المراحيض العامة . . لا تأخذي الحلوى من غريب .. لا تقبلي ان يوصلك غريب بسيارته فاذا فعلت خذي رقم السيارة ..

وكانت تمضي في هذا الاستجواب السخيف وخدها المتباعد يلتصق بخدي الذي يلاصق خدها باستمرار .

- ٣ -

لقد دخلت لوليتا عالمي المجنح الاسود .. دخلته بفضول طائش متهور واستقصت جوانبه المعتمة بشيء من المتعة المكروهة .. ولكن بدا لي الآن انها تتهيأ للخروج من هذا العالم بشيء قريب من التقزز والقرف ..

انها لم تهتز ابداً تحت لمساتي .. لم تكن لمساتي ترسل الاهتزازات في جسدها ، فكان كل ما احصل عليه منها هو هذا السؤال : ماذا تظن انك فاعل ؟ .. ماذا دهاك ؟

كانت مجنونتي تفضل الذهاب الى الافلام التافهة على الرحلات الساحرة الى الملكوت السحري الذي كنت اعرضه عليها ، اجل ليس هناك اقسى من ان يحب الإنسان طفلة مراهقة ..

ارجو من القراء الا يقطبوا وجوههم تجهماً اذ لا انوي أن اوهمهم بانني لم انجح في ان اكون سعيداً مع لوليتا .. انما يجب على القارىء ان يفهم ان الذي يمتلك الحورية المراهقة المسعورة وينغمس في لذائذها انما يندفع الى ما وراء عالم اللذة والسعادة اذ ليس هناك من نعمة على الارض تعادل نعمة مداعبة وملاطفة الحوريات المراهقات المسعورات بالشبق ، ان تلك النعمة هي شيء غير اعتيادي لا تقاس بأية لذة .. انما تنتمي الى صنف آخر من عالم التلذذ .. فعلى الرغم من فوارق السن وعلى الرغم من بذاءتها وخشونتها وعلى الرغم من كل سوقيتها وتظاهرها بالقرف

وعلى الرغم من جميع الاخطار ومن ان العلاقة مع المراهقة المسعورة هي علاقة ليست بذات مستقبل.. وعلى الرغم من كل ذلك فانني ذهبت معها عميقاً في جنتي المختارة .. انها جنة ذات سماوات بلون ألسنة نيران الجحيم .. ولكنها جنة على كل حال ..

ولا ريب ان المحلل النفساني القدير الذي يدرس حالتي والذي لا شك قد القيت به في حالة من الانهيار المفتون ، لا ريب ان هذا المحلل خليق بان يريدني ان اذهب ولوليتا الى الساحل كيما « احقق » هناك حلم العمر وحافزه وبالتالي كيما احرر عقلي الباطني من عقدة خلقها فشلي في ان اتوج غرام طفولتي بامتلاك حبيبتي الاولى آنا بيل على ساحل الريفييرا عندما سنحت لي فرصة وحيدة اضاعها علي رجلان برزا فجأة من البحر .

يا عزيزي المحلل النفساني دعني اذكر لك انني فتشت عن ساحل سحري يشبه ساحل الريفييرا كيما اقضي في ركن منعزل منه وطري من لوليتا .. ولكنني يجب ان اعترف لك بانني عندما وصلت الى سراب مياهه الداكنة كنت قد حصلت على كثير من المتع من رفيقة سفري بحيث ان البحث عن المملكة المسحورة (المملكة التي تصورها لي احلامي قائمة قرب البحر) لم يعد حافزاً من حوافز العقل الباطن بقدر ما اصبح متابعة واعية علانية للذة باهرة هي مجرد لذة نظرية ..

لقد عرفت ملائكة الاقدار ذلك ورتبت الامور وفقاً له .

وهكذا فوجئنا بطقس عاصف زمهري عندما ذهبنا الى كهف طبيعي على ساحل الاطلسي .. اجل فوجئنا بجو ليس فيه ما يشبه جو الريفييرا الوديع الهانيء ..

واخيراً وجدت على الساحل الكاليفورني كهفاً يهيء نوعاً من الخلوة ولكن الضباب كان من الكثافة بمثابة ملاءة مبلولة مسدلة على الدنيا وكانت ارض الكهف مليئة بالبحص وشديدة الوعورة كما ان لوليتا كانت مشعثة بحيث انني لم اشعر في حياتي بقلة في الرغبة بها مثلما شعرت اثناء زيارتنا ذلك الكهف ..

ولعل الحكماء من قرائي قد يدهشون اذا قلت بان تحرري من تلك العقدة كان خليقاً بان يكون فائت الاوان حتى ولو اكتشفت مكاناً مماثلاً لمكان وصالي المبتور مع آنا بيل .. ذلك ان تحرري الحقيقي من تلك العقدة كان قد تحقق قبل وقت طويل .. عندما بدت لي لوليتا بعريها اول مرة عند حوض السباحة في بيتها يوم جئت استأجر غرفة عند امها . فقد كانت تجسد آنابيل حبيبتي الاولى ..

ونتيجة لذلك فقد تباعدت ولوليتا عن الشواطىء ذلك انها دائماً مدلهمة الجو عندما تكون هادئة خاوية ، ومكتظة بالناس عندما يشتد القيظ ..

وهنا يجب ان اشير الى خيبة املي بالبراري الاميركية على الرغم من جمالها الوحشي الفتان ، ذلك ان العشاق من هواة المغامرات الغرامية في الهواء الطلق لن يجدوا فيها من السهل اليسير الانغماس بامان واطمئنان بمزاولة أقدم واعرق الجرائم

الاخلاقية في التاريخ الانساني ، فغالباً ما تلهب الاعشاب السامة سيقان الحبيبــات ، وكثـيراً ما تلسع حشرات مجهولة كل مكان مكشوف من الجسم .. اما ركبتا العاشق فان الحصى يدميهما .

ولعلي ابالغ بعض الشيء ، ولكن هذا بعض ما جرى لي مع لوليتا في أصيل يوم صائف،فقد وجدنا بقعة جبلية خلناها أمينة اذ ترتفع مائة قدم عن المكان الذي اوقفنا فيه سيارتنا ؛ وقـد صعدنا اليها ولم نصلها الا وقد تقطعت انفاسنا،وفي ظل صخرة، بدت كأنها تحجبنا عن الشمس وأعين الناس ، فرشت للوليتــا فراشاً من الأزهار والأوراق الجافة الناعمة ، فتعرت كتمثـال فينوس وأخذت تجوب المـكان .. المكان الذي يبـدو امينـاً مضموناً .. ولكن مع ذلك كاد امرنا ينكشف وبشكل وضـع حداً نهائياً لتوقي الى مزاولة الغرام في الهواء الطلق .

والحكاية ان العملية كانت قد انتهت تماماً وكانت لوليتا ترتمي بين ذراعي متفجرة في عاصفة من البـكاء والنحيب اثر احـدى نوبات المزاج الحزين العكر التي بدأت تنتابها في خلال تلك السنة الرائعة التي لم يكن يعكرها سوى نوبات البكاء ..

فقد كنت قد قطعت لها وعداً سخيفاً حملتني على ان اقطعه في لحظة من الشبق الاعمى الجارف ، فاخـذت تنتحب وتشهق وتقرص يدي المنسابة على جسدها بينما اخذت اضحـك بسعادة معتبراً هذه الموجة من مزاج لوليتا مجرد شامة سوداء في جبـين سعادتي الوضاح . وبينما كنا مفـترشين الثرى جنبـاً الى جنب

فوجئت باحدى تلك المفاجآت التي انتهت بزحزحة قلبي التعيس من مكانه . فقد لاقت ابصاري عيونا سوداء ثابتة النظرات تطل من وجهي طفلتين جميلتين عرفت انهما توأمان من تشابه شعرهما الحالك المنسدل ومن خدودهما الشاحبة. كانتا تحملان باقات من الورود البرية وتحدقان بنا ، فسارعت الى اسدال الغطاء علينا بينما لمحت بين الأدغال شيئاً يتحرك تبين بعد برهة أنها أم الطفلتين التي كانت تقطف الورود وتحملها لهما ، ورأيت كيف ألقت علينا نظرة مسروقة من وراء ظهر طفلتيها الجميلتين .

بعد كثير من التجارب المختلفة التي اثقلت ضميري بت أعرف بانني رجل شجاع ، ولكنني ما كنت تلك الأيام عالماً بذلك؛ ولذا اذكر بانني قد دهشت من رباطة جأشي في ذلك الموقف الحرج .. ذلك انني جعلت لوليتا ، بأمر همست به بالشكل الذي يهمس به الانسان الى حيوانه الاليف الوديع في لحظات المصائب ، تنهض من رقدتها وجعلتها تسير بجانبي بكل وقار ونحن نخرج من ذلك المكان المفضوح لننحدر بغير وقار الى سيارتنا التي وقفت وراءها سيارة عائلية وجدنا حولها رجلاً ملتحياً عليه سمة العلماء وهو يأخذ صورة تذكارية للوحة تشير الى ان ارتفاع المكان هو ١٠ آلاف قدم . وادركنا انه لا بد ان يكون رب العائلة التي اقتحمت علينا عشنا الجبلي .. وبينما اخذت ادير محرك السيارة بانفاس مبهورة متقطعة جلست لوليتا وهي تكمل ارتداء ثيابها وطفقت تشتمني وتسبني بلغة لم احلم مطلقاً بان في وسع الفتيات الصغيرات ان يعرفنها .. وبالتالي لم

اكن اتصور بأنهن يستطعن استخدام مثل تلك اللغة قطعاً !.

ان هناك غير تلك الواقعة من الحوادث المزعجة التي صادفناها ومنها ما حل بنا في احدى دور السينما .

فقد كانت لوليتا تكنّ غراماً حقيقياً بالسينما . فكنا نذهب لمشاهدة الافلام دون تمييز ، واذكر اننا شاهدنا خلال ذلك العام ١٥٠ او ٢٠٠ فيلماً ، وكانت الافلام التي تفضلها تسير حسب الترتيب التالي : فئة الافلام الموسيقية الاستعراضية ، افلام المجرمين ثم فئة افلام الكوي بوي .

اما الفئة الاولى فمواضيعها محصورة في قصص عن حياة مغنيات وراقصات حقيقيات يصادفن حياة مهنية غير حقيقية في جو ممتع من الاحزان والمصائب وبشكل لا مكان فيه للموت او الحقيقة .. وينتهي الفلم عادة برؤية كهل وديع النظرات هو والد النجمة المسرحية الذي ظل متردداً في الموافقة على اشتغال ابنته (الملحوسة) بالمسرح. وهو يصفق لنجاح ابنته وهي تؤدي رقصاتها على مسرح فخم من مسارح بردواي .

امّا مواضيع افلام عالم الجريمة السفلي ، فكانت تعرض عالماً قائماً بذاته يعيش فيه صحفيون ابطال يلاقون التعذيب على ايدي رجال العصابات ، ويطارد فيه شرطيون لا يعرفون الخوف مجرمين عتاة في جو مثير عبر الاسطحة والازقة والمجاري.

اما مواضيع افلام رعاة البقر (الكوي بوي) فتدور دائماً في اطار ريفي ذي مناظر ساحرة .. وبشكل مفكك ساذج يتميز باشياء كلاسيكية :الفرسان الزرق العيون القبساة الوجوه..

معلمة المدرسة الشابة التي وصلت بعربة البريد الى مدينة الحدود الجديدة .. الخيل التي تصهل ، المطاردة العنيفة .. اشهار المسدسات بخفة وبسرعة البرق .. الملاكمة الوحشية التي تبهر النفوس .. المعارك في الحانات والطرقات الخ .. والرفسات التي تصيب البطون .. والبطل الذي يتلقى من الضربات ما يكفي لادخال هرقل في المستشفى ومع ذلك نراه وما من ضير قد مسه او مس حتى هندامه ..

وفي صدد السينما اذكر أننا كنا في سينما خانقة الجو مزدحمة بالاطفال وبالانفاس الحارة التي تمازجها رائحة البوبكورن (الذرة الصفراء المشوية) .. وكانت الشاشة تعرض منظراً يمثل المغني في ضوء القمر وقد امسك قيثاره واسند قدمه الى جذع شجرة وانطلق في اغنية عاطفية وعندما طوقت ببراءة كتف لوليتا وقربت خدي من خدها اخذ اثنان من الارزال يجلسان وراءنا يهمهان بكلام غريب ربما لم افهمه تماماً ولكنه جعلني اسحب ذراعي الحانية وانكفيء الى مقعدي وقد غامت انظاري .. وبالطبع لم استطع في تلك الحالة ان اتبين بعد ذلك مايجري على الشاشة ..

وهزة اخرى شرخت فؤادي اذكرها تتصل بضاحية كنا نجتازها ليلاً .. فقد كنت قبيل ان نصل اليها قد ذكرت للوليتا بان المدرسة النهارية التي سأدخلها اليها في «بيردسلي» هي مدرسة ثانوية ، ولكن التعليم فيها غير مختلط كما انه ليس فيها تلك الوسائل والانظمة الحديثة السخيفة... واذ سمعت لوليتا ذلك

عرضتني لحملة خشنة من الحملات التي درجت على ان تعرضني اليها مشفوعة بالتشهير والسب والشتم والاهانة والكلام المبطن وبما ينم عن روح سوقية شريرة ويأس ساذج ..

راحت لوليتا تندفع في السباب والشتيمة .. صائحة في وجهي :

– سأكون بلهاء اذا اخذت رأيك على محمل الجد .. ايها القذر .. انك لا تستطيع ان تتحكم في.. انني اكرهك .. الخ.. ولكنني مضيت اقود السيارة بسرعة عبر شوارع المدينة النائمةعندما اوقفنا شرطيان سلطا مصباحيهماعلى داخل السيارة.. وتطلع الشرطيان اليها بفضول ودي فتغير وجهها المتجهم واكتسى ابتسامة ساحرة ، وردت عليهما بنظرات حلوة حانية وبشكل لم تستجب بمثله قبلاً الى مغازلاتي وضوع رجولتي .. ولا عجب في ذلك فقد كانت لوليتا من القانون اكثر خوفاً مني ، وتجاه هذه النظرات الرقيقة عفا الشرطيان عن تجاوزي الحد الاقصى للسرعة وتركاني استأنف السير .. وتطلعت الى لوليتا فوجدتها قد اسدلت اهدابهاوهي تتظاهر بانها منهكة القوى متعبة الاطراف .

عند هذا الحد أشعر بانه يجب ان ادلي باعتراف غريب : قد تضحكون مني ولكنني في الواقعلم اعرف بالضبطالوضع القانوني لعلاقتي مع لوليتا ولست اعرف حتى اليوم وإن كنت قد اطلعت على شذرات تتعلق بالموضوع ، فمثلاً يحظر قانون ولاية آلاباما على الوصي تغيير مسكن الموصى عليه دون اذن من

المحكمة .. كما ان قانون ولاية مينيسونا ينص على عدم تدخل القضاء في حالة قاصرة يأخذها في عهدته قريب لها .. انني ارفع قبعتي تحية لهذه الولاية فبموجب قانونها لا ضير في ان اكون وصياً اعايش لوليتا ..

ان الكتب القانونية عن الزواج والطلاق وتبني الأطفال وانتهاك الأعراض التي راجعتها في عدد من المكتبات العامة ، لم تفدني بشيء اكثر من ان الدولة هي المرجع الاعلى في حضانة القصر والوصاية عليهم .

وان بعض هذه الكتب لا يأتي اطلاقاً على ذكر الأمهات المتوفيات اللواتي يتركن لازواجهن بنات من أب آخر ..

وقد ذكر لي احد اصدقائي وهو يعمل في حقل الخدمات الاجتماعية في شيكاغو بانه ليس هناك من مبدأ قانون يحتم ان يكون لكل قاصر وصي وان موقف المحكمة سلبي في هذا الشأن فالقضاء لا يتدخل الا عندما تصبح حالة القاصرة خطيرة .

وخلصت من الجاني القانونية الى معرفة أن الوصي يعين عندما يعرب عن رغبته الجديدة الرزينة في ان يأخذ القاصر في عهدته في معروض يقدمه الى المحكمة .. ولكن قد تمر اشهر قبل ان تعين المحكمة موعداً لجلسة النظر في طلبه .. وبانتظار ذلك تترك الطفلة القاصرة – فنياً – لشأنها تدبر امرها بامرها !.

واذ تعقد الجلسة فان القاضي يلقي بعض الاسئلة فيرد عليه محامي الوصي باجوبة مطمئنة .. وبعد ابتسامات مشفوعة بهزات من الرأس تعلن المحكمة موافقتها على الطلب .

كان هذا الاجراء سهلاً ولكنني مع ذلك ما تجرأت على ان اقدم عليه .. كنت كالفأر المذعور .. هذا بالاضافة الى ان الاجراءات تطول حينما يكون للقاصر ارث ، وهكذا وجدت ان من الأفضل ان امتنع عن تقديم اي طلب متسائلاً طيلة الوقت عما اذا كنت لن اصادف قريباً فضولياً يتدخل قضائياً لاجل لوليتا او جمعية انسانية تقحم نفسها في الامر ..

اما جارنا وصديقنا المحامي «فارلو» الذي كان عليه ان يقدم لي النصح السديد ، فقد كان من الأنشغال بالسرطان الذى بدء يصيب زوجته بحيث لم يستطع ان يفعل اكثر من قطع وعد بان يفعل ما طلبته اليه من الاهتمام بأرث شارلوت الضئيل الى ان اصحو من صدمة وفاتها .. ولقد استطعت ان احمله على الأعتقاد بأن لوليتا هي في الواقع ابنتي (غير الشرعية) ولذلك فليس له ان يزعج نفسه بوضعها القانوني .

انني كما يجب ان يكون القراء قد عرفوا ، رجل اعمال فاشل ولكن ما كان لجهلي او لتهاوني ان يمنعني من نشدان النصيحة القانونية المضبوطة .

ان ما منعني عن ذلك كان في الواقع شعوراً مقبضاً اوحى الي بانني اذا ما تدخلت في مشاريع القدر وحاولت ان افلسف عطاءاته وهديته الرائعة الماثلة في شخص لوليتا فان القدر سينتزع هديته مني ..

لقد قررت ان ادخل لوليتا مدرسة البنات الثانوية في «بيردسلي» ، حيث سأعكف على مراجعة بعض المراجع القانونية

حول الوصاية على القصر ، وقررت كذلك ان اي شيء من العلم في تلك المدرسة سيكون افضل للوليتا من البطالة المضرة التي تحيا فيها . وكان بوسعي ان اقنعها بكثير من الاشياء ولكنني كنت دائماً اخفق مهما حاججت وغضبت وصحت في ان احملها على قراءة اي كتاب خلاف كتب الجرائم المصورة والمجلات النسائية والسينمائية .. فقد كانت ترفض قراءة اية رواية تثقيفية بحجة انها لا تريد ان تفسد بهجة عطلتها بقراءات ثقيلة الظل ..

والواقع انني ارتكبت خطيئة فاحشة اذ قررت ان نتجه شرقاً وان ادخلها المدرسة في بريدسلي بدلا من ان نمضي متجولين في منطقة الحدود لنعبرها الى المكسيك حيث كان باستطاعتنا ان نعتزل الحياة في جو من النعيم ، وفي بقعة جميلة معزولة الى ان استطيع الزواج بكل اطمئنان من معذبتي الصغيرة ، ذلك لانه يجب ان اعترف بانني بالاعتماد على غددي وافرازاتي كنت خليقاً بان انتقل في يوم واحد من مرحلة جنون الى اخرى .. جنون يتأتى من تفكيري بأن علي في حوالي عام ١٩٥٠ ان اتخلص من مراهقة صعبة المراس تبخر منها طابعها كحورية مسعورة.. وجنون يتأتى من التفكير باني بمساعدة من اصطباري وحظي الطيب قد استطيع ان املأ أحشاءها بجنين سيتحول الى حورية مسعورة فتكون لوليتا الثانية في الثامنة او التاسعة من عمرها عندما نصل الى عام ١٩٦٠ حيث سأظل قادراً ان امثل معها دور الجد الذي يحتضنها بوصايته.. الجد الذي هو انسان لا يزال ازرق الناب اخضر القلب ..

اجـــل كانت هـــذه الفكرة تثير جنوني .. وكنت ارى الاحتمال واضحاً في احلام يقظتي وبمنظار لاعقلاني يسلطه ذهني على المستقبل .

على انني اشك في انني لم اكن خلال رحلتنا المحمومة تلك ابا للوليتا يدعو الى السخرية ..

بيد انني بذلت من اجل ان ابدو ابا ناجحاً خير جهـــدي فقرأت وأعدت قراءة كتاب «اعرف بنتك» الذي اشتريته من ذات المكتبة التي اشتريت منها للوليتا نسخة من كتاب «حورية البحر» لاندرسن بمناسبة عيد ميلادها الثالث عشر .

ولكن حتى في احسن ساعات علاقاتنا عندما كنـــا نجلس لنطالع في يوم مطير كانت لوليتا تبدو ضجرة تنقل ابصارها الملولة بين النافذة وبين ساعة معصمها او تنزل الى مطعم الفندق لتناول وجبة ضخمة او تلعب بالورق.. فاذا سمح الوقت تركتني وذهبت تتسوق .

في كل تلك المناسبات بدوت لنفسي ابا يـــدعو الى النفور مثلما كانت لوليتا تبدو ابنة مستهجنة بحيث كنت اتساءل اذا لم تكن عقدة الشعور بالذنب هي المسؤولة عن فشلنا في تمثيل دور الاب والبنت ، كما كنت اتساءل اذا كان الحـــال سيتحسن اذا استقرينا في منزل واستقرت لوليتا على نوع رتيب من الحيـــاة المدرسية ؟

ان اختياري لمدينة «بيردسلي» لم يكن يستهدي فقط حقيقة ان المدينة ذات مدرسة خاصة بالاناث ولكن كان يستهدي كذلك

حقيقة انها ذات كلية للبنات فيها استاذ للغة الفرنسية كنت اعرفه وكنت ارجو من وراء معرفتي له ان اوفر لنفسي طابعاً شخصياً يسترني عن طريق اقناعه باستخدام مؤلفي عن اللغة الفرنسية ويدعوني احياناً لالقاء محاضرات في الكلية .

ولم اكن بالفعل احب ان افعل ذلك فلقد عرف القراء اني اكره الفتيات اللواتي يتجاوزن سن المراهقة اذ يبدين في نظري كانصاف العجول .. وأرى فيهن توابيت حية وئدت فيها مراهقات .. مراهقاتي اللواتي اهيم غراماً بهن .. إلا انني كنت اتحرق الى طابع يسترني ويضفي علي الحماية من الفضول ..

واخيراً كانت الناحية المالية تدفعني الى ذلك فقد اخذ رصيدي ينضب . ذلك انه على الرغم من حرصي على النزول في ارخص الفنادق فان برنامجنا كان يحفل بين الفينة والاخرى بالحلول في فندق ممتاز فخم او في مضافة ريفية تزعم انها للطبقات الراقية . وكان هذا يخل بميزانيتي بالاضافة الى ما كنت انفقه على الجولات وعلى شراء الملابس للوليتا وتصليح السيارة من حين الى آخر .

لقد تركت لي سلطان السجن الخريطة التي كنت استعين بها على تنقلاتنا ووجدت عليها ملاحظات منها اننا انفقنا من آب (اغسطس) ١٩٤٧ الى آب ١٩٤٨ على المأوى والمأكل ٥٥٠٠ دولار وعلى البنزين واصلاح السيارة ١٢٣٤ دولاراً وكل ذلك في ١٥٠ يوماً من السفر الفعلي و ٢٠٠ يوم من الراحة والاستجمام في الفنادق .. بل كلفني الامر عشرة الاف دولار

لانني نسيت تسجيل الكثير من النثريات .

ويجب ان اشير هنا الى اننا كلما مضينا في رحلتنا شرقاً كان ارضاء شهوتي يزيدني استعاراً بدلاً من ان يهدىء من امري بينما كانت لوليتا تزداد تألقاً بالصحة والنضارة ؛ وبينما ظلت تحتفظ بمظهرها الصبياني على الرغم من انها ازدادت طولا بوصتين وزادت وزناً اربعة كيلوغرامات ..

لقد زرنا كل مكان الا اننا عملياً لم نر شيئاً .. وانني لاضبط نفسي اليوم وانا افكر في انه لم يكن لرحلتنا الطويلة سوى خط جنسي طويل انسابت عليه ، وفي ان محاريب الطبيعة ومرافق الريف الجميلة لم تكن بالنسبة الينـا سوى خطوط على الخرائط وكلمات في دليل السياحة .. وسوى ذلك النحيب الذي كانت تصدره لوليتا ليلاً .. أجل كانت تنتحب ليلياً .. كل ليلة في اللحظة التي أتظاهر فيها بالنوم .

– ٤ –

عندما وصلنا الى نهاية ١٤ شارع تاير استقبلنـا شاب وقور بالمفاتيح وبمذكرة من صديقي غاستون معلم اللغـة الفرنسية في كلية بيردسلي الذي استأجر المنزل من اجلنا .

ومن دون ان تتنازل بالقاء نظرة على بيتنا الجديد اندفعت لوليتا تدير الراديو الذي قادتها غريزتهـا اليه واستلقت على الاريكة المجاورة وتناولت حزمة من المجلات القديمة بحركة آلية من طاولة قريبة .

والواقع انه لم يكن يهمني اين نسكن ما دمت استطيع ان احبس حبيبتي في مكان ما ولكنني اعتقد بانني في خلال مراسلتي مع غاستون قد تصورت ان البيت الذي سيستأجره لنا سيكون ذا سقف قرميدي احمر ومظهر براق .. امـــا البيت الذي استأجره فعلا فقد كان يحمـل نفس طابع بيت شارلوت هيز القديم .. الطابع المضجر القاتم بل حتى اثاث الغرف كان مرتباً بطريقة تشابه ترتيب اثاث بيت ام لوليتا وان كان هذا الاثاث احدث واجمل .

وتبين لي ان غرفة مكتبي في البيت هي صالون طويل يمتاز برفوف طويـلة من الكتب الكيمائية . . فقد كان صاحب المسكن استاذاً للفيزياء والكيماء في الكلية وقد غاب في اجازة طويلة فأجرني غاستون بيته .

لقـــد رجوت ان توفر مدرسة الاناث في بريدسلي بعض الثقافة لعقول الطالبات مثلما توفر لهن نمواً طيبـاً لاجسامهن بفضل ملاعبها الفسيحة وطعامها الغني بالفيتامينات .

اما غاستون الذي قلمـا كان مصيباً في الحـكم على المناقب الامريكية فقد حذرني من ان الكلية قد تتكشف عن كلية من الـكليات التي تعلم طالباتها :

« وليس ضرورياً ان تتهجي جيداً انما من الضروري ان تتضوعي جيداً » .. ومع ان غاستون كان مصيباً هذه المرة فانني لا اظن بان تلك الـكلية قد حققت حتى الهدف الأخير .

اذكر ان مديرة الكلية السيدة برات قـــد عبّرت للوهلة

الاولى عن حبها لعيني ابنتي لوليتـا الزرقاويين الوديعتين .. كما اعربت عن اعجـابها بذلك « الفرنسي العبقري » غاستون .. وما لبثت ان سلمت لوليتا الى المعلمة الآنسة كورموران ورفعت حاجبيها كما لو كانت تحصر فكرها ومضت تحاضرني قائلة :

« اننا غير مهتمين كثيراً بان نجعل طالباتنـا من مدمنات القراءة .. ولا يهمنا كثيراً ان يستظهرن اسماء عواصم اوروبية لا يعرفها احد على اية حال ، كما لا يهمنا ان يستظهرن اسمـاء وتواريخ معارك منسية ، انما نهتم كثيراً بتهيئة البنت لحيـاة الجماعة ولهذا فنحن نشدد في برامجنا على تعليمهن قواعد مـا نسميه الدالات (جمع دال) الأربـع الا وهي :

المسرح التمثيلي والمراقصة والمناقشة والمواعدة .

اننا نواجه في برامجنا حقائق الحياة الواقعية فمثلاً ستدخل ابنتك الظريفة قريباً في مرحلة من عمرها تعني فيـا المواعيد والمواعدة والملابس التي ترتديها في مواعيدها الخ .. نفس مـا تعنيه الصلات التجارية والنجاح التجاري لرجل اعمـال مثلك ونفس ما تعنيه لي شخصياً (قالت هذا وهي تبتسم) سعـادة طالباتي ..

ان ابنتك لوليتا تعيش في نظام من الحياة الاجتماعيـة يقوم شئنا ام لم نشأ على محلات بيـع الساندويتش وعلى مقاهي البوظة ودور السينما والمراقص ونزهات البلاج .. والحفلات الراقصة !

وبالطبع فاننـا في كلية بيردسلي لا نقر بعض وجوه هذا النشاط ونعمل على توجيه اوجه النشاط الاخرى وجهات بناءة

الا اننـا لا نحاول ان ندير ظهورنا لقرص الشمس الساطع ولا نحاول التعامي عن الحقائق .. وبالاختصار فاننـا بينما نطبق بعض الفنون التعليمية فاننا نهتم فوق كل شيء بالصلات الاجتماعية .

وهكذا فمع الاحترام الواجب لشكسبير وغيره نريد لبناتنا ان يتصلن بحرية مع العـالم الحي حولهن بدلاً من الانغماس في كتب صفراء قديمة ولعلنا لا زلنا في ذلك نتعثر ونحن نتحسس طريقنا ولكننا نفعل ذلك كما يتحسس الطبيب الورم ..

اننا يا حضرة السيد نفكر بمعايير التنظيم والوظائف العضوية النظامية وقد تخلينـا في ذلك عن اكوام من المواضيع الزائدة عن اللزوم والتي تحشى بها عادة دراسات البنات وعقولهم بحيث لا يبقى لديهن مكان لتعلم قواعد الحياة وفنونها وتعلم الآراء التي تساعدهن في ادارة حياتهن الزوجية وفي ادارة حياة ازواجهن وتوجيههـا كما قد يضيف الساخرون ولنعرض يا سيد همبرت الوضع كما يلي :

انه من الهام أن تعرف البنت الثقافة الرفيعة ولكنه يظل من الأهمية بالنسبة لربة المنزل ان تعرف احسن بقعة عملية لوضع البراد في مطبخها .

انك تقول ان كل مـا تتوقع من البنت ان تكسبه من المدرسة هو ثقافة صحيحة ولكن ماذا تعني بكلمة ثقافة ؟

لقد كانت الثقافة في الايام الخـالية تعني طاقة خارقة على الاستظهار فكنت تستطيع ان تعلم البنت ان تستظهر دائرة

معارف ضخمة وتستطيع ان تحشو مداركها بحيث تعرف اكثر مما تستطيع المدرسة تقديمه لها من تعليم .

ولكن هل تستطيع ان تدرك يا دكتور همبرت ان تواريخ وقائع القرون الوسطى هي بالنسبة لطفلة في عشية المراهقة اقل اهمية وقيمة من مواعيدها مع رفاقها يوم العطلة ؟

اننا لا نعيش فقط في عالم من الافكار بل نعيش كذلك في عالم من الاشياء والكلمات التي تخلو من التجارب وتكون عديمة المعنى .. فبحق السماء ماذا يهم لوليتا همبرت من اليونان ومن بلاد الشرق بقصور حريمها وارقائها ؟..

كانت هذه هي خلاصة محاضرة المديرة عن برنامج مدرستها وهو برنامج افزعني في الواقع فلم اطمئن الى أمر ثقافة لوليتا الا بعد حديث مع سيدتين لهما صلة بالمدرسة أكدتا لي بان البنات يقرأن الكثير من الكتب السليمة المفيدة وان قصة « وصل البنات بالحياة وصلاً عملياً » ليست سوى دعاية صاخبة فارغة ترمي الى تبرير زيادة الاقساط المدرسية والى اعطاء هذه المدرسة القديمة الطراز طابعاً حياً حديثاً .

وثمة سبب آخر جذبني الى هذه المدرسة قد يبدو مضحكاً بالنسبة لبعض القراء ولكنه كان سبباً هاماً في نظري فهكذا انا .

امـا السبب فيكمن في انني لاحظت ان إمام بيتنا فرجة تطل على ارض عراء معشوشبة ذات خمائل ملونة ، ويمكن للمرء ان يرى منها جانباً من المدرسة ! ! فبالاضافة الى الراحة

النفسانية التي توفرها تلك الفرجة اد تصلني بصرياً بلوليتـا في نهاراتها المدرسية فانني احسست سلفاً باللذة التي سأعانيهـا اذ سأستطيـع ان اميز من غرفة نومي بواسطة منظـــاري القوي العدسات النسبة العددية للحوريات المسعورات بالشبق من بين البنـات اللواتي يلعبن مع لوليتا اثنـــاء الفرصة بين الدرس والدرس .

ولكن سوء الحظ شاء ان يأتي العمال في اول يوم دخلت فيه لوليتا المدرسة وان ينصبوا حاجزاً حول الفرجة حيث باشروا فوراً حفر الاسس ثم اخذوا يشيدون بناء ضخماً ما لبث بعد قليل ان ارتفع واخفى المدرسة وراءه حاجباً مجالي البديـع .

- ٥ -

في شارع يدعى شارع ثاير في منطقة البيوت ذات الحدائق الخضراء من تلك المدينة الجامعية لا بد للساكن الجديد من ان يتعرض لأطلالات من الجيران الممتازين .. وقد حرصت على ان اضبط علاقـــاتي معهم بشكل يبعدني عنهم . ولكن دون ان اتخاشن في تصرفاتي حيالهم .

فكان جاري من ناحية الغرب يوجه لي الكلام احياناً حول مواضيـع الساعة الحاضرة وهو يغسل سيارته او يشذب الخمائل في حديقته فلم اكن ارد عليه سوى بهمهمة مهذبة لا يتبين منها اذا كنت أوافقه الرأي او اخـالفه فيه . وكانت تسكن في

البيت المقابل استاذتان للغة الانكليزية همـا المس ليستر الممتلئة القامة القصيرة الشعر ، والمس فابيـان ذات الانوثة الذاوية .. ولم تكن العانستان تتحدثان معي الا حديثـاً مقتضباً اذ تمران بحديقتي .. وكان الحديث دائماً يتناول(بارك الله فيهما) حلاوة ابنتي .. لوليتا ولطف غاستون الساحر ..

اما جارتي من الناحية الشرقيـة فكانت اشد الجيران خطراً .. انها امرأة ذات انف معكوف كأنف الصقر وطبيعة فضولية .. وانني لاذكر كيف رأيتها تكنس لوليتا بانظارهـا وانا وراء نافذة غرفة الاستقبال انتظر محموماً عودة حبيبتي من مدرستها . ورأيت كيف حاولت العـانس البشعة ان تخفي فضولها الجارح وراء ستار كاذب من الحنان والطيبة اذ وقفت متكئة على مظلتها (فقد كان المطر قد توقف عن الهطول لتوه) بينما كانت لوليتا قادمة مفتوحة الياقة تحدياً للطقس تحمل كومة من الكتب اسندتها الى بطنها بينما كان الهواء القارس قد جعل الاحمرار القرمزي ينتشر في الجزء المكشوف من ساقيها .

اعترضتها الجارة الشرقية بابتسامة مخاتلة اشرقت على وجهها ذي الانف المعكوف وسألتها بصوت حاولت ان تجعله رقيقاً:

ـ وأين امك يا عزيزتي ؟ وماذا يعمل والدك ؟ واين كنتما قبلاً ؟ والى غير ذلك من الاسئلة .

وذات مرة اعترضتني هذه الجارة الكريهة بابتسامة مرحبة ولكنني تهربت منها. وبعد ايام جاءتني رسالة منها تقطر حلاوة وسماً في آن واحد فقد اقترحت فيهـا ان تزورها لوليتا يوم

الاحد لتتفقد « الكتب الجميلة التي اورثتها لها امها بدلاً من ان تفتح الراديو على مداه طيلة النهار وحتى ساعة متأخرة من الليل ».

ثم كان علي ان اكون شديد الحذر من المسز هوليفان الغسالة والطباخة التي ورثتها مع المكنسة الكهربائية من الساكن السابق. ولما كانت لوليتا تتناول طعامها في المدرسة ، فلم يكن هناك ما يخشى منه من فضول الطباخة اذ كنت اعد لها العشاء الذي تطبخه المسز هوليفان قبل ان تنصرف .

لقد كانت الطباخة ذات غشاوة في النظر فلم تكن تلحظ التفاصيل لحسن الحظ ، وكنت اصبحت خبيراً في ترتيب الفراش فلم اترك لها فرصة للشك في ان هذا الفراش هو مسرح لنشاط غير ابوي .. ومع ذلك فقد كان يلازمني الخوف من ان تكون ملاءة السرير قد تلطخت ببقعة مريبة لم استطع مسحها او ان ينزلق لسان لوليتا ببساطة اثناء حديث مع المسز هوليفان في المناسبات النادرة التي تكون فيها لوليتا في البيت مع الطباخة .

غالباً ما كنت اشعر بانني اعيش في بيت مضيء من زجاج وان وجهاً فضولياً سيطل عبر نافذة اهملت تغطيتها بالستائر ، كيما يحظى بنظرة حرة يكشف فيها شيئاً مثيراً من الاشياء التي يكون المتلصص ، من اجل التلذذ بالتلصص عليها ، مستعداً لدفع ثروة صغيرة .

- ٦ -

يجب ان اخص غاستون غودان بكلمة ..

ان السبب الرئيسي في تمتعي برفقته واحتمالي صحبته بارتياح، هو ذلك الشعور بالاطمئنان المطلق الى ان شخصه يلقي ظلاً يحجب سري ..

وعلى كل فان لم يكن يعرف ذلك السر ، فلم يكن لدي من سبب خاص يدفعني الى ان أأتمنه عليه ، وكان من الخيلاء، بحيث لم يكن بوسعه ان يلحظ شيئاً او يشك في شيء من شأنه ان يؤدي الى صدور سؤال صريح منه يتطلب جواباً صريحاً مني بشأن علاقتي مع لوليتا .

لقد كان غاستون يمتدحني لدى الناس ، وكان بذلك داعيتي الطيب ، ولو انه اكتشف خفايا ميولي ووضع لوليتا في كيان حياتي ، لما كان قد اهتم بالأمر الا من حيث ايضاحه لبساطة موقفي حياله .. هذا الموقف المنزه عن التأدب والرسميات المصطنعة .. ذلك انه كان يعلم انني اعرف عنه اكثر مما يعلم سكان بيردسلي ، وانني افهمه اكثر من فهمهم اياه .

كان رجلاً عازباً مثقفاً غريب الاطوار ساحر السجايا، وكان دائماً يرتدي الثياب السوداء القاتمة ونادراً ما كان يستحم ، وكان الجزء الادنى من جسمه يتميز بتضخم لا يتناسب مع نحافة الجزء العلوي ، ومع ذلك فقد كان الجميع على الرغم من غرابة اطواره يعتبرونه شخصية ساحرة خليقة بان تحب .. وهكذا كان الجيران

كلهم يدللونه، وكان يعرف جميع أطفال الحي ويناديهم باسمائهم، وكانوا يتطوعون لتنظيف حديقته وحمل الحطب اليه من الغاب المجاور مقابل ما يوزعه عليهم من حلوى وشوكولاته .

وكان بيته يحتوي على ستوديو فسيح زين جدرانه بصور كبيرة لأندريه جيد وتبشايكوفسكي وجان كوكتو ونورمان دوغلاس .. ومارسيل بروست .. فأعطى لنفسه مظهراً ثقافياً دولياً عميقاً .. واعطى لبيته جواً مريحاً .

إلا انني لاسباب بديهية كنت افضل ان الاعبه الشطرنج في بيتي مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع ..

وكنت في بعض الاحيان اسمع ونحن مستغرقان في اللعب وقع قدمي لوليتا العاريتين على البلاط وهي تقوم بتمارينها الراقصة في غرفة الجلوس ، ولكن غاستون لم يكن يلحظ شيئاً فقد كان اللعب يستغرق كل حواسه ، فلا يحس بوقع خطوات لوليتا وهي تفتل وتدور وترفع ساقاً وتخفض أخرى وتنثني وتتمايل بعريها وسط الأثاث البارد غير المتجاوب .

وفي بعض الأحيان كانت لوليتا تطل علينا ونحن منحنيان على لوحة الشطرنج وتتأمل غاستون وهو مستغرق النظرات في قطع الشطرنج ، بينما يمد لها يداً باردة لمصافحتها دون انتباه اليها واذكر انه ذات مرة قال لي بين نقلتين من نقلات الشطرنج:

— وكيف حال بناتك ؟..

ولا بد انه في استغراقه قد ظن لوليتا اكثر من واحده ، ذلك انها كانت تطل كل مرة بزي جديد.. مرة مرتدية السراويل

الرجالية .. ومرة التنورة الرياضية .. ومرة المايوه ومرة ثوب الكوكتيل .

انني اكره ان اطيل الكلام في هـذا المخلوق التعيس الذي سافر الى اوربا بعد عام ولم يعد منها فقد تورط في مشكلة قذرة في نابولي .. كشفته في اوربا ، بينما لم يستطع احد ما ان يكشف شذوذه في بريدسلي على الرغم من انه كان مجرداً من اية موهبة وعلى الرغم من انه كان استاذاً رديئاً ومن انه كان يحتقر طريقة الحياة الامريكية ويفخر بحبه للغة الانكليزية .. فـكان يعيش عيشة ملكية يدلله الكبار ويتمتع بالصغار .. ويخدع كل الناس .. اما انا الأفضل والأكثر ثقافة والاذكى .. فقد كشفت واتهمت ..

- ٧ -

انني الآن اواجه مهمة مقرفة .. هي مهمة تسجيل هبوط في مستوى اخلاق لوليتا .. ذلك انه اذا كان نصيبها في المتع الدافئة والرغبات الحارة التي كانت تتوقد فيها لم يرْق ابداً الى كمية كبرى فان الصافي من كسبها المـــادي الحرام لم يكن كذلك شيئاً مذكوراً .

الا انني كنت ضعيفاً معها ولم اكن حكيماً فاستعبدتني هذه التلميذة المراهقة . فقد ازدادت صبوتي اليها وازداد عذابي بتضاءل وانكماش العنصر الانساني في علاقتنا واستثمرت لوليتا صبوتي وعذابي أسوأ استثمار .

كانت الخرجية الاسبوعيـــة التي تأخذها مني بشرط ان

تؤدي واجباتها الاساسية معي تبلغ ٢١ سنتاً في بدء اقامتنا في بيردسلي ، ثم ما لبثت ان وصلت الى دولار وخمسة سنتات قبل انتهاء اقامتنا .. وكان هذا ترتيباً اكرم مما يجب نظراً لما كانت تتلقاه باستمرار من مختلف انواع الهدايا مني ، بالاضافة الى النزهات ودور السينما والحلوى .. ولكنني بالطبع كنت اطلب اليها احياناً قبلة اضافية أو « مجموعة كاملة » من المداعبات ..

الا انها لم تكن اطلاقاً سهلة المراس .. فلم تكن تبذل ادنى جهد لتستحق خرجيتها اليومية احياناً بل كانت تتكشف عن مساومة قاسية ، حينما ترى ضعفي وتهالكي على ان أنال منها ما لا استطيع ان اصبر بدونه في جو حياتنا المتوتر المحاط بالمخاوف.. فكانت تتعنت في شروطها من اجل ان تمنحني ما لم اكن استطيع ان اناله منها قسراً .

ولقد استطاعت في احدى المرات اذ أدركت قوة سحر فمها الرطيب ان ترفع ثمن المعانقة الى ثلاثة بل الى اربعة دولارات..

لا تضحك ايها القاريء العزيز وانت تتصورني في حالة محمومة من الشبق وانا اخرج من جيبي قطع النقود المعدنية واكومها في يد لوليتا لأشتري رضاها ..

وكنت دائماً احاول بعد ان اقضي وطري ان استرجع بالقوة ما تمسكه في راحتها من قطع النقود.. كما كنت افتش بين كتبها ودفاترها وفي مخابئها المألوفة عما تكون قد خبأته من قطع نقدية فاستعيدها ، واذكر ذات يوم انني اكتشفت ٢٤ دولاراً مخبأة في ثقب تحجبه احدى صور الصالون ، ولما اكتشفت لوليتا الأمر

في اليوم التالي اتهمت امامي الطباخة الامينة المسز هوليفان بانها لصة قذرة .

على ان لوليتا سرعان ما ارتفعت الى مستوى غرائز دهائها الفطري فوجدت مخبئاً أفضل لم استطع ان اكتشفه ، ولكنني كنت قد خفضت اسعار عطاياها الدافئة تخفيضاً جذرياً بواسطة تصعبي معها تصعباً شديداً قبل اعطائها اذناً كتابياً بالاشتراك في برنامج المدرسة المسرحي .. ولم اكن اذ خفضت خرجيتها اخاف أن تفلسني بما تستجره مني من مال ، انما كنت اخشى ان تقتصد وتجمع مبلغاً من المال يكفيها للهرب مني .

بل انني لا اعتقد بان تلك الطفلة ذات النظرات الثاقبة قد تصورت بأنها تستطيع اذا اقتصدت خمسين دولاراً ان تصل بواسطتها الى هوليود او برودواي .. لتحاول تحقيق حلم يجول في صدر كل مراهقة .. حلم الظهور في السينما او التمثيل على المسرح.. فان لم يكن فان المجال مفتوح لتعمل في بار أو ملهى، حيث الحياة تبدو سهلة ممتعة مليئة بالرجال الرسميين والسيارات الفارهة والنزهات القمرية ..

- ٨ -

حضرات القضاة :

لقد بذلت خير جهدي لمعالجة مشكلة الأطفال المراهقين ولمعالجة مشكلة علاقات لوليتا مع اولئك الشباب، بل حتى انني اخذت اقرأ العمود المخصص للمراهقين في جريدة (بيردسلي ستار)

لاستهدي منها كيف يجب ان أتصرّف . واذكر ممـــا قرأت المقال التالي :

« كلمة الى الأباء: لا ترهبوا صديق ابنتكم وتحملوه على تجنبها.. قد يكون من العسير عليكم ان تدركوا ان الأولاد يجدونها الآن جذابة .. فبينما لا تزال بالنسبة اليكم مجرد طفلة صغـــيرة يراها الاولاد لطيفة ساحرة مرحة وممتعـة ولذا فهم يهوونها ويغزونهـــا .

ايها الأب انك الآن تحتل وظيفة كبيرة في شركة ما، ولكن تذكر أنك لم تكن بالأمس سوى الطالب الجامعي جيم.. يتطوع لحمل كتب زميلته جين ..

أتذكر ذلك ؟ ثم ألا تريد ان تكون ابنتك (وقد جاء دورها الان) سعيدة بما تلقـاه من اعجاب رفاقها الشبان الذين تودهم ؟.

ولماذا لا تعامل ابنتك الشابة كضيفة في بيتك ؟.

ولماذا لا تسليها بالاحاديث ؟ ولماذا لا تخرجها من تحفظهـا معك وتجعلها تشعر بارتياح معك ..

... إذا خالفت ابنتك القواعد وشذت عن الآداب فـلا تنفجر فيها امام شريكها في الجريمة بل دعها تنال رذاذ غضبك في خلوة وعلى انفراد .. وعليك ان تكفّ عن جعل أصحابها الشبان يشعرون انها ابنة غول عجوز ..

هذا بعض ما كنت اقرأه من نصائح.. ولكن الغول العجوز الذي هو انا، قد وضع قائمة بما هو ممنوع قطعاً على لوليتـــا وبما

مسموح لها مع شيء من التردد .

أما رأس قائمة الممنوعات فكان : المواعيد مع الشبان ، سواء كانت لوحدها أو مع رفيقة لها وسواء كان الموعد مع شاب واحد او شابين او ثلاثة في آن واحد.. فمثل هذه المواعيد تبدأ بنزهة خلوية او حفلة بيتية كخطوة اولى ، وتنتهي الى تهتك جماعي.. ولكنني اسمح لها بالذهاب مع رفيقاتها البنات الى دكان الحلوى ، حيث يخضن حديثاً مغناجاً مع من يكون فيه من شبان صغار ، بينما كنت اراقبهن في سيارتي من مسافة مأمونة.

لقد وعدتها بان انظر في مسألة السماح لها وهي بعد طفلة في الرابعة عشرة من عمرها أن ترتدي ثوب الرقص الرسمي (نوع من الثياب يجعل المراهقات الصغيرات يبدون كطيور البجع) هذا اذا دعيت ورفيقاتها من مجموعة مقبولة اجتماعياً من الشبان طلاب جامعة بطلر لحضور حفلتهم السنوية الراقصة (هذا بشرط ان تذهب معهن المدرسات المشرفات عليهن بالطبع) ووعدتها كذلك بالسماح لها باقامة حفلة راقصة في بيتنا تدعو اليها رفيقاتها الظريفات والشبان الاكثر ظرفاً الذين تكون قد تعرفت عليهم في حفلة جامعة بطلر .

ولكنني كنت مصراً طالما ظل النظام الذي وضعته لحياتنا قائماً على ألا اسمح لها اطلاقاً بان تذهب مع أي شاب الى حفلة ملامسات في السينما او نزهة معانقات في السيارة ، او الى حفلات راقصة تقام في بيوت زميلات دراستها ، أو ان تدرج على التحادث هاتفياً مع الشبان الا في مدى مسامعي .

لقد اغضبت هذه القواعد لوليتا وأثارت ثائرتها علي ودعتني بالمحتال القذر واسوأ ذلك من النعوت ، وقد كنت خليقاً بان افقد سيطرتي على أعصابي حيال شتائمها ، لولا انني اكتشفت بأنها لم تكن غاضبة فعلاً لحرماني اياها من اشياء معينة ، انما لحرماني اياها من حق عام .

وهكذ كنت متمسكاً بالبرنامج التقليدي لما هو مألوف من التصرفات وما هو مسموح به ، حسب العرف القديم ، فبهذا البرنامج تكون البنت اكثر تحفظاً من أي مخلوق ، مهما كانت مسعورة بالشبق .

أرجوكم ألا تخطئوا فهمي ، فأنا لا استطيع أن اجزم بأنها لم تستطع في خلال الشتاء ، ان تتصل اتصالات غير سليمة وغير نظيفة مع شبان لا أعرفهم ، فلا بد مهما كانت رقابتي من وجود ثغرات تنفذ منها الى اساءة استخدام وقتها .. ولكنني استطيع ان اقسم بأنها لم تفعل شيئاً يدعو الى ذعر جدي .

أجل لقد كنت اشعر بأنها لم تخفي خيانة جدية ، وما كان شعوري لأنني لم اجد من يستأهل مزاحمتي من الشبان الذين يحومون حولها ، والذين يتراوحون من صنف المغرمين بمداعبة الايدي والمعانقات في البوابات الى صنف الداعرين الواثقين بأنفسهم محترفي اغتصاب الفتيات في سياراتهم الرياضية الانيقة ، بل لانني وجدت أن هؤلاء الشبان يبعثون الضجر في عشيقتي الصغيرة المحذلقة .

وعلى العموم فقد بدت لي أحسن تكيفاً مع وسطها ، مما

كنت أرجوه ، عندما كنت افكر بكيفية افسادها وأنا بعد نزيل بيتها البريء ، ثم زوج امها الطموح .

ومع انني لم استطع الاعتياد على حالة القلق الدائمة في حياتي العظيمة الاثم ، فانني كنت أشعر بأنني أبذل خير جهدي لمحاكاة وضع الأب وتمثيل دوره ، وكنت كل يوم أثر موجة من القنوط تعقب رحيل لوليتا الى المدرسة بعد « وصلة التعبد الصباحية » كنت استلقي كل يوم على فراشها البارد واستعرض أحداث اليوم الفائت وأتفقد صورتي ودوري فيها ، كما كان وليس كما كنت أرجو .. لقد كنت أتصرف معها تصرف الأب الطبيعي فآخذها لنزهات بريئة وللسينما وأحياناً للمطاعم والمكتبات .. واحادثها كما يحادث الأب ابنة ملزم بمرافقتها .

- ٩ -

وجدتُ رفيقاتها اللواتي طالما تقت الى التعرف عليهن ، وجدتهن مخيبات للظن .. رأيت « اوبال » فتاة خجولة عديمة الشكل ترتدي نظارة طبية ، ورأيت وعرفت ليندااهول بطلة التنس في الكلية وشككت في كونها حورية مسعورة عن حق وحقيق ، ولكنها لأسباب مجهولة لم تأت الى بيتنا، وربما منعت من ذلك ولذا فلست أذكر منها سوى صورة غائمة لا تكشف شيئاً كخيط من شعاع الشمس تسلل الى غرفة معتمة . وكانت بقية رفيقات لوليتا من العاديات باستثناء ايفا روزون التي كان بوسعها ان ترتقي الى مصاف الحوريات المسعورات بالشبق ..

فقد كانت لاجئة من فرنسا ، وكانت من جهة اخرى مثالاً صالحاً للفتاة ذات الجمال غير الصارخ ، ولكنها كانت تتكشف أمام العين الخبيرة عن أنهـا تمتلك العناصر الأساسية لسحر المراهقات المسعورات ، وذلك بوجهها الصبياني وعينيها الناعستين ووجنتيها البارزتين ، وكان لشعرها النحاسي نعومة شعر لوليتا ، ولكن ملامحها كانت أقل خبثاً من مثيلاتها .

وكنت أحادثها بالفرنسية فأثير استياء لوليتا وكان سلوكها لم يزل نظيفاً يدعو للاعجاب ، ولكنها تأثرت بعـالم المدرسة ، فكانت تفلت منها كلمات سوقية امريكية بلهجـة قبضايات بروكلين مما كان يبدو طريفاً في فتـاة فرنسية تتعلم في مدرسة أمريكية مختارة محافظة ..

ولسوء الحظ اسقطت لوليتا لأسباب مجهولة الفتاة الفرنسية من قائمة صديقاتها (على الرغم من أن عمها مليونير !) قبل ان يتاح لي التمتع بوجودها وبترددها على حديقة بيتنا .

ولعل القارىء يعرف أية اهمية أعلقها على أن تحيط بلوليتا حوريات مسعورات ، يمكن اعتبارهن بمثابة احتياطي لهـا .. او بمثابة جوائز ترضية !!

ولقد حاولت لفترة ما ان أشغل مشاعري برفيقتهـا مونا داهل ، التي كانت تكثر التردد على بيتنا ، وخاصة في فصل الربيع ؛ عندما اشتد حماسها للتمثيل ، ولطالما تساءلت عن الأسرار التي باحت بها لوليتا الغشاشة الماكرة الى مونا مقابـل إباحتهـا لي بثمن باهظ تفصيلات لا تصدق عن علاقة غرامية

كانت لمونا داهل مع بحار في ركن منعزل من الشاطىء ..

فلقد كان من خصال لوليتا أن تأخذ كاتمة أسرار لهــا مثل مونا داهل الانيقة المتحفظة المظهر ، الشهوانية المخبر المتمرسة في الحيـــاة كأنثى ، البذيئة المزاج التي سمعتها تقول مرة للوليتا ملاحظة بان تنورتهــا هي من الأصواف العذراء (الاصواف العذراء تعبير امريكي يقصــد منه القماش المنسوج من الصوف الخالص) وأن ليس لها من صفات العذارى سوى تلك التنورة!

كانت ذات صوت مبحوح مثير وشعر اسود مجدول وعينين بلون العنبر الداكن وشفتين شهوانيتين..وكانت يداها ترتجفان.. ولقد استطعت ان أحصل منها على معلومات عن بعض ما خفي عني من حياة لوليتا في المدرسة .

ففي ذات يوم جاءت لتتمرن مع لوليتـــا على جزء من مسرحية (ترويض النمرة) لشكسبير .. وكانت لوليتا غائبة فجلست اجاذبها أطراف الحديث .. وبشكل غير مبــاشر سألتها عن موقف لوليتا من الشبان فأجابتني وهي تتطلع الي بنظرات امرأة تعرف كيف تغوي الرجال :

« الحقيقة ان لوليتا لا تهتم كثيراً بالشبان الصغار . والواقع اننا غريمتــان ، فكلانا مغرمة بالقسيس ويغرر .. » ضحكت كثيراً فقد كان الامر نكتة مضحكة لأنه كان رجلاً بشعاً ذا فك يشبه فك الحصان ، وكان يبعث على الضجر القاتل بحديثه الدائم عن ذكرياته في سويسرا ..

وتنهدت مونا داهل تنهدة حادة قائلة : أوه انها ُسكـّرة .. حلوة ..

قالت هذا وتنهدت من جديـد والتقطت كتاباً من رف المكتبة وسألتني بجد مزيف عن رأيي في مؤلفـه وهي تقرب كرسيها من مقعدي بحيث استطعت ان أميز رائحة جسدها غير المثيرة من رائحة العطر الذي كانت تتضمخ به .. وإذا اخذت نفسي تراودني خطر لي خاطر مفاجىء : أتكون لوليتـا قد دبرت لي مكيدة معها ..

إذا كانت قد فعلت فإنهـا لا تكون قد هيأت لي البديلة الصالحة المقبولة ..

وإذ جاءتني هذه الفكرة اخـذت اتجنب نظرات مونا التي كانت تتركز على وجهي وبدأت احدثها في مواضيـع ادبية ولم تلبث لوليتا ان أطلت علينا وكنستنا بنظراتها الباردة الاتهامية فانسحبت وتركتهما لشأنهما .

— ١٠ —

في بعض الأحيان ، عندما تكون لوليتا مستغرقة في تحضير وظائفها المدرسية نصف عارية تمص رأس قلمها وقد رفعت ساقيها وأراحتهما على ذراعي المقعـد العريض ، كنت اتخلى عن كل وقاري العلمي وأتناسى كل خصاماتنـــا وأنسى كل كبريائي كرجل ، وازحف على ركبتي الى مقعدها ، فتتطلع الي بنظرة تحمل علامة استفهام غاضبة قائلة :

– اوه .. يكفي .. !

كانت تقول ذلك لأنها لم تتنازل مرة وتؤمن بأن في وسعي دون أن أرسم لذلك خطة ؛ ان أتوق الى ان أدفن وجهي بين طيات تنورتها وأن أتشوق الى ان أحتضن ذراعيها الناعمتين الرقيقتين بل أطرافها الأربعة ، وأن آخذ رأسها بين يدي وأشد على جلدتي خدها وأقبل عينيها ..

ولكنها كانت تمضي قائلة بضجر في هذه الحالات :

– أرجوك ان تتركني لوحدي .. بحق المسيح اتركني .

فأنهض من أرض الغرفة ووجهها يقلد باستهزاء معالم العصبية والتوتر في وجهي .. ولكنني أتغاضى عن ذلك وأعرف انني وحش خشن ..

ولكن لأضرب صفحاً عن مثل هذه اللمحات ولأمضي في رواية قصتي .

– ١١ –

في مطلع كانون الأول (ديسمبر) دعتني مس برات مديرة المدرسة لمحادثتي بشأن لوليتا التي كنت أعلم ان علاماتها المدرسية الاخيرة كانت منخفضة ، وبدلاً من ان اطمئن نفسي بان سبب الدعوة يرجع الى مثل هذا الأمر فانني تصورت مختلف أنواع الاسباب المرعبة واضطررت لأن اقوي نفسي ببعض المشروب قبل أن اذهب لملاقاة المديرة ، وغصة الرعب في حلقي وقلبي .

كانت المديرة امرأة عملاقة ذات أنف عريض مفلطح وعينين صغيرتين وراء نظارتين مذهبتي الاطار ، وقد استقبلتني مشيرة بأن أجلس على مقعد متواضع ، بينما كانت « تقعي » على كرسي فخم دوّار وللحظة ظلت تحدق بي بابتسامة فضولية ؛ كما فعلت في اجتماعنا الأول (حسبما تذكرت بعد المقابلة لانني أثناءهـــا أسأت تعبير الابتسامة ولم أذكر شيئاً عن مقابلتنا الأولى) .

ولما ردت بصرها عني انكفأت الى تفكير بدا مزيفاً وخيل الي انها تعاني حرجاً في بدء الحديث عن أمر مذهل ، اذ كانت تمسح بيديها طيات تنورتها .. وأخيراً قالت دون ان تتطلع الى وجهي :

ـ دعني أسألك سؤالاً فظاً يا مستر هيز .. إنك أب أوروبي من الطراز القديم أليس كذلك ؟

ـ كلا .. لست من الطراز القديم ، ولكنني قـــد أكون محافظاً ..

وتنهدت وتأوهت ثم ضمت يديها الى بعضهما بعضاً كأنمـا تدعوني الى المباشرة بالتحدث في صميم الموضوع وثبتت عينيهـا الزرقاوين الحادتي النظرات على وجهي وقالت :

ـ ان دوللي (تعني لوليتا) هيز طفلة بديعة ، ولكن يبدو ان بلوغها مرحلة النضج الجنسي يسبب لها بعض الضيق ..

أحنيت رأسي .. فماذا استطيع أن افعل غير ذلك .

وتابعت المس براس حديثها وهي تلوح بيديها المفطتين ببقع تدل على اضطرابات كبدها :

ـ ان لوليتا لا تزال كالمكوك تتأرجح بين منطقتي نمو الشرج والأعضاء التناسلية ..

ـ العفو .. لم افهم . أي منطقتين .

ـ ان الأوروبي القديم الطراز هو الذي يتكلم فيك .. كل ما أعنيه هو أن الحوافز البيولوجية والبسيكولوجية غير متمازجة وغير متصلة في لوليتا اتصالاً تام الدائرة .. إنهـــا فتاة جذابة وذكية ، رغم انها مهملة .. ولذا فإن علاماتها تتدنى باستمرار وانني لأتساءل يا مستر هيز ..

وقطعت كلامها متظاهرة بالتفكير ثم استطردت :

ـ دعني اقدم لك بعض التفصيلات .. انها تشاكس المعلمـة ريدكوك وتتصرف بخشونة شديدة حيال المعلمة كورمارانت .

إن عندي تقريراً من المعلمة المشرفة على صفها يفيد بأنها تتمتع بالغناء الجماعي مع رفيقات صفها ، رغم انها تبدو شاردة الذهن أثناء الغناء .

وتضع ساقاً على ســاق وتهز ساقهــا اليسرى مع النغم .. وتستخدم عبارات سوقية .. وفي الاسبوع الاخير أخذت تتأوه كثيراً في الصف وتمضغ العلكة بشراهــة ؟ ولكنها لم تدرج على عادة قضم اظافرها بأصابعها ولو فعلت لكانت أحسن انسجاماً مع طابعها العام .. وذلك يعني علمياً أنها تمر في حالة الحيض .. ثم انها لا تنتمي الى أية شيعة كنسية في الوقت الحاضر .. وعلى فكرة هل كانت امها برو ... وقطعت حديثها قائلة : بالطبـع هذا ليس من اختصاص أحد فهو من اختصاص الله وحده ..

ولنعد يا مستر هيز الى موضوعها إن التقرير يذكـــر اشياء اضافية : إنها تبدو حالمة بعض الشيء.. وهي تحب المزاح وتتقن تدبير المقالب..ويمكن أن تتفوق على بطلة التنس لولا شرودها.. الا إن المعلمة المشرفة على صفها لا تستطيـع أن تقرر إذا كانت لوليتا ذات سيطرة استثنائية على انفعالاتها أم لا .. ذلك ان المعلمة تقول أن لوليتا لا تستطيع ان تترجم مشاعرها وانفعالاتها بالأفعال ..

ولكن الأهم من ذلك هو ان الاعتقاد العام يفيد بأن لوليتا رغم بلوغها الخامسة عشرة عديمة الاهتمام بالقضايا الجنسية.. بل انها تكبت فضولها من اجل أن تخفي جهلها بالمسائل الجنسية .

ولما صححت لها سن لوليتا بقولي إنها في الرابعة عشرة قالت: لتكن في الرابعة عشرة .. فهذا لا يغير شيئاً من الوضع ، إننا لا نؤمن هنا بالتوريات وبأساليب افهام المراهقات بالتورية القضايا الجنسية الأساسية ، فنحن نؤمن بوجاهة إعداد تلميذاتنـا لحياة الأمومة الناجحة والتزاوج .

وفي رأينا أن لوليتا تستطيع أن تحرز تقدماً ممتـازاً إذا صرفت ذهنها الى الدراسة .. فلوليتا ذات نزعة الى أن تكون قليلة التبصر ومغفلة !. ولكننا نشعر بأن عليك اولاً أن تترك لطبيب العائلة أن يلقن لوليتا حقائق الحياة ، وثانياً ان تسمح لها بالتمتع بصحبة أشقاء زميلاتها في نادي الشبـاب وفي بيوت آباء بناتنا .

ـ يمكنها أن تستقبل الشباب في بيتنا الجميل ..

ـ أرجو ان تفعل ذلك ، فعندما استجوبناها عن متاعبها رفضت ان تبحث وضعها البيتي .. ولكننا سألنا عنه من بعض صديقاتها .. إننا نرى ألا تعــارض في السماح لها بالاشتراك في تمثيلية (مطاردة السحرة) فقد مثلت بإتقان دور الحورية الصغيرة أثناء التجارب.. ويسرني أن ابلغك ان مؤلف التمثيلية سيزورنا في الربيــع ، وربما حضر بروفة التمثيلية في مسرحنا الجديد .. أعني أنه يجب عليك ان تتفهم ان الاشتراك في مثل هذا النشاط كان دائماً شطراً من مرح الشباب ولهو الشابات ..

– لقد كنت دائماً أباً متفهماً ..

– لا شك .. لا شك ، ولكن معلمة الصف ، وانا أجنح الى الاتفاق معها ، تقول ان لوليتا تعاني مركب الأفكار الجنسية التي لا تجد مفرجاً عنها ولذا فهي تعجز وتهزأ برفيقاتها لأنهن يوعدن الشبان مواعيد « بريئة » ..

دعنا اذن نفكر معاً يا مستر هيز ولنتساءل ماذا دهى هذه الطفلة ؟

– إنها تبدو طبيعية تماماً وسعيدة جداً في نظري .

قلت هذا وانا أشعر بأن ما تقـــدم من حديث كان مجرد مناورات قبل كشف الستار عن الفاجعة .. وخيل الي انهم يعرفون السر ..

واستطردت المس برات تقول :

إن ما يقلقني هو أن معلمات لوليتا ، وكذلك زميلاتها يجدنها عدائية مخالفة للاجماع .. غير مرتاحة إلى وضعها.. كأنها

حبيس ولذا فان الجميع يتساءلون لماذا تعارض معارضة شديدة في ان تنال لوليتا كل المتع المسموح بها لمن في سنها ..

– هل تعنين اللعبة الجنسية ..

قلت لها ذلك بقنوط .. كأنما اسقط الأمر بيدي فقالت وفمها ينفرج عن ابتسامة :

– انني بكل تأكيد ارحب بهذا الاصطلاح الحضاري. ولكنني لم اقصد ذلك تماماً.. ذلك ان الحفلات الراقصة والحفلات التمثيلية والاجتماعية اللاهبة وغير ذلك من اوجه النشاط، ليست فنياً «لعبات جنسية» عندما تجري تحت رعاية كلية بيردسلي وان كانت البنات يقابلن الشباب على انفراد إذا كان هذا ما تعترض عليه .

– حسناً .. ليكن ماتريدين ولتشترك لوليتا في التمثيلية ، ولكن على شرط ان تقوم البنات بتمثيل ادوار الذكور ..

– انني معجبة بطريقتك الفنية في النقاش ، ولعل فكرتك ستفرح المس غولد المهتمة بالتمثيلية ، ولكن دعنا نأتي الى بحث قضية خاصة فنحن في مشكلة .. انني مخلوقة صريحة للغاية ، ولكن التقاليد والأعراف هي التقاليد والأعراف .. انني اجد صعوبة في الحديث عن الأمر .. على كل انت تعرف ان مدرستنا تضم بنات أحسن العائلات ويهمنا المحافظة على علاقتنا مع تلك العائلات؛ ولكن لوليتا تجعل ظروفنا صعبة عندما تستخدم كلمات قد لا تعرفها لكونك اجنبياً .. هل تريدني ان انادي لوليتا لبحث الامر معها .. كلا لا تريد.. الحكاية ان لوليتا قد

كتبت كلمة فظيعة عامية ، قال لي عنها طبيب المدرسة انها كلمة مكسيكية سوقية للدلالة على جهاز البول .. لقد كتبتها لوليتا على بعض الكراسات الصحية التي وزعتها احدى المعلمات على التلميذات . ولقد رأينا ان نحجزها في المدرسة ساعة بعد الإنصراف عقوبة لها ، ولكنك اذا كنت تريد ..

– كلا لا اريد ان تدخل في انظمة المدرسة .. ولكنها متى عادت الى البيت سأعرف كيف أؤدبها واجعلها تقلع عن ذلك .

– اجل افعل ذلك (قالت هذا ونهضت عن كرسيها) وعسى ان نجتمع قريباً لنحيلها على الدكتور كاتلز ليقوم بتحليل نفسيتها إذا لم تتحسن أحوالها .

عندما سمعت هذه الكلمات تساءلت في سري :

– هل يجب ان أتزوج هذه العانس لأخنقها ؟

واستطردت العانس تقول :

– ربما كان طبيب العائلة يود ان يفحصها جسدياً .. فحصاً روتينياً .. انها الآن في الصف تقضي عقوبتها مع تلميذة اخرى فاذهب لتراها ..

دخلت الى الصف فوجدت لوليتا جالسة على رحلة مدرسية تقرأ كتابا في التمثيل وأمامها جلست فتاة اخرى عارية العنق ذات شعر بلاتيني بديع ، كانت مستغرقة كذلك في قراءتها لا تحس بالعالم الخارجي .. فجلست بجانب لوليتا . وفككت ازرار معطفي وأقنعت لوليتا بعد ان اعطيتها ٦٥ سنتاً بالإضافة الى الإذن بالاشتراك بالتمثيلية بأن تضع يدها المغبرة بالطباشير

الملوثة ببقع الحبر تحت المنضدة .

لقد كان ذلك حماقة وتهوراً مني .. ولكنني بعد العذاب الذي تعرضت إليه في مقابلتي للمديرةاضطررت الى استثمار وضع كنت اعرف انه لن يتكرر مرة اخرى .

- ١٢ -

في أسبوع عيد الميلاد اصيبت لوليتا بنزلة صدرية حادة طرحتها محمومة في الفراش .. وجاءت الطبيبة فنصحت بأن تلزم الفراش اكثر من اسبوع .. وفي بادىء الأمر ارتفعت حرارتها لدرجة صعب علي معها ان اقاوم إغراء المسرات غير المتوقعة..مسرات احتضان لوليتا وهي تتقلى بنار الحمى وتسعل وتتأوه بين ذراعي ..

فلما استعادت صحتها اقمت حفلة لها دعوت إليها بعض الشبان .. ولعلي سكرت بعض الشيء وأنا احضر معدات الحفلة، ولربما جعلت نفسي اضحوكة .. عندما جاءت زميلات لوليتا واشتركن في تزيين الغرفة واختيار الاسطوانات الراقصة .

والمفروض في هذه الحالات ان انسحب كأب تاركاً لبنتي مجال اللهو .. ولكنني لم استطع فكنت اطل بين الحين والآخر لأسباب تافهة .. رغم صعوبة ذلك .

وعلى كلٍ فان الحفلة لم تكن ناجحة .. فقد تغيبت احدى المدعوات الثلاث ، بينما جاء احد الشبان المدعويين الثلاثة برفيق

له فكانت هناك زيادة قدرها شابان ..

وبعد انصراف المدعويين اطلقت لوليتا صيحة ضجر وتهالكت على المقعد وقد مدت ساقيها وذراعيها دلالة على تعبها وضجرها واقسمت لي بأن مدعويها الشبان كانوا من اغلظ الشبان الذين رأتهم في حياتها ..

لقد سرني هذا الحكم منها على اولئك الشبان سروراً عظيماً فاشتريت لها مقابله مضرب تنس ..

— ١٣ —

عندما اطل الربيع كانت لوليتا قد اصبحت هائمة مجنونة بالتمثيل والمسرح .. انني اكره المسرح واعتبره شيئاً بدائياً متعفناً فاسداً .. ومن بقايا شعائر العصر الحجري والسخافة العمومية ، رغم عبقرية بعض كتاب التمثيليات ..

وكنت في تلك الفترة ، شديد الاستغراق في أعمالي الأدبية ، فلم اهتم بقراءة النص الكامل لـ « الصيادين المسحورين» المسرحية الهزلية التي كانت لوليتا تمثل فيها دور ابنة مزارع ، وأغلب الظن انها مزيج من اساطير تافهة .

وكان للوليتا طرق جذابة جداً لضم يديها الطويلتين ، ولخفق جفنيها ، وهي تبتهل إليّ الا أجيء لحضور تمرينات التمثيل .

وذات يوم من أيار رأيت « لو » في المساء توقف دراجتها وتشد راحتيها على شجرة صغيرة في أسفل حديقتنا ، فاضطربت

وتأثرت بالغ التأثر لحنان بسمتها حتى حسبت أن جميع آلامي تضمحل . لقد قالت: « أتذكر اسم ذلك الفندق .. انك تعرفه جيداً .. وفركت طرف انفها وصفرت بصخب .. الفندق الذي اغتصبتني فيه !. ألم يكن اسمه «الصيادين المسحورين؟» واستطردت حالمة : هذا اذن ما كان يعنيه ؟ . وصفعت بيدها جذع الشجرة اللامع ، وهي تطلق ضحكة ثاقبة ، ضحكة ربيعية ، ثم انطلقت نحو الشارع وقد وضعت يداً حالمة على فخذيها الملتفتين بثوب قطني مزهر .

- ١٤ -

بما ان المفروض ان الموسيقى مرتبطة بميولها المسرحية فقد سمحت للوليتا بأن تأخذ دروساً خاصة في البيانو مرتين في الاسبوع لدى معلمة عانس .

وذات مساء جمعة في نهاية (مايو) كنت ألاعب في غرفة الجلوس غاستون بالشطرنج عندما رن جرس الهاتف ولما تناولت السماعة سمعت صوت معلمة البيانو تسأل اذا كانت لوليتا ستأتي الى دروسها يوم الثلاثاء القادم لأنها تغيبت عن درسها يوم الثلاثاء الماضي كما تغيبت عن درسها هذا المساء ..

وكما يمكن للقاريء ان يتصور فقد طار لبي وتوزعت أفكاري وانا احاول الاحتفاظ برباطة جأشي امام غاستون الذي استطاع ان يغلبني هذه المرة وانصرف مرحاً مبتهجاً بينما سارعت افتش عن لوليتا فوجدتها جالسة الى مائدة المطبخ تأكل شطيرة وعيناها مثبتتان على المسرحية تحفظ دورها فيها ولما احست بوجودي رفعت عينيها بنظرات حانية سماوية ولم يهتز فيها عرق عندما

انبأتها باكتشافي أمر تغيبها انما اجابت بأنها تعترف بأنها كانت طفلة رديئة للغاية إلا انها لم تستطع ان تقاوم الاغراء ولذا فإنها امضت ساعات الدرسين الموسيقيين في التمرن على المسرحية في الحديقة العامة مع رفيقتها مونا داهل .

سارعت الى الهاتف وطلبت بيت مونا داهل فردت علي امها التي ظنتني رفيق مونا اذ صاحت بها :

– مونا . ان روي يطلبك على التلفون ..

ولم تنتظر مونا لتتحقق انما سارعت لتعاتب روي على شيء قاله أو فعله فقاطعتها وكشفت لها عن شخصيتي وسألتها عن صحة رواية لوليتا فاجابت بلهجة كانت من اكثر اللهجات تواضعاً وببحة جنسية مثيرة :

– أجل يا سيدي .. انني وحدي الملومة .. أجل لقد كان عملاً رديئاً .. وانني آسفة جداً .. الخ .. الخ .

عدت من التلفون الى غرفة الجلوس وانا اتنحنح متشجعاً .. كانت لوليتا متهالكة على كرسيها الهزاز وقد فردت جدائلها بشكل رائع وهي تقضم ظفراً من اظفارها وتتطلع إلي بنظرات هازئة من عينيها النائمتين العديمتي القلب ورفعت على ذراع المقعد ساقاً عارية كانت تهزها يمنة ويسرة .

في تلك اللحظة تبينت فجأة كم تغيرت لوليتا منذ ان قابلتها قبل عامين أول مرة .. وتساءلت هل حدث هذا التغيير في الأسبوعين الماضيين فقط ؟ لقد بدت على قسماتها صبغة من الحنان الأسطوري ..

ولكنني لم اتأثر بهذا الحنان فقد كانت تلك اللحظة تستقطب غضبي المشفوع بعضات الغيرة والقلق .. في تلك اللحظة تبخر ضباب شهوتي التي كان يلفها في نظري .. تبخر وزال ولم يترك شيئاً سوى ذلك الوضوح المخيف ..

اجل لقد تغيرت لوليتا .. ان هيئتها الآن هي هيئة تلميذة ثانوية مهملة الهندام وسوقية الذوق فهي تستخدم مستحضرات التجميل الرخيصة وتلطخ بها وجهها غير المتسول بأصابع معروقة قذرة دون الاهتمام بما يلامس بشرتها من معجونات ومسحوقات.

وتذكرت كم مرة كان تضرج بشرتها رقيقاً حبيباً في الأيام السابقة عندما كنت ادحرج رأسها مداعباً على ركبتي .. لقد حلت الآن حمرة مصطنعة غليظة مكان ذلك النضوج البريء في وجهها..

عندما رأت لوليتا الغضب في نظراتي سارعت فلملمت نفسها وأنزلت ساقها البضة البديعة واسدلت عليها طرف ثوبها..ولكنها ظلت تثبت نظراتها في وجهي بعينين محمرتين مليئتين بالتحدي بشكل أوحى لي ان لوليتا هذه اليتيمة المراهقة تستطيع ان تكشفني للسلطات دون ان تتعرض للعقاب .

كم كنت مجنوناً احمق ..ولكنني وان عرفت ذلك حتى في ساعة غضبي فانني لم استطع ان احول دون انطلاق اعصابي وانا أراها في هذا التحدي مملوءة الوجه بالأصباغ بل حتى ان حمرة شفتيها قد صبغت اسنانها بشكل ذكرني ليس بمونيك بل بعاهرة مراهقة في احد بيوت البغاء التي ارتدتها منذ اجيال .. كانت صغيرة ولكن شخصاً آخر التقطها قبل ان اقرر اذا كان صباها

الريان يبرر لي ان اخاطر بعقاربتها وبالتقاء داء وبيـل منهـا .. تماماً كانت الصورة متماثلة ..

وازحت صور ذكرياتي بينما قالت لي لوليتا هازئة :

– تكلم اذن .. هل كانت نتيجة التحقيق مرضية ؟

– أجل ولكنني لست أشك في أنكما قد دبرتما الأمر بل لست أشك في انك بحت لها بكل شيء بيني وبينك .

– هكذا ..

فسيطرت على أعصابي وتابعت كلامي :

– لوليتا .. يجب ان نضع في الحال حداً لهذه الأشياء .. انني مستعد لاخراجك من المدرسة ومن المدينة ولسجنك في مكان لا يعرفه الا الله. ولكن يجب وضع حد لهذه المخاطرات.. انني مستعد لأزهق روحك وإزالتها من الوجود في وقت يقـل عن الوقت الذي تتطلبه تعبئة ثيابك .. يجب ان تكفي عن هذه المخالفات والا لن يعرف أحد ما الذي سيحل بك .

– لن يعرف احد ما يمكن ان يحل بي .. هكذا ..

انتزعتُ من تحت قدميها المقعد الذي كانت تؤرجحـــه فصاحت :

– هيه .. على مهلك ..

فصحت فيها بدوري ؟

– قبل كل شيء اصعدي الى غرفتك .

وأمسكت بيدها اجذبها وأخذنا نتصايح .فقالت لي أشياء مريعة .. قالت لي أنها تكرهني وقالت انني حاولت عدة مرات

ان أغتصبها عندما كنت نزيل امها .. وقالت انها واثقة من انني قد قتلت امها وانها ستضاجع اول من يراودها وانني لن استطيع ان امنعها من ذلك .

فقلت لها ان تصعد الى غرفتها وان تريني كل مخابئها . وامسكتها من ذراعها النحيلة فحاولت ان تتملص حتى خشيت ان تتكسر عظامها .. وقلبي يذوب لوعة عليها .. بينما كانت تتطلع اليّ بنظرات لا تنسى، نظرات تنم عن غضب بارد والدموع الحارة تنحدر على وجنتيها .. وفي تلك اللحظة ظل جرس الهاتف يقرع بالحاح وربما منذ زمن فقد غطت ضجة شجارنا على رنينه .. لقد تدخل الهاتف في لحظة دراماتيكية ..

ويبدو انه مقدر لي دائماً ان اشاطر ممثلي السينما خدمات الهاتف القدرية .. كان الجيران يتلفنون محتجين على الضجة فاعتذرت لهم بان لوليتا ورفيقاتها الشابات لا يقدرن الكثير من الاعتبارات .. بسبب طيشهن . . وبينما كنت منشغلاً على الهاتف سمعت الباب ينصفق .. اين لو ؟ هل هربت ؟..

ومن النافذة رأيت شبحاً ينسل بسرعة عبر الخمائل في الحديقة .. ورأيت الشبح يمتطي الدراجة وينفلت الى الظلام ..

لقد حدث ذلك والسيارة في كاراج التصليح فكان علي ان الاحقها راكضاً .. على جناح الخشية من الفضيحة .

لست استطيع حتى الآن ورغم مرور ثلاث سنوات ان اتخيل منظر ذلك الشارع الموحش في تلك الليلة الربيعية دون ان ينتابني الذعر .. كان بعض الجيران يقفون عند البوابات فكنت اضطر

الى ان اقطع هرولتي حتى لا اثير شكوكهم..مضيت اركض .. انني أتصور نفسي مهرولاً زائغ العينين باحثاً عنهـــا . ها قد وجدتها ان شاباً يسندها في طريق جانبي على حاجز حديد وهو يقضم شفتيها تقبيلاً .. اوه الحمد لله .. انها ليست هي ..

واخيراً بعد ان ركضت نصف ميل وجدت دراجة لوليتا امام احد محلات بيع المرطبات..فاندفعت الى الباب واقتحمته الى الداخل .. اين لوليتا ! انها كانت تتلفن من الكابين الخـــاص ومـــا لبثت ان التفتت ولمحتني فاعادت السماعة وسارت نحوي تميس دلالاً قائلة :

– لقد حاولت ان اتصل بك في البيت . . لقـــد اتخذت قراراً عظيمـــاً .. ولكن يجب ان تشتري لي يا بابا قدحاً من المرطبات قبل ان اخبرك به ..

اشتريت لابنتي الحبيبة كل ما طلبت من حلوى ومرطبات.. واستمعت الى اطراء صاحب المحل لجمالها ونضارتها ..

وعدنا الى البيت ومطر الربيع يهطل مدراراً .. كانت تركب دراجتها وانا اسير بجانبها عندما قالت لي :

– اسمع..لقد قررت أمراً .. انني اريد ان اترك المدرسة.. واكره تلك التمثيلية التي اعطوني دوراً فيها .. اجل لن اعود اليها .. يجب ان نغادر البلد في الحـــال ونذهب في رحلة طويلة ولكننا سنذهب هذه المرة الى حيث أريد أنا .. أليس كذلك ؟

فهززت رأسي ايجابا بينما تابعت متسائلة :

– سيكون الاختيار من حقي ؟ ..

– أجل ..

افتر ثغرها .. واندفعت مرتمية على مقود دراجتها وانطلقت فرحة تسابق الريح .. ثم وقفت تنتظرني تحت شجرة البوابة فلما وصلت قالت لي بأعلى صوتها :

– سأفعل ما تريد .. ولتذهب التمثيلية إلى الجحيم .. هل تفهم ما اعنيه ؟

ما كدنا ندخل القاعة المضاءة حتى خلعت لوليتا كنزتها ونفضت شعرها المبتل ومدت الي ذراعين عاريتين ورفعت ساقاً قائلة :

– احملني الى فوق .. انني اشعر بميل الى الغرام الرومانطيكي ..

قد يهم علماء النفس ان يعرفوا انه كان بوسعي في تلك اللحظة ان أذرف سيلاً من الدموع ..

– ١٥ –

أخرجنا السيارة من المرآب بعد ان انتهى تصليح المختل من آلاتها وودعنا مدرسة بيردسلي بحجة ان ارتباطي بعقد مع إحدى شركات السينما في هوليوود أجبرني على الرحيل المفاجيء مع لوليتا ..

كنت ادغدغ فكرة اجتياز الحدود على مهل الى المكسيك فأنا اليوم أشجع مما كنت عليه قبل عام ، وهناك اقرر ما اصنع بمحظيتي الصغيرة التي بلغ طولها الآن ١٦ بوصة وبلغ وزنها

واحداً وأربعين كيلو غرامـاً ، وكانت « لو » قد رسمت خط رحلتنـا بحماسة مدهشة . ترى ، هل فقدت ، بفضل تأثـير المسرح ، مزاجها اللامبـالي الطفولي ، وأصبحت تظهر نافـذة الصبر باكتشاف عجائب الحياة والواقع ؟

وفي إحدى وقفاتنا أمام إشارة المرور، أتت سيارة أخرى وتوقفت الى جانبنـا ، ونظرت الينا امرأة شابـة ذات قوام ممشوق (اين تراني قد رأيتها ؟) فحيت « لو » ثم انفتلت نحوي باندفاع وقالت وهي تشدد على بعض الكلمات : « من المؤسف ان تنتزع دولي من دورها ـ وليتك سمعت التهـاني المذهولة من المؤلف بعد اجراء التجربة ... »

وهمست لوليتا بين اسنانها : « هذه هي الإشارة ، الخضراء ايها الابله ! »

ـ من هي التي طبخت هذه المسرحية ؟

ـ اوه .. انها امرأة طيبة مسنة « كلار كيلكشوز » على ما اظن .

ـ وهي التي قدمت لكِ التهاني ؟

ـ نعم يا عيني ! لقد وضعت قبلة على جبيني الطاهر ...

ثم ارسلت حبيبتي صرخة ضاحكة بطريقة مسرحية ..

وعند ذلك صارحتها بقولي :

ـ انك مخلوقة غريبة يا لوليتـا . يسعدني وبذات الوقت يدهشني انكِ تخليت عن المسرحية قبل اسبوع واحد من نهايتها الطبيعية ـ اوه احترسي يا حبيتي لوليتا منْ هذه الارتـكاسات !

ان ثمة تغييرات عديدة مفاجئة في مشاريعك .. ثم عليك ان تكوني اكثر لطفاً معي ، يا لوليتا . ويجب ان تحافظي على حميتك .. فها انت منطلقة معي في رحلة طويلة رائعة ...

- ١٦ -

عدنا من جديد الى الانتقال من نزل ريفي سياحي الى آخر.. ترحب بنا في كل نزل لافتات تحمل كلمات تبلور عقلية خاصة بالامريكيين :

اهلاً وسهلاً – لقد سجلنا عندنا رقم سيارتك (هذا تحذير للنزيل الذي ينوي الهرب دون ان يدفع) – مياه ساخنة استخدمها باسراف – نحتفظ لانفسنا بحق اخراج اي شخص غير مرغوب فيه وبدون انذار – اننا نعتبر نزلاءنا احسن وارقى الضيوف في العالم – الخ .. الخ ..

في تلك الاماكن المرعبة كنا ندفع عادة عشرة دولارات من اجل غرفة بسرير مزدوج تصطف على شبكة بابها اسراب الذباب التي تتحايل بشتى الوسائل للدخول الى الغرفة .. حيث لا تزال الوسادة تحتفظ عادة بشعرات او دبابيس من رأس نزيلة الليلة السالفة ..

ومع انه لم يكن خطر من تعرضي للسرقة فلقد احتفظت دوماً ضمن امتعتي بمسدس ورثته من ام لوليتا مع ارشادات

مطبوعة حول كيفية استعماله وحفظه.. وتقول تلك الارشادات انه مصنوع خصيصاً من اجل الاستعمال المنزلي ومن اجل السيارة ومن اجل ان يحمله الانسان ..

لقد تمرنت على التصويب بالمسدس واصبحت اصيب أي هدف متحرك ..

- ١٧ -

مضينا في رحلتنا نحو الغرب من الولايات المتحدة ولكن الجو لم يكن دائماً كما اشتهي فانا لا استطيع ان اقسم جازماً بانها استطاعت في مناسبة او مناسبتين اثناء الرحلة ان تتصل باشخاص مجهولين او ان تبوح لهم ببعض المعلومات عن علاقتنا ..

فذات مرة كنت املأ سيارتي بالزيت والبنزين عندما تركتني لوليتا لقضاء حاجة ولكنها تأخرت كثيراً واخذ تأخرها يثقل على ذهني .. ولم تكن تلك المرة الاولى والاخيرة التي اخذت اجيل فيها ابصاري يمنة ويسرة وبكثير من القلق والانزعاج فقد تكرر ذلك الأمر .. وكانت له ذيوله في ناحية تشيستنات كورت ..

كانت قد ارادت ان نمر في طريقنا اليها عبر مدينة كاسبيم لإنها تبعد ٣٠ ميلاً فقط عن مسقط رأسها .. فوافقها على ذلك ولكنها في صباح اليوم التالي بدت قلقة لا تستقر على حال ..

وغير راغبة في ان ترى ملاعب طفولتها يوم امضت شطراً من الوقت قبل خمس سنوات ..

كنت قد شعرت لاسباب بديهة بتخوف من هذه الزيارة الخاطفة على الرغم من اننا اتفقا الا نلفت الانظار الينا وان نبقى في السيارة والا نبحث عن الاصدقاء القدامى ..

لقد غيرت فكرها وارتحت لذلك كثيراً وقالت لي انها تريد ان تبقى في الفراش مع مجلاتها حتى الاصيل على الاقل لانها لا تشعر بانها على ما يرام .. وانهت لي اشتهاءها لبعض الفواكه فقررت الذهاب لشراء ما تشتهيه ..

وفي المدينة حلقت شعري وقضيت بعض احتياجاتي فلما عدت بعد ساعة ونصف الساعة وجدت الخدم ينظفون الممرات في ذلك الفندق الريفي الذي حللنا فيه والمؤلف من اكواخ منفصلة في الحديقة .. ورأيت قرب غرفتنا شاباً عتياً كان يحمل براداً نقالاً الى سيارة شحن فغاظتني منه الابتسامة التي حياني بها اذ مررت به ..

ودخلت الغرفة فوجدت لدهشتي لوليتا مرتدية ثيابها وقد جلست على حافة السرير وكان قميصها الضيق يبرز مواهب صدرها ومع انها لم تغتسل فقد كانت قد صبغت شفتيها بالحمرة وفرشت اسنانها الناصعة .. كانت جالسة ويداها في حجرها وهي ترسل نظرات حالمة متألقة ببريق شيطاني لم يكن يتعلق بي بحال من الاحوال .

القيت بكيس المآكل والفواكه جانباً وتطلعت الى قدميها

فوجدت نعليها متسختين بالوحل ولذلك قلت لها متهماً :

– لقد خرجت أثناء غيابي ..

– لقد استيقظت لتوي وأطللت من البوابة إذ خيـــل إلي انك قادم ..

رأت كيس الفواكه فاتجهت نحو الطاولة بينما كنت فريسة شكوكي الغامضة .. اتطلع الى الوحل العالق بنعليها دون ان انبس ببنت شفة .. متسائلاً هل خانت ثقتي في غيــابي .. وفي الحال تذكرت ابتسامة ذلك الحمال الشاب . فهرعت الى الباب افتش بنظراتي عنه ولكنه كان قد اختفى مع سيارتـــه .. وصاحت لوليتا بي من العتبة :

– ما خطبك ؟ الى اين تذهب ؟

لم ارد عليها انما دفعتها الى داخل الغرفة وأمسكت بهـــا ونضوت قميصها عنها ثم تنورتها..وعريتها تماماًوخلعت نعليها.. واخذت افتش بأبصاري عبر جسدها عن آثار خيانتهـا ولكن الأثر الذي كنت استقصيه كان من الرقة والشحوب بحيث لم يكن بالوسع تمييزه عملياً عن خيال رجل مجنون .

– ١٨ –

لاحظت ان هناك سيارة حمراء مكشوفة تتبعنا.. لاحظت ذلك بانفعال وخشية وغيرة .. فقد حسبت في باديء الأمر ان سائقها عشيق للوليتا فتبعنا ليستغلني في غيابي .. ثم مـا لبثت

المخاوف والاخيلة ان اجتاحتني وهزت اعماقي بالرعب .. فقد يكون مطاردناشرطياً يريد التحقيق في تصرفي مع هذه القاصرة .. شككت ذات مرة في انها أو أنها دست في شرابي مخدراً فقد أغفيت مثقل الرأس ثم ما لبثت أن أفقت ليلاً على طرقات تهز الباب فهرعت عارياً أفتحه ولوليتا نصف عاريةفي سريرها .. وفي الظلمة وجدت رجلاً يرتدي قناع وجه صيني أطلق في وجهي ضحكة ساخرة..كان ذلك ليلة عيد المساخر.. هذا صحيح .. ولكني شككت في أن له مقصداً غير مقصد مداعبتي .. إنني متأكسد من الأمر فما رأيته ليس حلماً أثاره المخدر ..

إنني لا أستطيع بذاكرتي الضعيفة ان أحدد اليوم الذي تأكدت فيه من أن السيارة الحمراء المكشوفة تطاردنا ولكنني أذكر المرة الأولى التي رأيت فيها وجه سائقها بوضوح ..

كنت أسوق سيارتي ذات أصيل والمطر يتهاطل بغزارة وكان الشبح الأحمر يبدو ورائي .. يطاردني بالحاح وبشكل لا مهرب منه كداء السرطان .. وفجأة توقفت عند محطة بنزين لاملأ خزان سيارتي وأشتري نظارة شمس فوجدت مطاردي يقف بسيارته عند قهوة قريبة ..ولما دخلت الى مخزن المحطة لشراء النظارة ألقيت نظرة إلى الخلف فلمحت منظراً رهيباً .. كان مطاردي بوجهه العريض وجسمه العتي وصلعته وشاربيه المفتولين وسرواله البني القاتم يستمع الى لوليتا وهي تطل بصدرها من نافذه السيارة وتكلمه بسرعة ويداها تشتركان في الحديث مع

لسانها .. كانت تبدو جدية للغـاية .. ولكن الذي أدهشني هو إنني أحسست من شكل حديثها ان الرجل مألوف لديها ..وانها معتادة على محادثته .. كانت هنـاك ألفة غريبة بينهما كما لو كانا يعرفان بعضهما بعضاً منذ أسابيع ..

ثم رأيته يحك ذقنه ويهز برأسه ويعود قافلاً الى سيارته فإذا هو رجل مربوع القامة في مثل عمري تقريبـاً ، وكان يـنزع في الشبه الى « غوستـاف تراب » وهو قريب سويسري من أقرباء أبي ولما عدت الى سيارتنا وجدت لوليتا تدرس خريطة الطرق فسألتها :

– ماذا سألك ذلك الرجل ..

– الرجل ؟ أوه ذلك الرجل .. لست أدري .. لقد سألني إذا كان عندي خريطة ..أظن أنه تاه طريقه ..

ولما مضينا قليلاً فاجأتها قائلاً :

– إسمعي يا لوليتا .. لست أعرف إذا كنت تكذبـين أم تصدقين ولا يهمني ذلك الآن ولكن ذلك الرجل ظل يلاحقنا طيلة هذا اليوم كما كانت سيارته في باحة الفندق أمس وأظن بانـه شرطي .. إنك تعرفين جيداً ماذا سيحدث وإلى أين ستذهبين إذا علمت السلطات بأمرنا..وهكذا فأنا أريد لمصلحتك ومصلحتي أن أعرف ماذا قال لك وماذا قلت له .

– لو كان شرطياً فإن أسوأ ما تفعل هو أن تريه اننا خائفان منه .. تجاهله يا أبي ..

– هل سألك الى اين سنذهب ؟
فأجابت ساخرة : اوه انه يعلم ذلك !
فقلت مستسلماً : على كل حال لقد شاهدت وجهه وهو يشبه ابن عم لي يدعى تراب
– ربما كان هو تراب .. اوه انظر الى عداد السيارة ان رقم ٩ فيها يتحول الى الصفر .. عندما كنت صغيرة كنت اظن ان الدواليب تتوقف عند رقم ٩ .
كانت هذه اول مرة تتكلم فيها عفويا عن طفولتها قبل ان تدخل في عهدتي .. لعلها غيرت الحديث بحيلة تعلمتها من تمرينها المسرحي في المدرسة ..
على اننا تابعنا ذلك اليوم طريقنا غير مطاردين .. ولكن مطاردنا عاد الى الظهور وراءنا في اليوم التالي .. عاد كنوبة مرض مزمن .. وكانت حركة المرور خفيفة ذلك اليوم على ذلك الطريق الجبلي وكان يتابعنا عن بعد ولكن ما من سيارة دخلت المنطقة الفاصلة ، فظللت ارى من مرآتي وجهه الجامد الذي يشبه وجه التمثال وبدت سيارته كمن تسير فقط لان خيطاً حريرياً خفياً يشدها الى سيارتنا ..وطيلة الوقت كنت اشعر بوهج خاص يأتيني من يميني من صوب لوليتا التي تضرجت وجنتاها والتمعت عيناها ببريق مرح ..
ومررنا بمدينة مزدحمة الطرق فلما خرجنا منها كان مزاحمنا قد اختفى عن الانظار .. وما لبثت لوليتا ان شخرت هازئة وقالت :

– لو كان ظنك فيه صحيحاً فان من الحمق ان تتهرب منه..

– انني افكر بأمره الآن من وجهة نظر أخرى ..

ورأت نظراتي المليئة بالمغازي فقالت :

– اوه انك منحط .. تحقق من الامر اذا استطعت .

امضينا بعد هذه المرحلة ليلة كئيبة في فندق حقير بارد بينما كانت العواصف تهزج في الخارج..وتبعث الخوف في نفس لوليتا التي كانت تخشى العواصف الكهربائية وترتعد منها .. وكنت اجد بعض السلوى والعزاء في خوفها هذا ..

– ١٩ –

مررنا ببريد مدينة ويس لنلتقط رسائلنا من شباك البريد فقد كنا قد عينا مكتب بريد ويس كعنوان لنا.. كانت هناك رسالتان واحدة تحتوي على علامات لوليتا المدسية وكانت الثانية في مغلف ذي مظهر خاص .. ففتحته واخذت اطالع محتوياته على اعتبار انني افعل شيئاً تتوقعه لوليتا .. واستغرقت في قراءة الرسالة مستنداً الى كشك بائع الصحف ..

كانت رسالة من زميلة لها في الدراسة تتحدث فيها عن نجاح المسرحية رغم غياب المؤلف وعن الدراسة.. وتقول عن نفسها..

« سنذهب الى نيويورك بعد غد وسيذهب اهلي الى اوربا ولا اعتقد بان هناك مناصاً لي من مرافقتهم .. وتختتم الرسالة باخبارها بانها قد لاتعود الى بيردسلي لان والدها يريدها ان تدخل المدرسة في باريس لمدة عام .

ولما انهيت قراءة الرسالة تطلعت أريد أن أستفسر من لوليتا عن صاحبتها .. ولكنني لم أجد أثراً للوليتا .. فبينما كنت أطالع الرسالة هزت لوليتا كتفيها واختفت .

ورأيت كناساً أحدب سألته عنها فقال : يبدو أنها رأت صديقاً فهرعت اليه .. وهكذا هرعت أنا بالاتجاه الذي أشار اليه .. وركضت ولكن لوليتا كانت قد اختفت ..

هل اختفت الى الابد ؟

لطالما تعجبت بعد هذه الحادثة بسنوات لماذا لم تختف الى الابد ذلك اليوم ؟ هل كان المانع أن ثوب استحمامها كان في سيارتي المقفلة ؟ هل كان عدم اختفائها شطراً من خطة عامة ؟

في تلك اللحظة لم أدرك شيئاً سوى أنها تركتني الى الابد .. وبدت لي الجبال الجرداء المحيطة بالمدينة كأنها تتموج وتقهق ضاحكة ساخرة في وجهي وبدت لي صخورها تتموج بصور لوليتا وبدت لي الصور تذوب وتنحل في وهج الصخور ..

أخذت أدور في كل مكان باحثاً عنها في كل مقهى ومطعم وصالون مرطبات .. ودكان .. بقيت قليلاً في سيارتي وسط الشارع ثم فتشت الحديقة العامة .. وفجأة قلت لنفسي إنك أبله يا همبرت إذ تشك فيها فهي خليقة بأن تعود في ظرف دقيقة ..

ولقد عادت فعلاً !

جاءت فجأة نحوي وأنا أوقف السيارة بمحاذاة الرصيف فأبعدت اليد التي وضعتها على كمي بابتسامة خجولة وفاجرة وصحت فيها :

– اصعدي إلى السيارة .

أطاعتني فصعدت بينما نزلت أزرع الرصيف جيئة وذهاباً متصارعاً مع أفكار عديمة الأسماء محاولاً أن أرسم طريقة لمعالجة مكرها .

ولم تلبث أن غادرت السيارة ووقفت من جديد الى جانبي فاتجهت مشاعر سمعي اليها وهي تهمهم لتخبرني بانها قابلت صديقة قديمة لها ..

– نعم ؟ من هي ..

– بنت من بيردسلي .

– من هي ؟ .. إنني أعرف جميع أسماء زميلاتك ..

– لم تكن معي في المدرسة .. إنها من بلدة بيردسلي ..

– حسناً عندي دليل المدينة .. ما إسمها ؟ ماري أمجين ؟

– إنني أعرف اسمها الأول فقط .. إنه دوللي ..

– إذن هذا هو المبرر النهائي .. ولكن دعينا نبحث الامر من جهة اخرى .. لقد بقيت غائبة ٢٨ دقيقة ، فماذا فعلت أنت ودوللي في خلالها ؟

– ذهبنا الى دكان الحلويات ..

– وماذا شربتما ..

– كولا فقط

– حذار يا لوليتا .. إنني أستطيع التحقق من ذلك

– هي شربت الكولا .. شربت انا قدحاً من الماء ..

– حسناً .. هل كنتما في ذلك المكان ..

– بالطبع ..
– حسناً فلنذهب اليه ونشرب شيئاً
– انتظر لحظة .. اظنه ابعد من هذا المكان ..
– لا بأس تعالي .. سنمر على جميع المحلات الى ان نكتشف ذلك المكان .
– اذهب الى الجحيم ..
– اسمعي يا لوليتا ، لن تفيدك الخشونة
– حسناً ، ولكنك لن تستطيع ان توقعني في الفخ.. حسناً اننا لم نشرب شيئاً .. كنا نتحدث فقط ونحن نتفرج على الثياب المعروضة في الواجهات
– واجهة أي مخزن مثلا ؟
– ذلك المخزن .. هناك مثلا
– هيا نتفرج عليه من قرب .. ولكن لماذا المداورة . يجب ان اخبرك انني سجلت رقم سيارة صديقنا الذي كان يطاردنا.. ها هو لقد قيدته في دفتر التلفون .

فتحت الدفتر ويا لي من حمار ، لم احفظ الرقم ولم تبق في ذاكرتي منه سوى اعداده الاخيرة ونتيجة لذلك التزمت الصمت واغلقت الدفتر ومضيت بسيارتي خارجاً من مدينة ويس وعلى بعد اربعة اميال من المدينة توقفت عند فسحة مكسوة بالعشب الذي بلله الندى فتطلعت الي لوليتا مبتسمة نصف مدهوشة ودون ان ألفظ بكلمة وجهت اليها صفعة عنيفة تركت كدمة سوداء على وجنتها

وتابعت الطريق .. وهي تجهش وتبكي وانا احس بوخزات التعذيب الباطني العذب .. وعندما وصلنا في المساء الى مدينة (ميرانا) بدأت اغمرها بحبي محاولا مصالحتها فقبلت حتى اظافر قدمها الطويلة الصفراء . . مرغت وجهي على قدميها .. ولكن دون فائدة، فقد كانت الاقدار قد حكمت بانتهاء امرنا، وقضت بان ادخل بعد قليل دوامة جديدة من العذاب والاضطهاد

فاتني ان اذكر انني لمحت بما لا يقبل الخطأ ، وانا اعبر احد شوارع مدينة ويس تلك السيارة الحمراء المكشوفة، ولكن كانت تنقل اربعة من الشباب الصاخبين بدلا من صاحبها تراب

لقد صادفت حالة جديدة كل الجدة بعد مدينة ويس فلقد تمتعت ليومين باطمئنان نفسي الى أننا غير مطاردين والى أننا لم نكن أبداً متبوعين ولكنني ما لبثت ان شعرت بان تراب قد غير خطته وانه لايزال يتبعنا ولكن في سيارة مأجورة اخرى..

انه حرباء ذلك الرجل الذي كان يغير من حين لآخر السيارة التي يطاردنا بها.. مما جعلني احس بارتياع من كل سيارة تسير وراءنا.. كما ان ضرورة ان اكون حذراً من ذلك الرجل ذي الشارب المصقول والصلعة الحمراء قد قادتني الى تفحص كل سيارة على الطريق .. امامي وبجانبي وورائي ..

وعندما كنا في الطريق الجبلي ما بين سفو وتشامبيون حظيت بلمحة واضحة رأيت فيها تراب في سيارة زرقاء .. فأخذت اسوق سيارتي متجاوباً مع حركات قلبي ونبضاته القارعة المشوشة ، وهكذا اخذت السيارة تميل يمنة ويسرة .. فقالت لوليتا بمرح :

– يا حضرة .. انفخت أحد دواليبك ..

ولما توقفت فجأة اختل توازن لوليتـا . وخرجت أتفحص الاطار الايمن . كان صحيحاً ما قالته لوليتا .. وهنا لمحت تراب وقد توقف على بعد ٥٠ ياردة وراءنا .. كان وجهه الأسمر يبدو في ضوء النهار كنقطة من العنبر ..

كانت هذه فرصتي لاواجهـــه فاتجهت نحوه وانا اعتزم أن أطلب اليه أن يعيرني كماشة مع أن عندي واحدة . ولكنه أخذ يتراجع بسيارته الى الوراء.. ومرت سيارة شحن أثارت موجة من الغبار .. ولما انزاحت الموجة سمعت أزيزاً ورأيت سيارتي تكرج الى الوراء .. فقد نسيت أن أضع الفرامل .

وسارعت الى سيارتي حانقاً من ان لوليتا لم تتعلم شيئاً في طيلة هاتين السنتين من مبادىء القيـادة ولكن السيارة توقفت قبل وصولي..وإذ فتحت بابها شككت في أن لوليتا هي التي سيرت السيارة لتمنعني من الاقتراب من تراب .. ولكن حيلتها كانت بدون جدوى فقد قام تراب قبيل ذلك بتسيير سيارته ولف بها مختفياً عن الانظار ..

تابعنا رحلتنا الفظيعة.. وأنا مشتت الفكر تطاردني خاطرة توحي إلي بانني خليق بان ارتكب جريمة قتل إذا صحت الظواهر التي توحي إلي بانني بت على حافة الجنون .

وهكذا فكرت في ان انقل المسدس من علبـة السيارة الى جيبي حتى اكون متهيئاً للاستفادة من لوثة الجنون اذا مـــا اصابتني .

- ٢٠ -

كنت ابله احمق اذ سمحت للوليتا ان تدرس التمثيل اذ ان ذلك وسع من خيالها وجعلها كثيرة الحيل سريعة البديهة .. سريعة الاكاذيب وقادرة على الاختلاق ..

ومع أن لوليتا كانت قد تقدمت في السن فانها لم تزل تلك الحورية المسعورة اكثر من اي زمن مضى.تتألق اطرافها المشمشية اللون بالسعير .. ولا تزال انيقة التقاطيع خفيفة الحركة .. ولا تزال في لظى نزوات المراهقة فهي تفضل التمثيل على السباحة والسباحة على التنس .. ولا تزال عنيدة مصممة على ان تربح كل مباراة تنس بيني وبينها .. ولكنها في نهاية اللعبة تصبح لا مبالية بنتيجتها بشكل مثير .. وكانت في لعبها بريئة غير مخاتلة بحيث كان أي لاعب من الدرجة الثانية يستطيع ان يغلبها .. أجل هكذا كانت في اللعب تلك المراهقة القاسية القلب المخاتلة المكارة الغدارة في كل شأن من شؤون الحياة .

اذكر ذلك بمناسبة الحادثة التي جرت لنا في ملعب تنس الفندق بمدينة تشامبيون فقد كنت الاعبها متمتعاً بمتابعة اناقة خطوط حركاتها عندما شعرت بالعطش فاتجهت الى الحنفية حيث اقترب مني شاب في قميص احمر عرّف نفسه بانه بيل ميد وبأن رفيقته في اللعب هي الممثلة (فاي بيج) واقترح على ان نشرب كأساً من الويسكي مشيراً الي رفيقته التي لمحتها تحادث لوليتا ..

وكنت على وشك ان اعتذر عندما استلفتت انتباهي صرخة هازجة .. كان صبي مكتب الفندق يهزج باسمي منــادياً بانني مطلوب على الهاتف من اجل مكالمة خارجية مستعجلة .

فارتديت سترتي وقلت للوليتا بعد ان تحسست المسدس في جيبي انني عائد بعد لحظة .. وابتسمت فردت لي الابتسامة!

حل بقلبي هدوء مفزع وانا اتبع الصبي الى الفندق متسائلاً بقلق قاتل .. هل كشف الأمر وحلت النهــاية ! وقلت لنفسي بانني سأناضل ولن اتركهم يأخذونني اخذ عزيز مقتدر .. قلت لنفسي ان من الأفضل ان اقتلها وادمر كل كياني على ان اسلمها لأحــد ..

ولما وصلت قال لي كاتب الفندق ان مخـــاطبي قطع الخط وطلب ان اتصل به .. كانت المخـــابرة من مدرسة بيردسلي .. هاتف رقم ٦٨٢٨٢ وقد كتب الكاتب نقلاً عن المخاطب ان الأمر ضروري وهام جداً ومستعجل ..

فذهبت الى قمرة التلفون وطلبت الرقم وبالانتظــار اخذت ازرع الممر بخطواتي .. وانا افكر .. وفجأة تذكرت ان مديرة المدرسة في طريقها الآن الى اوروبا وان المدرسة لا يمكن ان تكون هي مصدر المخابرة ذلك ان ما من مخلوق في بيردسلي يعرف انني سأكــون هنــا في هذا اليوم بالذات .. فطلبت الى الكاتب ان يتحقق فيما اذا كانت المخابرة التي وردتني قد جاءت فعلاً من بيردسلي .. وجاءت نتيجة التحقيق سريعة وقاطعة .. وليس هناك من مخابرة هاتفية من بيردسلي .. اذن القضية خدعة

والمخابرة محلية ..

وعدت مثقل الخطى متجهاً الى الملعب ولحت من اول شرفة لوليتا تلاعب احد الشبان ورأيته يضربها بمضرب التنس على قفـــاها متودداً عندما كانا يغـيران موضعيهما .. كان رأسه مستطيلاً كالبيضة وكان يرتدي سروالاً بنيــاً مدرباً .. ولقد لمحني فقذف بمضرب التنس وهرع راكضــاً الى سيارته الرمادية التي كانت تنتظره على قارعــة الطريق .. ولم يلبث ان اختفى هو والسيارة .

ولما وصلت سألت بيل ميد :

— مستر ميد من كان ذلك الشاب ..

فهز ميد رأسه قائلاً انه كان شاباً فضوليـــاً اقحم نفسه في اللعبة ومضى ..

اخذت المضرب الذي كانت قبضته لا تزال ساخنة سخونة مقرفة من يد ذلك الغلام وعدت بلوليتا الى الفندق وفي طريقنا جررتهــا الى ممر تغطيه الخمــائل .. كنت على وشك ان انفجر باكياً على صدرها مناشداً اياهــا ان توضح لي بصدق ملابسات هذه الأمور مهما اثار ذلك سخريتها وقسوتها وشجَّعها على التلاعب بي .. كدت افعل ذلك لولا انني لمحت اشخــاصاً يجلسون تحت ظل الخمائل جلسة بليدة .. ولولا انني لمحت بيل وفاي قد سبقانا وكانا يضحكان .. لقد وصلنا عندما انتهت النكتة !!

لا يهم .. لنرجىء الأمر الى مرة اخرى ..

قالت لي لوليتا اذ وصلنا الى غرفتها بانها تريد ان تقضي بقية

الأصيل في المسبح .. حسناً ليكن ايتهـا الجميلة التي تضارعين هذا اليوم في جماله .

- ٢١ -

– لو .. لولا .. لوليتا ..

سمعت نفسي اهتف باسمها من باب غرفة الفندق بشيء وفير من القلق والألم .. وجدتهـــا اخيراً في وسط باحـــة المسبح المشوشبة فقد خرجت قبل ان انتهي من ارتداء ثياب الاستحمام واحذت تلاعب كلباً مرحاً .. بدلاً من ان تلاعبني .

خرجت مرتديـاً الروب دى شامبر لانني قصدت فقط ان اعرف مكانها اذ لم يكن بوسعي ان اسبح وقلبي في هذه الحالة .. لقد توقفت عن الصياح لأراقبها تركض وتتمايل بالمـــايو الأحمر المشدود .. كأن في حركاتها طابـع من النشوة والجنون يجعلها اكثر من فتاة صغيرة مرحة .. بل حتى ان الكلب بدأ مدهوشاً من شطط حركاتها التي تكشف مشتهياتها ..

وضعت يداً حانية على صدري وانا ارقب الوضع وخيل لي ان المسبح الأزرق الواقع وراء الباحة لم يعد وراء تلك البـاحة بل اصبح ضمن وجودي وخيل لي ان اعضـــائي تسبح فيه كما تسبح القواقع الطافية على مياه البحر عند الريفييرا الفرنسية .

وجدت احد المستحمين قد غادر المسبح ووقف نصف مختبيء في ظل الحاجز وهو يتابـع لوليتـا بانظاره ، كان يقف وراء

ستار من الضوء والظل .. ستار يشوه معالمه وكان يقف متنكراً بعريه وقد ترامى ما تبقى من شعره على طرفي رأسه .. فتطلعت الى وجه هذا الذي يتأمل (ابنتي) بنشوة وشهوة .. وبينما وقعت لوليتا في لعبهـا مع الكلب واخذت تلوح بساقيها في الفضاء جرفته النشوة فاستند متهالكاً الى عمود .

لقد خشيت طيلة الوقت ان يكون من اولئك الشبان الذين يلهبون خيال لوليتا .. ولكنني رأيت عندما انحسرت الشمس انه ليس بذي خطر .. مجرد مخلوق تافه يشبه ابن عمي تراب السويسري الذي كان يشرب بيرته مخلوطة باللبن ..

وفجأة كفت لوليتا عن لعبها .. وخيل الي ان الكلب بات نتيجة ذلك كسير الفؤاد ..

واتجهت اليها لاقول شيئاً ولكنني افترشت العشب وقد احسست بألم فظيع يجتاح صدري ثم ما لبثت ان تقيأت سيلاً من البقايا السمراء والخضراء التي لا اذكر انني اكلتها ..

رأيت في تلك اللحظة عيني لوليتا كمن يحسب حسابه اكثر مما كانت كمن افزعه الأمر .. وسمعتها تقول لسيدة عجوز ان اباها مصاب بغثيان .

ولم ألبث ان تهالكت على كرسي طويل واخذت اجرع ما لا يحصى من اقداح (الجن) .. ومع ذلك فقد نهضت في الصباح التالي وقد وجدت القوة على قيادة السيارة ومواصلة الرحلة .

- ٢٢ -

اخذ يتضح لي بان ما توهمته شرطياً يتبعني ويطاردني ليس الا انعكاساً لقوة الاضطهاد التي تركبني .. والتي تساعدها ظروف وملابسات تدخل الاوهام الى نفسي .

هكذا طردت فزعي .. وقررت ان ابدأ عهداً جديداً منذ مدينة (سلفر سبار) حيث اعطتني صاحبة المنزل مفتاح شقة من غرفتين وهي تضحك لي ضحكاً ماجناً .

خرجت لوليتا من السيارة فرأيتها ترتجف قليلاً فحسبت ان ذلك من فعل هواء الغسق .. ولكن عندما دخلت الى الشقة تهالكت على احد المقاعد ودفنت وجهها بين ذراعيها المتشابكين فوق الطاولة وقالت انها مزعوجة للغاية .

انها تمثل .. هكذا خيل الي .. انها تمثل حتى تتهرب من مداعباتي ومعانقاتي .. ولكنني كنت ألتهب شوقاً فلما حاولت معانقتها بدأت تتأوه بشكل محزن غريب .. اذن انها مريضة .. انها تحتضر .. لقد كانت بشرتها تلتهب فعلاً بالحرارة ولما قست حرارتها وجدتها تجاوز الاربعين باربعة اعشار .

كنت اعرف ان المراهقات يتعرضن لحالات هستيرية توصل حرارتهن الى درجات تبدو خطيرة اذا وصل اليها الانسان العادي .

ولقد كان بوسعي ان اكتفي باعطائها في حالتها هذه بعض الاسبرين وقليلاً من الخمر لتشفى من الحمى لولا انني اذ فحصتها

وجدت عندها التهاباً شديداً في الحنجرة .. فنضوت ثيابها عنها وكانت رائحة انفاسها حارة كاوية وكانت ترتجف من قمة رأسها الى أخمص قدميها وكانت تشكو من تصلب مفاجىء في اعلى ظهرها مما جعلني أظن كما يفعل الآباء الامريكيون عند هذه الحالة بانها مصابة بنوبة شلل الاطفال ..

ولما وجدت انلا امل لي في ان اقاربها لففتها في الروب دي شامبر وحملتها الى السيارة ومنها الى مستشفى الدكتور بلو الذي قيل لي انه احدث المستشفيات .

وفي المستشفى طمأنني الطبيب الى انها حالة من الحمى الوافدة وانه عالج مثلها اربعين حالة هذا الموسم..ومع ذلك فقد وجدت ان خبرته الطبية هي ادنى بكثير من شهرته .

على كل لم يكن هناك مجال للاختيار فسجلت لوليتا على انها ابنتي وقلت للسكرتيرة الشقراء ان عمرها ١٦ عاماً « عملياً » وحاولت عبثاً ان اقنع ادارة المستشفى بان اقضي الليل هناك على اريكة ومهما كان ثمن ذلك ..

واضطرت الى ان اغادر المستشفى تاركاً لوليتا بين أيد لا أثق بها كثيراً وتحت رعاية ممرضة خاصة .

وفجأة وانا اعود الى الفندق خيل الي ان مرضها ليس الا تطوراً جديداً في خطة طالما اشتبهت بها في خواطري فعذبتني احتمالاتها طيلة الرحلة وتصورت ان هناك شرطياً سرياً او عاشقاً متخفياً . قد دبر هذا المرض حتى يفصلني عن لوليتا نهائياً .

عند ذلك لم استطع الا ان اعود مرة اخرى الى البار اغرق

ومخاوفي وخيالاتي في الشراب .

بعد ثلاثة ايام تحسنت حالة لوليتا كثيراً وقال الطبيب انها ستشفى كلياً بعد يومين . ولقد زرتها ثمان مرات في هذه الأيام الثلاثة واكثر الزيارات كانت مخالفة للنظام وفي غير الأوقات النظامية . ولست اذكر من مجريات هذه الزيارات غير زيارة واحدة ظلت مرتسمة بوضوح في ذهني فقد حملت اليها معي عدة كتب ثمينة سافرت ٦٠ ميلاً لشرائها فلما اقتربت من غرفتها خرجت من الباب الممرضة الخاصة ماري لور التي كانت قد اخذت تكرهني منذ اليوم الأول والتي وجدتها تشبه الحيوانات.. ووجدتها تحمل صينية الفطور وتضعها على الكرسي في الصالون فلما لمحتني اندفعت عائدة الى الغرفة كأنها تريد ان تحذر لوليتا من أباها الطاغية يتسلل الى غرفتها حاملاً الورود والكتب.

قبيل ان ادخل تطلعت الى صينية الفطور لأرى إذا كانوا يغذون لوليتا جيداً فوجدت بين الصحاف مظروفاً عليه اسم أحد الفنادق ولكنه كان خالياً من أية كتابة .. فلما التقطت المظروف الفارغ ظهرت ماري لور من الغرفة فجأة وقالت لي ساخرة :

– من الأحسن الا تلمس شيئاً فقد تحرق أصابعك .

ورددت على سخريتها المبطنة باتهام مبطن قائلاً :

– لقد ظننت انها فاتورة ولم أعرف انها رسالة عاطفية .

قلت هذا ودخلت الى غرفة لوليتا فتبعتني الممرضة لتقول :

– اسمعي يا لوليتا ان اباك يظن انك انت التي تتلقين الرسائل

من صديقي .. كلا يا مستر همبرت ليست الرسالة للوليتا انما هي لي .

قالت هذا وتركت الغرفة بينما كانت لوليتا تتطلع إلي أو الى لا شيء بنظرات بريئة وقد احمرت وجنتاها وانسدل شعرها واستراحت ذراعاها العاريتان على الملاءة النظيفة .

قالت لي :

– ما هذه الأزهار الجنائزية .. ولكن شكراً على أية حال .. ثم هل لك ان تكف عن حشو كلامك بالفرنسية فـذلك يضايق الجميع ..

ومن جديد عادت الممرضة الحيوانية التي تتضوع ببقايا رائحة البول والثوم تحمل الصحيفة المحلية فخاطبت لوليتا من جديد بالفرنسية :

– ألم تعودي تحبينني يا كارمن ؟

كنت قد تعودت على دعوتها باسم كارمن تدليلاً .. ولكن لم اكن بحاجة الى ان اسألها ذلك فقد كنت أعرف في تلك اللحظة ان الأمل مقطوع من حبها .. وكنت أعرف انها والممرضة تتآمر على حبي اليائس ..

بل سأذهب الى ابعد من ذلك وأقول وفقاً لما اكتشفت بعد ذلك ان لوليتا كانت تخادع ماري وتلعب لعبة مزدوجة اذ قالت لها انها تريد ان تعيش في كنف عمها المرح وليس في كنفي انا الأب ذو المزاج السويدائي .. القاسي المتعنت .. ولعل ماري

قد ظنت بأنني امنع لوليتا من متعة حب وعطف عمهـا (أخي المزعوم) .

ولما خرجت الممرضة قلت للوليتا والغصـــة في حلقي وانا أكابد العناء حتى استطيع ان ابلع ريقي :

– اسمعي يا كارمن .. سنترك هذه المدينة الكريهة حالمـا تغادرين سرير المرض .

– اجل .. وبالمناسبة اريد ان ترسل لي جميع ثيابي .

تابعت كلامي قائلاً ؟

– يجب ان نرحل لأنه ليس هناك من سبب للبقاء هنا .

– ليس هناك من سبب للبقاء في أي مكان .

وجاءت الممرضة لتذكرني بأن وقت الزيارة قد انتهى فغادرت الغرفة طائعاً ولوليتا تذكرني بأن احمل اليها ثيابها معي غداً .

ولكنني في اليوم التالي كنت ارتجف واسعل .. كنت فريسة حمى مفاجئة ، ولذا فلم اذهب انما ارسلت لها حقيبتي ثيابها مـع ابن الارملة صاحبة الفندق .. وانا أتصور بأن الغاية كلها هي ان تعرض لوليتا على الممرضة كنوزهـا . وظللت يومين أهـذي في فراشي فريسة الحمى .

وبعد الظهر سمعت قرعـاً على باب غرفتي .. وكان صبي الفندق يحمل إلي خبراً هو ان الممرضة ماري قد تلفنت تسأل اذا كنت استطيع القدوم الى المستشفى اليوم ؟ . فقلت له ان يبلغها بأنني سألازم فراشي طيلة اليوم وانني سأذهب غـداً إذا تحسنت احوالي لرؤية ابنتي .

فلما خرج اخذت اغب الشراب الى ان نمت مخموراً وصحوت في اليوم التالي وقد استعدت كل صحتي وكان أول ما فعلته انني خرجت الى مكتب الفندق وتلفنت الى المستشفى اسأل .

كان الجواب ان كل شيء على ما يرام .. وان ابنتي قد شفيت تماماً وتأكد الطبيب من شفائها ونظراً لانني كنت مريضاً فقد جاء عمها المستر غوستاف في سيارة كاديلاك ودفع فاتورة الحساب نقداً وطلب اليهم إبلاغي بأنه ليس لي ان اقلق من مرضي وانه يجب ان ادفيء نفسي جيداً وانهما ذاهبان الى مزرعة جدة لوليتا كما اتفقنا على ذلك .

وذهبت فوراً الى المستشفى ولحسن الحظ لم أجد الممرضة وإلا فإن اضطرابي كان كفيلاً بأن يفضح ما بدر مني من حالات عصبية .. فلم يكن بوسعي ان اقول لهم ان غوستاف ليس أخي .. فليس لي أخ .. وان لوليتا ليست ابنتي .

وأخيراً استطعت بعد التماعة تفكيرية ان اعزي نفسي بأن الحرية في الوقت الحالي هي كل شيء .. وانني خيراً فعلت اذ التزمت الصمت فقد كانت اية انزلاقة لسان كفيلة بأن تورطني وان تلصق بي جريمة .. وتظاهرت للدكتور بلو بأن دموعي هي نتيجة اسفي على ادماني على المشروب رغم اصابتي بمرض قلبي .. اعتذرت للجميع وهمست لنفسي وانا اخرج بأنني لازلت أملك مسدسي ولا زلت رجلاً طليقاً حراً .. اجل لازلت حراً استطيع ان اطارد الهاربة الآبقة .. ولا زالت حريتي تمكنني من ان أزيل من الوجود .. ذلك الأخ .. أخي غوستاف ..

- ٢٣ -

أمضيت أياماً طويلة وانا اجوب الطرقات الجبلية في المنطقة بحثاً عن الهاربين .. وللقاريء ان يتصورني متظاهراً بالوقار .. متظاهراً بحب الطبيعة وأنا أخفي وراء قناع هدوئي حزني الهائل واتزين بابتسامة وانا افتش سجل كل فندق على الطريق متظاهراً بالبحث عن قريب ظننت انه ينزل في الفندق .

ثم اضطررت الى ان اقوم بتحقيقاتي بشكل اكثر حذاراً مما اضطرني الى النزول في كثير من الفنادق.. وبهذه الطريقة تفقدت سجلات ٣٠٠ فندق ونزل حصلت من عشرين منها على الأقل على ما يشير الى تنقلات ذلك العفريت الذي أخذ لوليتا والذي حل معها احياناً في غرف كنا قد حللنا بها قبلاً ..

ولقد اكتشفت بأنه عالم بتحرياتي إذ كان ينتحل لنفسه اسماء افهمها وحدي .. ففي إحدى المرات اتخذ اسماً من مسرحية هزلية ايطالية مشهورة .. وقد قالت لي صاحبة النزل بأنه امضى خمسة ايام مصاباً بالرشح وكانت ترافقه ابنته « آن لور » .. وما احتجت الى ان تصف لي الصبية فقد أدركت فوراً انها لوليتا ..

ظلت المطاردة مستمرة وقد تكشف غوستاف في خلالها عن مهارة عظيمة .. كان دائماً ينجح في تضليلي ولكنه كان دائماً يترك لي مجالاً للأمل بأنه قد يكشف ذاته في المرة القادمة .. كانت اللعبة شيطانية تهدم الأعصاب.. ولكنه لم يكشف ذاته قطعاً ..

وإن كان قد أوشك على ذلك ذات مرة .

لم تكن الآثار التي يتركها غوستاف كافية لكشف هويته ولكنها كانت كافية لإظهار ماهية شخصيته .. الشخصية القوية المسيطرة والذكاء الحاد والقدرة على الاشتقاق اللغوي ثم التبحر في الثقافة وفي فن الجنس ولكنه لم يكن بارعاً في تنمية آثاره فقد كان خط يده نسائياً وكانت هناك حروف لا تتغير مهما حاول تغيير سمة خطه .

- ٢٤ -

عندما عدت الى بيردسلي في خلال تخبطي عبر المئات من الأميال كنت قد بحثت ملياً احتمالاً مفزعاً .. فتكونت في ذهني صورة تامة عنه .. خيل إلي ان المعلم الوحيد .. الرجل الوحيد الذي كان يعلّم في بيردسلي باستثناء غاستون والأب ريفور مورتيس ، خيل إلي انه هو الذي خطف لوليتا وخاصة انني تذكرت بأنها لم ترض يوم كنا في بيردسلي ان احضر محاضرة يلقيها في قاعة المدرسة . وتذكرت ان غاستون كان قد وصف هذا المعلم بأنه محاضر بارع .

لما وصلت الى بيردسلي علمت ان ريفر الاستاذ المنشودسيلقي محاضرة في القاعة فاعتزمت امراً خاصة وقد علمت انه عازب . فذهبت وانزويت في أحد المقاعد مشمر الأكام والمسدس في جيبي . وفجأة أدركت بأنني اضيع وقتي وانه ليس معقولاً ان يكون خاطف لوليتا هو هذا الاستاذ .

قمت بمحاولة اخرى عقيمة لاكتشاف مقر لوليتا والأتصال بها عن طريق نشر اعلان في المجلات التي تقرأها ، ثم تجرأت على ان اتصل بتحري مدني خاص أعطيته ما سجلته في مفكرتي من اسماء انتحلها غوستاف،وطلبت إليه ان يتخذها مستنداً لتحري حقيقة امره واكتشاف هويته ، ولكن الحيوان امضى سنتين يحقق في صحة هذه المعلومات وجاءني بعد ان قطعت صلتي المالية به يعلن لي بابتسامة الكافر ان هناك هندياً باسم بيـل برادن في الثمانين من عمره يعيش في مدينة دولوريس .. كان اسم بيل برادن أحد الأسماء التي انتحلها غوستاف .

- ٢٥ -

لقد كتب هذا الكتاب ليكون عن لوليتا .. ولكن أما وقد وصلت الى هذه المرحلة فلعلي يجب ان ادعوه كتاباً عن لوليتا الضائعة المختفية ..

فترة غريبة من حياتي هي فترة اختفاء لوليتا لمدة ثلاثة أعوام .. ولعل من أبرز ملامح هذه الفترة انني لم اكن احلم قطعاً في منامي بلوليتا ولكنني كنت دائماً اراها ماثلة بكل الملامح في أحلام يقظتي .. كان خيالها يطاردني بصوره الجلية في ليالي أرقي الطويلة .. وإذ كانت تظهر في أحلامي فإنها لم تكن تظهر في شكلها المعتاد انما تظهر متنكرة في شكل فاليريا زوجتي الأولى أو شكل شارلوت امها .. أو تظهر بهيئة هي مزيج من فاليريا وشارلوت .

كنت دائماً أراها بهذه الصورة جاثية على أقدامي متوسلة تحاول ان تستجدي شفقتي .

شيء آخر اذكره عن هذه الفترة هو انني احتفظت بحنان ببعض ما تركته لوليتا من ثياب كنت اغمرها بقبلاتي واضمها الى صدري مستروحاً بقايا نسماتها وضوعها ولما شعرت بعد ذلك ان عقلي اخذ يتقوض جمعت هذه الآثار بالإضافة الى اغراضها المخزونة في بيردسلي وارسلت ذلك باسم فاعل خير مجهول الى احد المياتم على الحدود الكندية .

لو انني ذهبت الى منوم مغناطيسي متمكن في فنه فلربما كان انقذني من هذا الجنون التدريجي ومن هذه الذكريات التي طالما جثمت على ذهني وجعلتني أحيا أثناء أحلام يقظتي في الماضي اكثر مما احيا في الحاضر .. بل انني بدأت في تلك الفترة افقد الصلة بالواقع فلجأت الى مصح نفسي امضيت فيه فصل الربيع ثم قررت ان اسوي بعض أموري في نيويورك لأذهب بعد ذلك الى كاليفورنيا لأقوم بتحريات كبرى عن لوليتا وخاطفها ..وفي هذه الأثناء نظمت في عزلتي عدة قصائد اناجي فيها لوليتا .. أذكر منها :

مطلوبة مفقودة : لوليتا هيز ..
الشعر كستنائي والشفتان من قرمز ..
عمرها خمسة آلاف وثلاثمائة يوم .
اين تختبئين يا لوليتا هيز ؟

لماذا تختبئين يا حبيبتي ؟
ها انا بعد فراقك ..
كسير القلب غائم النظرات .
أي بساط ريح يحملك ؟
وأين تأوين في هذه اللحظات المسحورة ؟ .
ألا تزالين ترقصين أيتها الصغيرة الحبيبة ؟ .
آه : ما أحيلى امسيات الماضي .
وعناقنا الطويل قرب النار ، يا بدويتي .
سعيد سعيد هذا الذي يطوي الفيافي معك ؟
لوليتا يا حبي .. لوليتا يا جنوني ..
يا ذات العينين النائمتـين ..
يا من لم تكن تغلق عينيها يوم كنت اقبلها ..
ان العذاب والبغض يأكلانني ..
انني اموت تأنيباً وغيرة ..
لوليتا لوليتا اين انتِ ؟ ..

انني اموت بدونك انت . الخ .. الخ ..

انني إذ أحلل هذه الاشعار فإنني ألاحظ بأنها حقاً وليدة خيال رجل مهووس .. فكل مافيها من وزن مهتز انما ينسجم فعلاً مع إنفعالاتي من خيالات وذكريات حياة محمومة مع لوليتا. لقد انغمست في الشعر .. قرأت كثيراً من الشعر وكتبت كثيراً من القصائد ولكنني لم أنس لحظة ضغط حافز الانتقام الذي كان يهيمن على خواطري ..

أكون كاذبا لو قلت (ويكون القارىء مجنوناً لوصدق) **بأن** صدمة فقدي للوليتا قد شفتني من نوازع شذوذي .. فلم يكن بوسع طبيعتي اللعينة ان تتغير مهما تغير حبي لها .

فقد ظلت عيناي على الرغم من إرادتي تكنسان الملاعب والحدائق العامة حيث تلهو الصغيرات بحثاً عما يتكشف من أجسادهن الناعمة المراهقة .. بحثاً عن مثيلات لوليتا .. عن أجساد ترمز الى ما في جسدها من سعير مشبوب في إطار صبياني.

هنالك فارق واحد انتابني ، ذلك انني لم أفكر لحظة في ان أتمتع بالنعمة مع عذراء مراهقة صغيرة .. سواء كانت حورية أصيلة أم حورية مزيفة .. اجل لم تطارد احلامي مثيلات لوليتا ولم أجد غيرها في خيالي يقطن تلك الجزيرة السحرية . جزيرة الحوريات المراهقات المسعورات بالشبق .. فلقد انتهت صلة غيرها بهذه الجزيرة في الوقت الحالي على الأقل .

إلا ان سنتين كاملتين من التخبط والسعي الرهيب وراء شبح الهاربة قد جعلتاني اعتاد على نوع من الشبق الدائم .. على التحسس بالشبق وكنت اشجع هذه النوازع عمداً ذلك انني كنت أخشى ان انحدر الى الجنون بسبب فراغ حياتي .. خفت ان يجرني هذا الفراغ الذي أعيش فيه الى الانغماس في جنون مفاجىء عندما يواجهني إغراء عارض يتجسد في مراهقة مسعورة اصادفها في طريق جانبي موحش ..

أجل لقد أخذت الوحدة تفسدني واخذت احتـــاج الى من يلازمني ويعني بي واصبح قلبي جهازاً عضوياً هستيريا لايوثق به.
ولهذا وفي هذا الجو دخلت ريتا الى مسرح حياتي .

- ٢٦ -

كان عمر ريتا يبلغ ضعف عمر لوليتا بينما بلغ ثلاثـــة ارباع عمري .. وكانت فتاة بالغة نحيفة سوداء الشعر شاحبة البشرة ذات عينين مستطيلتين جميلتين وملامح واضحة الخطوط وذات عجز يأخذ بمجامع القلوب .

لقد كانت بركاناً حياً وأظن ان دماً اسبانياً او بابلياً يسير في عروقها ..

لقد التقطها ذات ليلة ربيع في ايار (مايو) في مكان ما بـين مونتريال ونيويورك .. وعلى وجه التحديد في بار مظـلم كانت فيه مخمورة سكرى ولقد أصرت حينما رأتني على اننا كنا زميلي دراسة ووضعت يدها النحيلة الرقيقة على يدي الخشنـــة ذات الشعر الكثيف .. ومـع انها قـد اثارت بعض نفوري فإنني قررت ان اعطيها الفرصة لتثبت جدواها لي وهكـــذا تبنيتها كرفيقة دائمة لي ..

كانت ريتا لطيفة وبالغة اللطف ورياضية الروح بشكل كانت فيه لا تأبى ان تستسلم لأي مخلوق محزون .. بل لأي مخـــلوق يتظاهر بالتعاسة.. كيما تقدم له بعض العزاء .. أجل كانت رقيقة القلب في هذه الشؤون .

عندما التقيت بها أول مرة كانت قد اكتشفت لتوهـا ان زوجها الثالث يخونها .. كما اكتشفت ان عشيقها النظـامي السابع قد هجرها كذلك مثلما فعل قبله ستة عشاق .. وقـد همها الأمر .. أما هؤلاء الذين مروا بحياتها مر السحاب فإنهـا لم تهتم بأمرهم .. وعلمت ان لها أخاً نافذاً ذا مركز سياسي مرموق ويشغل منصب العمدة في بلدته .. وعلمت ان هذا الأخ يدفـع لأخته الصغيرة العظيمة (ريتا) شهرياً بضع مئات من الدولارات بشرط ألا تعود اطلاقاً الى البلدة .. ولقـد شكت لي من ان جميع عشاقها كانوا مع ذلك يأخذونها في نزهات ليلية حول تلك البلدة مما كان يثير فزعها من ان يشي بها أحد الى أخيها فتحرم من النفقة الشهرية ..

لقد استخدمت سيارتها الرياضية الأنيقة للسفر الى كاليفورنيا كيما أريح سيارتي المتعبة .. وظلت ريتا ترافقني في اسفـاري سنتين من صيف ١٩٥٠ الى صيف ١٩٥٢ وكانت معي اجمل وأرق وأبسط فتاة يمكن تصورها .. بل كانت اقدر من أدخل العزاء على قلبي وامتعني بالراحة .. وبالتالي فإنها قد جنبتني بالتأكيـد دخول مستشفى المجاذيب .

ولما قلت لها انني ألاحق فتاة معينة من أجل أن أبقر بطنها وافقت رأساً على الخطة .. بل انها قامت بتحريات خاصة أوقعتها في يد محتال فعادت الى البيت ذات ليلة وقد فرغت حقيبتها من المال واصيبت هنا وهناك بكدمات في جسمها ..

كانت جريئة متهورة تهوى الألاعيب الخطرة حتى انها اقترحت

ذات يوم ان تلعب بمسدسي الروليت الروسية (لعبة تقضي بترك رصاصة واحدة في خزان المسدس الدوار ثم تـدويره بسرعـة وتوجيه الفوهة الى رأس اللاعب والضغط على الزناد فاذا صدف ان جاءت الرصاصة الوحيدة عند الزناد قضي على اللاعب) .. لعبناها مرة ولكننا وجهنا فوهة المسدس الى جنـــاح السيارة فأحدثت الرصاصة خدشاً اذ مست الحديـــد .. لا زلت اذكر كيف زقزقت مبتهجة حينذاك .

ومهما تكن مقالبها فقد كان فيها من الغنج والدلال والمهارة في القبلات ما أبعدني عن إتيان المنكرات من الأعمال بـل ان عشرتها جعلتني اكف عن مطاردة الهاربة وجعلتني اتصور ان خاطفها ليس إلا رجلاً بربرياً بدائياً يتمتع بهـا ولكن ليس في نطاق اظهار مواهبها .

بعد ان قررت الاقتناع بريتا صدف ان ذهبنا في طريق العودة شرقاً الى مدينة صغيرة كانت يوم ذاك مقراً لمؤتمر عام من مؤتمرات تجار المواشي والمحاصيل ..من تلك المؤتمرات التي تحفل بالرجال البدان الخنزيري الوجوه الذين يعبّون مـا أمكنهم من جعـــة وويسكي ويتلوحون هنا وهناك متوددين الى كل انسان .

وفي الليل أفقنا — انا وريتا العزيزة — لنجد شخصاً ثالثاً في غرفتنا . كان شاباً أشقر الشعر ابيض البشرة ذا اذنين رقيقتين شفافتين لم أذكر ولم تذكر ريتا إنه سبق ان رأيناه .. كان جسمه ينضح بالعرق وهو نائم يشخر على السرير المزدوج بثيابه الداخلية القذرة قرب الطاهرة ريتا ..

فهبت ريتا تستر عريها بمعطفي الذي كان أول ما وقع بين يديها .. وحاولنا إيقاظه بالماء فلم يستيقظ وتبينا انه تسلل من الباب الذي لم نحكم اقفاله .. واخيراً اخذنا نهزه هزاً عنيفاً فلما استعاد وعيه وجدناه فاقد الذاكرة تماماً وهكذا لم يستطع ان يذكر شيئاً ينبيء عن هويته إلا ان ريتا تبينت من كلامه انه من أهالي بروكلين ..

وسارعنا نلبسه ثيابه ثم اخذناه الى اقرب مستشفى وغادرنا المدينة .

وبعد نصف عام كتبت ريتا الى المستشفى تسأل عن أخباره فجاء الجواب بأنه لا يزال فاقد الذاكرة لا يذكر أي شيء عن ماضيه .

ماكنت لأذكر هذه الحادثة لولا انها قد اطلقت في ذهني سلسلة من الأفكار تمخضت عن دراسة كتبتها عن الذاكرة وفقدانها في احدى المجلات وقلت فيها من بين ماقلته ان التحسس بالزمن يستند الى مجرى الدورة الدموية ويتوقف على تحسسه بذاته وادراكه لها .. وهكذا فإن العقل يتوزع بين قطبين .. قطب أحداث الماضي المخزونة في الذاكرة وقطب أحداث المستقبل القابلة للاختزان ..

ونتيجة لهذا البحث العلمي دعيت للتعليم في كلية كانتربيب لمدة عام في شقة مفروشة من الشقق المخصصة للشعراء والفلاسفة بينما نزلت ريتا لوحدها في فندق في الضاحية فكنت أزورها خفية مرتين في الاسبوع وكان ذلك ترتيباً لا بد منه إذ خفت ان

يثير سكانها معي لغطاً لا يتناسب مع مركزي كأستاذ ..

ولم تلبث ريتا ان اختفت عن الأنظار ولكن بصورة اكثر انسانية من لوليتا . ولم ألبث بعد شهر ان وجدتهـــا في سجن البلدة .. ورأيتها مزهوة جداً ومعتدة بنفسها فقد أزالوا لها في مستشفى السجن زائدتها الدودية كما انها استطاعت ان تقنعني بأن القراء الجميل الذي اتهمت بسرقته من السيدة « رولاندماكرام » كان في الواقع هدية عفوية ، ربما بـــدافع كحولي من السيــدة رولاند بالذات ..

ولقد استطعت ان أخرجها من السجن بـــدون اللجوء الى أخيها صاحب النفوذ وكان حزيران ١٩٥٢ قد حل وحل معـه موعد انتهاء عقدي فأخذتها معي في طريق العودة الى نيويورك عن طريق برايسلاند حيث توقفنا عدة ساعات في السنة الماضية.

وتملكني حافز شديد في ان أحيا من جديد ذكرى إقامتي في برايسلاند مع لوليتا . فقد كنت في مرحلة من وجودي فقدت فيها كل امل بالعثور على آثار خاطفها .. وهكذا اخذت احاول ان اعود الى مسارح حياتي السابقة معها كيما استعيــد ما يمكن استعادته من الذكريات .

ذهبت أجول في المرافق التي كنت قد زرتها مع لوليتا مدفوعاً بذلك الحافز الغريب الذي لا استطيـع تفسير طبيعته. فلما عدت وجدت ريتا تعاقر الخمر بملامح حزينة مع رجل اشيب قالت لي انه كان رفيق دراستها .. كانت سكرى من جديد وقد آذيت قبضتي إذ ضربته على فكه حتى استخلصها منه .. ثم أخذتهـا

وسرت بها في العراء قليلا حتى تستفيق بلفحات الهواء البارد فأخذت تنتحب قائلة انني انا الآخر سأتركها واهجرها في القريب العاجل كما فعل الجميع معها . فأخذت اداعبها حتى أسري عنها وغنيت لها من وحي الساعة أغنية مضحكة إلا انها ظلت تبكي لهذا السبب أو ذاك فأخذتها الى السيارة واتجهت فوراً الى نيويورك ولم يمض قليل وقت حتى كانت تزقزق بالسعادة ونحن في شرفة بيتنا النيويوركي من جديد ..

- ٢٧ -

ذات يوم تلقيت رسالة هستيرية من جون فارلو جاري السابق في رامسدال وهو المحامي الذي كلفته بالاشراف على تصفية تركة زوجتي المتوفاة شارلوت هيز أم لوليتا ..

كنت أعرف ان زوجته قد توفت إلا انني توقعت ان يبقى مخلصاً لذكراها كأرمل مزمن حزين بليد كما كان دوماً .. ولكنني فوجئت به يقول في رسالته انه عاد الى امريكا الجنوبية وعهد بجميع اعماله الى زميله المحامي جاك ريندمولر في رامسدال وقال انه تزوج من فتاة اسبانية وانقطع عن التدخين فازداد وزنه ١٥ كيلو غراماً .. وقال عن زوجته الجديدة انها صغيرة السن وانها بطلة من بطلات التزحلق على الجليد (السكي) وانهما سيذهبان الى الهند لقضاء شهر العسل . وبدا من رسالته انه مرتاح لتخلصه من قضية تركة شارلوت هيز فقد ازعجه أقاربها

الذين ذكروا له ان لوليتا مجهولة الاقامة وأنني أعيش مع مطلقة عابثة مشهورة .. وقال لي ان الذين يستأجرون منزل شارلوت منذ ذهابنا يريدون شراءه وان من الافضل ان اخرج لوليتا من مخبئها بسرعة حتى يمكن اتمام معاملة البيـع . وارفق رسالته بصورة له مع زوجته السمراء وهما في وضع رقيق على ثلوج جبال جمهورية تشيلي .

نسيت ان اذكر أنني التقطت مع تلك الرسالة رسالة اخرى ظننتها في بادىء الأمر من ام ريتا التي كانت تلاحقني دائمـاً برسائل مختلفة الخطوط تقول فيها انني وريتا منسجمان انسجاماً رائعاً وانه سيكون من الرائع ان اتزوجها ..

على كل حال فتحت الرسالة الثانية ذات الخط النسائي التي اخذت تخاطبني بصوت الأمر الواقع :

والدي العزيز ..

كيف الحال ؟ لقد تزوجت وسأصبح أماً عما قريب واعتقد أنني سأرزق صبياً . وربما في عيد الميلاد .. لقد كان صعباً ان اكتب اليك ولكنني اكادأجن لانه ليس لدينا ما يكفي لسداد ديوننـا وللخروج من هذه المدينة الحقيرة الخانقة . ان زوجي «ديك» موعود بوظيفة كبيرة في آلاسكا حيث سيعمـل وفق اختصاصه الميكانيكي .. هذا كل ما اعلمه عن الوظيفة ولكنها تبدو عظيمة .. اغفر لي اذا كنت اخفيت عنك حتى الآن عنواني اذ كنت اعرف انك حاقد علي، هذا بالاضافة الى انني حريصـة على الا يعلم ديك شيئاً ..

ارجوك يا ابي ان ترسل لنا حوالة مالية سريعة.. اننا نستطيع ان نتدبر امرنا بمبلغ اربعمائة اوثلاثمائة دولار .. ارسل أي مبلغ فهو يساعدنا ، ذلك ان المال سيبدأ بالتدفق علينا حالما نصل الى آلاسكا . ثم انك تستطيع ان تبيع البيت القديم اذا لزم الأمر .

ارجوك ان ترد على رسالتي فقد قاسيت الكثير من الشظف والاحزان .. وتقبل تحيات ابنتك الحامل ..

لوليتا (مسز ريتشارد شيلر)

-٢٨-

عدت من جديد الى الطرقات وحيداً في سيارتي الزرقاء .. سيارة ام لوليتا .. عدت من جديد الى السفر وحيداً فقد كانت ريتا تغط في نوم عميق وفي عالم آخر عندما قرأت تلك الرسالة واخذت أصارع امواج العذاب التي اثارتها في نفسي .

ألقيت نظرة على ريتا اذ كانت تبتسم في نومها وقبلتها على حاجبها المعروق وغادرتها الى الابد بعد ان حررت رسالة وداعية رقيقة ألصقتها بورق الصمغ على جبهتها فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لاضمن انها ستقرأها .

قلت لنفسي وانا استقل السيارة :

– ها انا وحدي من جديد .

ولكنني لم اكن وحيداً فقد كان يلازمني مسدسي الأسود

وكنت شديد التحسس به فما وصلت الى اول بقعـة خالية حتى اخذت اتمرن على الكيفية التي ستموت بهـا المسز ريتشارد شيلر (لوليتا سابقاً) موتاً عنيفاً ..

لقد وجدت قميصاً صوفياً عتيقاً في السيارة علقته في احـد الغصون وتخيلته بديلاً للوليتا وتمرنت عليه واذ كنت انفذ فيـه حكم الأعدام شعرت بضجر مما بدا لي تصلبـاً في حركة الزناد .. فتساءلت اذا كان يجب ان ازيته ..و لكنني قررت انـه ليس عندي من وقت فائض لهذا الأمر . وهكذا عـدت الى السيارة متابعاً رحلتي مع مسدسي الاسود تاركاً القميص معلقـاً مثقوبـاً بالرصاص ..

كان تاريخ خطاب لوليتا ١٨ ايلول اما المدينة الصادرة عنها الرسالة فهي كولمونت وهي ضاحية صناعية صغيرة تبعـد عن نيويورك ٨٠٠ ميل

فكرت في بادىء الأمر ان اجدّ السير طيلة الليل والنهـار ولكنني بعد التفكير قررت الاستراحة ساعات في فنـدق ريفي على الطريق قبيل اميال معدودات من المدينة ..

كنت طيـلة الوقت افكر، وخلصت من تفكـيري الى ان العفريت الذي خطف لوليتا ليس بائع سيارات ربمـا عرفهـا في بيردسلي يوم انفجر دولاب دراجتها فتطوع لنقلها بسيارتـه الى منزل معلمة البيانو .. ومنذ ذلك الحين علق بها وتحـايل حتى انتزعها مني ..

ضبت منبه الساعة بحيث اغادر الفندق في السادسة صباحاً

وقررت ان اتأنق بشكل خاص لهـــذه المناسبة وبتلك العناية المأثورة عن النبيل الذي يتــأهب لخوض مبــارزة رتبت اوراقي وتحممت وعطرت جسدي النحيل وحلقت وانتقيت قميصـــاً حريرياً وبذة جديدة ومعطفاً ثميناً ووشاحاً كشميرياً ..

للأسف لم استطع ان اتناول فطوري ولكنني ما حفلت بذلك واعتبرت عدم قدرتي شيئاً ثانوياً واكتفيت بمسح فمي بمنديـل حريري وانا اشعر بالغصة في قلبي والمرارة في فمي .

ووجدت البيت بعد تفتيش طويل .. كان بيتاً حقيراً كئيباً تتصاعد من ورائه اصوات المطارق ..فأوقفت سيارتي ومكثت فيها هادئاً مدة دقائق .. لقد وصلت الى نهاية رحلتي .. اجـل انتهى هذا التجول المحموم يارفاقي .. وجدت نبضي مضطرباً ، فدقيقة كان ينبض بمعدل ٤٠ ضربة ودقيقــة اخرى كان النبض يتسارع ليصل الى مائة ضربة ..وفي تلك الاثناء نقلت مسدسي الى جيب سروالي الايمن .

وظهر من وراء البيت كلب لايوصف توقف لحظة مدهوشاً ثم اخذ ينبح صوبي بعينيه المقروحتين وبطنه الملوث بالوحل ..وما لبث ان انفلت مبتعداً وهو ينبح صوبي بين الحين والآخر .

- ٢٩ -

خرجت من السيارة واطبقت بابها بقوة فأحدث ضجة هزت جوانب فراغ ذلك اليوم المعتم ..واجاب الكلب على الضجـــة بنباح جديد. ولما ضغطت على زر الباب شعرت باهتزازاته تسري

في كل كياني..وطال انتظاري فضغطت زر الجرس من جديد..
وسمعت حفيفاً يتجه صوب الباب يرافقه عواء مبحوح ثم فتح
الباب :

كانت اطول ببوصتين .. وتضع نظارتين وقدعقصت شعرها بشكل جديد وتحلت بحلق جديد.ما ابسط صورة هذه المخلوقة التي تمثلتها طيلة سنوات ميتة بيدي .. بدت حبلى بشكل مريع هائل .. فقد انتفخ بطنها بحيث بدأ رأسها اصغر مما كان..وقد فقدت سمرتها فبان الزغب على ساعديها ..

وصاحت اذ رأتني بلهجة فيها كل الدهشة والترحيب :

– يا ... ه ..

فغمغمت ويدي على قبضة المسدس :

– زوجك في البيت ؟

ما كان بوسعي ان اقتلها انذاك فقد كنت احبها .. كان حباً من النظرة الاولى والنظرة الأخيرة .. والنظرة الدائمة والنظرة الأبدية ..

وهتفت بي لوليتا برنة مرحبة مرحة :

– هيا ادخل .. تفضل ..

وقالت ذلك وازاحت بطنها المكورة لتفسح لي طريقاً فمررت دون الاحتكاك بالوليد المغلف في بطنها .. ولكنني شممت رائحة العرق مصحوبة برائحة ما علق بجسمها من المطبخ .. فاصطكت اسناني كالأبله .. بينما اغلقت الباب وطردت الكلب ولحقتني الى الصالون هي وبطنها ..

وقالت لي وهي تشير بيدها :

– هو ذا زوجي ديك ..

وتطلعت عبر المطبخ الى الباحة حيث رأيت شاباً اسود الشعر ينحني على محرك يصلحه وبجانبه شاب آخر بذراع واحدة يتطلع اليه بينما استطردت لوليتا قائلة : هل اناديه ؟

فلما اجبت سلباً بسطت راحتيها، كما تفعل الراقصة الهندية اذ تفتتح الرقص ، لتخيرني بين الجلوس على المقعد الهزاز او الديوان الذي يتحول الى فراشها الزوجي بعد العاشرة ليلاً .

وجلسنا على الديوان وامتدت يدي بحذر تلامس في جيبي المسدس الأسود الملفوف بالمنديل فلما اقترحت ان تدعو زوجها من جديد فتعرفني عليه قلت لها :

– ليس هذا ما انشده .. انني اريد معرفة الآخر ..

هنا اختفت نظرة الترحيب المشرقة من وجهها وتغضنت جبهتها كما كانت تفعل في ساعات مراراتها معي :

– اوه ..

– اجل اين هو ! اجيبي بسرعة ؟

فقالت وهي تهز رأسها اضطراباً :

– اسمع .. لايجب ان تفتح هذا الموضوع

– كلا بل سأفتحه ..

ولما كانت امرأة عاقلة فقد كبحت اعصابها واخبرتني بان ديك لايعلم شيئاً من أمر ماضيها الحافل وانه يظن انني أبوها وانها ابنة عائلة ارستقراطية هربت عمداً من بيتها الوثير المترف ، كيما

تغسل الاطباق في مطعم وتعيش من كسبها.. انه يصـــدق كل شيء ولقد صدق كل اكاذيبها فلماذا اريد ان ازيـد من مصاعبها بإثارة الماضي وكشف خباياه ؟

فقلت لها ان عليها ان تكون منطقية ويجب ان تدرك بانـه يجب ان اعرف مـا حدث اذا كانت تتوقع ان تنال المعونة التي جئت لتقديمها وهكذا استطردت ملحاً :

– هيا اعطني اسمه ..

كانت تظن بانني كنت قد حزرت اسمه منذ زمن طويل .. انه اسم مثير وقد قالت لي انها ما كادت تصدق نفسهاماحدث.. وما كادت تصدق ان صاحب هذا الاسم هو الذي استخلصهـا مني .. ولكنها عادت تقترح ان انسى الامر فماذا يهم الآن اسمه بعد ان تزوجت . وحاولت تغيير الحديث بان اقترحت علي تدخين سيكارة فأجبت :

– كلا .. اعطني اسمه .

فلما هزت رأسها سلباً قائلة ان الوقت قد فات للعتب على ما مضى كما انني لن اصدق ما لا يصدق، قلت لها انه يحسن بي اذن ان اذهب .. يكفي انني رأيتها .

هنا ادركت عنادي فقالت : هل تريد معرفة اسمه حقاً انه.. عند هذا الحد انخفت صوتها وزمت شفتيها وذكرت اسماً لابد ان القاريء اللبيب قد حزره من قبل ..

خيل لي كذلك انني عرفت الاسم دون ان اعرفه اطلاقاً !! فلم اصب بدهشة ولا بهزة .وبدأت الأشيـــاء تتسلسل في ذهني

بترتيب ، بينما اخذت تحدثني عنه وانا اذوب في بوتقة هذا السلام الذي حل بي اخيراً وانقذني من التشويش الكاوي ..

قالت لي انه كان الرجل الوحيد الذي جنت بحبه..سألتها الا تحب ديك فقالت : اوه ديك انه حمل وديع .. انهما سعيدان معاً ، ولكنها تعني بالحب شيئاً آخر..اما انا فانني لم ادخل قلبها بالطبع فلم يكن لي نصيب من حبها الحقيقي ..

كان في كلامها ما يدل على انها تعتبرني قد ادركت ان ذلك الرجل الذي اختطفهامني قدعرف كل شعرة من جسمها الجميل. وكانت عيناها اذ تتحدث عنه تلتمعان ببريق خاطف .. تمازجه بعض المرارة ؛ ولكنه ينم عن شغف عميق .. اما علاقتنا نحن الأثنين فكانت تعتبرها كحفلة طويلة ثقيلة الظل .. مملة.. ملل وصلة تدريب .

ضربت على ركبتي بحركة عفوية فناشدتني !الا اكون عصبياً فقد مضى ما مضى وقالت لي انها تعتبرني أباً طيباً .. عطوفاً..

ومضت لوليتا تروي لي مزيداً من الامر :

كيف لم اعرف بانه قد عرف امها قبلاً ؟لقد كان عملياً صديقاً قديماً من اصدقاء العائلة .. وقد جاء الى رامسدل ونزل في ضيافة عمه وألقى محاضرة في نادي امها..بالطبع منذ سنوات طويلة . وانه داعبها حينذاك وعانقها وقبلها امام الجميع فأثار غضبها .. كانت حينذاك في العاشرة وقبل ان تعرفني بسنتين.. قالت لي انه رآني معها في احد الفنادق وكان يكتب المسرحية التي لعبت فيها دوراً فيما بعد في مدرسة بيردسلي .. اجل انه

المؤلف المسرحي كلير الذي جعلتني اظنه امرأة عانس . اجل ان الحياة كذبة بعد اخرى ولو كتب احد ما قصة حياتها لما استطاع قاريء ان يصدق مجرياتها .

عندما وصلت الى هذا الحد من روايتها تصاعدت جلبة من المطبخ حيث ولجه ديك ورفيقه بيل بحثاً عن البيرة ، فلما لمحاني دخل بيل الصالون فصاحت لوليتا بصوت ثاقب ،كان غريباًعلى اذني وينمّ مع ما فيه من مرح على حزن دفين :

– ديك هذا ابي ..

كان ديك ثقيل السمع بسبب اصابة تعرض لها في الحرب .

تصافحت مع ذلك الشاب الطويل الذي جلب لي علبة بيرة مع تحياته وقد بدا عليه انه ظن انني جئت لانزل في البيت بعض الوقت ، ولذلك فقد بادر مقترحاً بان ينام هو ولوليتا على فراش اضافي يفرشانه في المطبخ . فهززت يدي مستبعداً الفكرة وابلغت لوليتا بأنني ما جئت الا لزيارة عابرة اذ سأتوجه فوراً الى ريد سبورغ لألبي دعوة بعض الاصدقاء المعجبين فنقلت اليه لوليتا النبأ بصراخها الثاقب . ولم يلبث ديك ان انسحب مبتسما قائلاً انه سيذهب لاصلاح شيء ما وانه يظن ان لدينا اخباراً كثيرة يجب ان نتبادلها على انفراد .. وتمنى ان يراني قبل ان اذهب .

ولما ذهب نهضت فاجلستني لوليتا من جديد على الكرسي الهزاز فلم اطق الا ان اسألها من جديد .

ـ اذن لقد خنتماني ؟ اين ذهبتما ؟ اين هو الآن ؟ ..

وقدمت لي سيكارة رفضتها فاشعلتها لنفسها .. كانت هــذه اول مرة اراها تدخن فيها .. كان ذلك شيئاً محرماً ،عندمـــا كانت في عهدتي .. ومن خلال سحب الدخــان الازرق اللطيف بدت لي لوليتا وكأنها امها شارلوت هيز تنضو اكفانها وتخرج من القبر ..

وقطعت لوليتا الصمت المحرج قائلة :

ـ كلا لم اخنك لقد كان صديقاً قديماً .. صحيح ان احــدى صديقاتها قد حذرتها منه فهو يحب الفتيات الصغيرات .. بل انه سجن ذات مرة في نيويورك لتحرشه بمراهقة .. ولكنه لم يكن مثلي او مثلها مخلوقاً عادياً انما كان عبقرياً ..كله مسرات..قالت لي وانه انفجر ضاحكا عندما اعترفت له بحقيقة ما كان يجري بينها وبيني وقال انه كان يعتقد بأن مثل تلك العلاقة الآثمة قائمة بيننا..

قالت لي بأنه اخذها اول مرة الى مزرعة لايهم امرهــا الآن احداً فقد احترقت واضمحلت .. قالت لي انه اتصل بهــا ذات مرة وهي تلعب التنس..والهب خيالها اذ قال لها انه سيأخذها في ايلول (سبتمبر) الى هوليود ليعدلها تجربة سينمائية كيما تؤدي دوراً في رواية سينمائية كتبها..ولكن لسوء الحظ لم تأت ظروف مناسبة لتحقيق الفكرة ..

ـ اين هذا الخنزير المحتال الآن ؟

ـ انه ليس بخنزير..لقد كان رجلاً رائعاً في كثير من الوجوه ولكن المسكرات والمخدرات هي التي قضت عليــه .. وكــان ـ بالطبـع ـ مذواقا خبيراً بالقضايا الجنسية .. وكان يجعــل من

وقدمت لي سيكارة رفضتها فاشعلتها لنفسها .. كانت هذه اول مرة اراها تدخن فيها .. كان ذلك شيئاً محرماً ،عندما كانت في عهدتي .. ومن خلال سحب الدخان الازرق اللطيف بدت لي لوليتا وكأنها امها شارلوت هيز تنضو اكفانها وتخرج من القبر ..

وقطعت لوليتا الصمت المحرج قائلة :

ـ كلا لم اخنك لقد كان صديقاً قديماً .. صحيح ان احدى صديقاتها قد حذرتها منه فهو يحب الفتيات الصغيرات .. بل انه سجن ذات مرة في نيويورك لتحرشه بمراهقة .. ولكنه لم يكن مثلي او مثلها مخلوقاً عادياً انما كان عبقرياً ..كله مسرات..قالت لي وانه انفجر ضاحكا عندما اعترفت له بحقيقة ما كان يجري بينها وبيني وقال انه كان يعتقد بأن مثل تلك العلاقة الآثمة قائمة بيننا..

قالت لي بأنه اخذها اول مرة الى مزرعة لايهم امرها الآن احداً فقد احترقت واضمحلت .. قالت لي انه اتصل بها ذات مرة وهي تلعب التنس..والهب خيالها اذ قال لها انه سيأخذها في ايلول (سبتمبر) الى هوليود ليعدها تجربة سينمائية كيما تؤدي دوراً في رواية سينمائية كتبها..ولكن لسوء الحظ لم تأت ظروف مناسبة لتحقيق الفكرة ..

ـ اين هذا الخنزير المحتال الآن ؟

ـ انه ليس بخنزير..لقد كان رجلاً رائعاً في كثير من الوجوه ولكن المسكرات والمخدرات هي التي قضت عليه .. وكان ـ بالطبع ـ مذواقا خبيراً بالقضايا الجنسية .. وكان يجعل من

كل صديقة له عبدة طيعة .. قالت انها وجدت في المزرعة ما لا استطع ان اتصوره .. اجل لا استطيع ان اتصور ما كان يفعله ورفاقه ورفيقاته في المزرعـــة ، حيث رفضت الاشتراك معهم لانها كانت تحبه وحده حقا ولذلك فقد طردها ..

ـ ماهي تلك الاشياء ؟

ـ اوه .. اشياء فظيعة قذرة .. اشياء لايصدقها الخيال .. كان هناك شابان وفتاتان وثلاثه رجال .. وكان هو يطلب من الجميع ان يتخالطوا وهم عراة تماماً ، بينما تقوم امرأة عجوز بالتقاط افلام سينمائية لهم ..

وبعد هذا رفضت لوليتا ان تخوض في تفاصيل ما كان يحدث في تلك المزرعة .. مشيرة الى انها متزوجة والى انها تحمل جنيناً في بطنها ..

واستطردت لوليتا تروي لي امرها :

ـ لقد رفضت الانغماس معهم .. كنت اريـد ان اكون له وحده ، ولكنه لم يرض فطردني .. وبعد ذلك لم يحدث ما يهم .. ففي شتاء ١٩٤٩ وجدت عملاً في احد المطاعم حيث ظللت أعمل سنتين ثم التقيت بديك ..

سألتها اذا كانت اثناء ذلك قد عادت الى الاتصـــال بالآخر فنفت قائلة انها لم تكن تعرف فعلاً اين استقر به الأمر ، ولكنها لو ارادت معرفـة مقره لمـــا صعب الأمر عليهـا فهو شهير ومعروف ..

لقد عرفت كل ما اردت ان اعرفه فكففت عن سؤالهـــا

مزيداً من التفاصيل، اذ لم تكن تخالجني اي نية في تعذيب حبيبتي.

وفي تلك الاثناء تصاعد من المطبخ صوت الراديو في اغنية عن جنون الحياة والاقدار .. فاغمضت لوليتا عينيها وفرجت فمها وألقت برأسها الى وسادة الديوان .. فبدت كأنها امرأة بلت الحياة وتجاوزت كثيراً سن السابعة عشرة ..

تطلعت اليها وتأملتها ملياً فعلمت يقيناً، كما اعلم بانني سأموت، وانني احبها اكثر من اي شيء رأيته او تخيلته او رجوته في هذا العالم.

لم تكن في تلك اللحظة سوى صدى باهت لتلك الحورية المسعورة التي طالما عانقتها وانا اهزج فرحاً في الماضي .. كانت زهرة ذابلة، ولكنها لم تزل تحتفظ بشيء من ضوعها وبقطرات من الندى .. واحمد الله على ان هذا الصدى لم يكن الشيء الذي احببته وعبدته ..

ومع ذلك فقد كنت واثقاً من قدرتي على ان اعيدها كما كانت .. انني اقول هذا لانني اريد الدنيا ان تعرف كم احب لوليتا .. اجل انني لا ازال احب حتى هذه اللوليتا الحامل الشاحبة التي تحمل جنيناً من رجل آخر. ولهذا فكرت حينئذ باننا نستطيع ان نعود الى ما كنا عليه .. فقلت لها :

ـ اسمعي .. ربما قد يبدو كلامي في غير مكانه .. ولكن يجب ان اقول ما اقول .. ان الحياة قصيرة وليس بين هذا الصالون وسيارتي العتيقة سوى عشرين اوخمس وعشرين خطوة. انها مسافة قصيرة للغاية .. فهيا لنجتازها معاً ..

الان .. تعالي معي كما انت .. وسنعيش حتى الابد من السعداء .

فقالت لي وقد فتحت عينيها ولملمت ذاتها كحية تتأهب للسع :

ـ أتعني انك لن تعطينا(تعطينا !!) بعض المـــال الا اذا ذهبت معك الى فندق ؟ أهذا ما تعنية ؟

ـ كلا .. لقد اسأت فهمي .. انني اريدك ان تتركي ديك وتتركي هذا المكان الكريه اريدك ان تأتي لتعيشي معي وتموتي معي .. ولتشاركيني كل شيء ..

فقالت لي ووجها يتلون وملامحها تتغضن :

ـ انك مجنون ..

ـ فكري في الأمر .. ليس هناك من شروط .. انــك لن تكوني مقيدة معي بشرط الا ... ولكن لا يهم انني سأعطيك جهازك حتى لو رفضت الذهاب معي ..

فلما ابدت شكها ناولتها مظروفاً يحتوي على ٤٠٠ دولار وعلى شيك بمبلغ ثلاثة آلاف وستمائة دولار .

تناولت هديتي المالية بفرح وما لبثت جبهتهـا ان اصطبغت بالدماء المحتقنة وقالت وهي مبهورة الانفاس :

ـ اتعني انك تعطينا اربعة آلاف دولار ؟

غطيت وجهي براحتي وانفجرت باكياً وسكبت تلك اللحظة دموعاً لم اسكب من قبل في حياتي دموعاً بمثل حرارتها وتركت الدموع تخضب وجنتي وتتقاطر على ذقني ولم استطع ان امسك عن البكاء ، وعندما امسكت يدي باشفاق قلت لها :

ـ سأموت اذا مسستيني .. قولي هل انت متأكدة من انك لا تريدين الذهاب معي ؟ اليس هناك أمل في ان تأتي ؟ اجيبي ؟

ـ كلا .. ما من امل ياعزيزي ..

كلا .. هذه قضية غير واردة ..اذا ذهبت من منزل زوجي فسأذهب الى كلير كيلتي .. اعني ..

ارتبكت لوليتا عندهذا الحد كأنها كانت تقول لقد حطم هو قلبي اما انت فقد حطمت حياتي .. ثم استأنفت :

ـ انه كرم عظيم منك ان تعطينا كل هذا المبلغ الكبير انـه يسدد كل ديوننـا ونستطيـع ان نسافر الى الاسكا في الاسبوع القادم .. انك تسطتيع ان تفهم الحالة .. ارجوك لاتبكي .. اني آسفة لانني خدعتك ، ولكن ما حدث قد حدث ..

مسحت وجهي واصابعي من آثار الدموع ، بينما كانت تغمر المظروف المالي بابتسامةالشكر.. وارادت ان تنادي ديـك ، ولكني قلت لها انني راحل بعدلحظة ولا اريد ان اراه اطلاقاً.

وحاولتلوليتا ان تصطنع موضوعاً للحديث ،بينـما غلف الضباب نظراتي وخيل الي انى لا ازالارىفي هذه الشقيةالحبلى طفلة مراهقة في الثانية عشرة .. ذات الطفلة التياخذتها معي في رحلة مسعورة مسحورة .

وما لبثت ان عدتالى موضوع المال فقلت لهـا ان هـذا المبلغ هو ايجار بيت امها ..

وابدت دهشتها فقد كانت تظن ان البيت قد بيع منذ زمن بعيد وزدتها دهشة عندما قلت لها ان المحامي سيرسل لانحـة

بإرثها وان حالتها المالية مسرة فقد تركت لها امها سندات ارتفعت اسعارها كثيراً ..

طلبت مني لوليتا ان ابقى فقلت لها انني مضطر الى الرحيل.. اجل كان يجب ان ارحل وأن اكتشف مقره لازهاق روحه ..

وقامت لتودعني نظراً لأنه ما كان بوسعي ان اتحمل قبلة من شفتيها فقد اخذت انكفىء الى الوراء كلما خطت هى وبطنها المتكورة خطوة نحوي ..

وودعتني الى الباب حيث وقفت السيارة وقد دهشت اذ تطلعت الى السيارة بنظرات لا مبالية رغم ما تقترن به من ذكريات .. ذكرياتها وهي مراهقة دخلت باب الحياة الجنسية عن طريق هذه السيارة ..

سألتها مرة اخيرة بضراعة :

كلمة اخيرة .. هل انت متأكدة تماماً من انك لن تعودي الي .. لست اعني في الغد او بعد الغد .. انما اعني يوماً ما ؟ الن تأتي يوماً ما ؟ الن تعودي لتعيشي معي ؟.. انني سأخلق لنفسي الهاً جديداً وسأشكره بصرخات ثاقبة اذا اعطيتني هذا الأمل الميكروسكوبي الضئيل ..

ـ فاجابت باسمة :

ـ لا .. لا ..

ـ لو اعطيتني هذا الأمل لغيرت مجرى حياتي كلها ..

قلت هذا .. ولم اشهر مسدسي عليها، كما قد يتبادر الى ذهن

القارىء الساذج .. اجل فما خطر لي ذلك قطعاً ..

وهتف حبي الازلي الذي مات يودعني .. اقـول حبي الذي مات لأنها ميتة وخالدة حسب الاتفاق الرسمى مع مـــا يدعى بالسلطات القضائية .. فلقداتهمت بانني قتلتها واخفيت جثتها.. ورضيت بهذه التهمة ..

ماكدت اندفع بسيارتي مبتعداً حتى سمعتهـا تصيح بصوت مرتجف تنادي ديك واخذ الكلب يتوثب ملاحقاًسيارتي،ولكنه لم يلبث ان كف عن الجري فقد كان كلباً هرماً وبديناً ..

ومضيت اسوق سيارتي تحت سيل من الأمطار كان يقابـــله سيل من الدموع لم استطـع ايقافه .

- ٣٠ -

وتوجهت عائداً بسرعة الى مدينه رامسدال عن اقرب طريق لاصفي حساب خاطف لوليتا .. ذلك المؤلف المحتـــال . وفي الطريق توقفت في احدى القرى للراحة ، وكيما استعرض قضيتي من جديد .. فرأيت بأقصى البساطة والصفـاء ذاتي وحبيبتي .. ورأيت مما مر بنا من احداث كانت حتى ذلك الحـين تعود الى ذاكرتي غائمة ..

تذكرت انني قبل عامين قد ابدلت بهداية من قسيس كاثوليكي ذكي إلحادي بالمذهب البروتستنتي بايمان تسليمى كاثوليـــكي هو علاج قديم ، بما فيه من عنصر الاعتراف والحل من الخطيئة،لفك

عقد الاثم في النفس .. لقد ابدلت هذا بذاك في لحظة من الفضول الميتافيزيكي بأمل ان استنتج من شعوري بالاثم وجود كائن اعلى مطلق ..

لقد بذل ذلك القسيس كل جهده وعاملني باللطف فانا شاكر له ، ويا للاسف لم استطع ان اتجاوز عن واقع انساني بسيط هو ان ما من شيء يستطيع ان يُنسى لوليتا الشبق المنحرف الذي عرضتها اليه مهما وجدت في الاعتراف من راحة وجدانية وعزاء روحي . فما لم يثبت لي بانه من غير المهم اطلاقاً ان تحرم طفلة مراهقة امريكية هي لوليتا هيز من طهارة طفولتها على يد منحرف مهووس .. اجل ما لم يثبت لي ذلك (وان الحياة الخلقية بأن تكون اضحوكة لو امكن اثبات ذلك) فإنني لا اجد وسيلة تشفيني من شقائي سوى القاء اللوم على الاقدار بتلك الطريقة الاعتذارية التي تؤلف فناً قديماً من فنون التحلل من الذنوب .

- ٣١ -

ها انا من جديد اعود لزيارة رامسدال .. جئت اليها هذه المرة من طرف البحيرة وكان الوقت ظهراً وكل ما في الكون يلتمع ويبدو بجلاء .. ولقد مررت بالمقبرة وألقيت التحية على قبر شارلوت ، ثم مررت بالبيت القديم ، حيث علقت عليه لوحة تعرضه للبيع .. كان مقفل النوافذ يخيم عليه هدوء الموت .

وبعد ان توقفت برهة قدت السيارة مسرعاً الى الفندق الذي حللت به منذ خمس سنوات ، عندما جئت الى المدينة اول مرة .. فقد شعرت بانني اضيع وقتي بتأملات لا طائل منها .

في الفندق صادفت جمعاً من رفيقـــات شارلوت .. يتبادلن الوداع المتكلف بعد ان انتهين من مأدبة اجتماعية .. ولقد عرفتني منهن أم فيليس رفيقة لوليتا فقاربتني بصيحة دهشة وابتسامـة مزيفة تتألق بالفضول وبالغمزات واللمزات (كأنها كانت تتساءل هل صنعت بلوليتا ما صنعه الميكانيكي فرانك لاسال البالــغ من العمر خمسين عاماً بالطفلة سالي هورنر البالغة من العمر ١١ عاماً .. كانت الحادثة فضيحة الموسم عام ١٩٤٦ عندما جئت الى رامسدال)

وشرحت لها بشيء من النشوة انني اعيش في كاليفورنيا وان لوليتا قد تزوجت من مهندس شاب مرموق .. فكان جوابهـــا انها لا تقر هذه الزيجات المبكرة ، وانها لا يمكن ان تدع ابنتها فيليس البالغة من العمر ١٨ عاماً الآن ان ..

وقاطعتها مستجوباً :

— بالطبع .. ولكن هل اخبرتك فيليس رفيقة لوليتا في مخيم البنات كيف كان ابن المديرة تشارلي هولمز يفسق بالبنات اللواتي ترعاهن أمه ؟

غابت الابتسامة عن وجهها وصاحت :

— يا للعار ... لقد قضى هذا الغلام نحبه في كوريا ...

تركت هذه العجوز لاذهب الى بيت الدكتور مولنار خـال ذلك الوحش الذي اغوى حبيبتي .. لأستقصي عنـه ببراعـــة

لا تثير الشبهة .. والواقع انني استطعت ان اخفي نواياي فقال لي الطبيب بعد حديث متشابك بانه يظن بانني استطيع ان اجد كيلتي في بيته في ضاحية غريم رود ..

نزلت من عنده مسرعاً الى السيارة واخرجت مسدسي وحشوته بثمان طلقات تتوق الى الزناد .

●

على الطريق شرح لي عامل محطة البنزين كيف اصل غريم رود ونظراً لانني اردت ان اتأكد من وجوده فقد حاولت الاتصال ببيته هاتفياً ؛ ولكن مصلحة الهاتف اخبرتني ان هاتفه موقوف عن العمل بانتظار ان يسدد المترتب عليه ..

تساءلت اذا كان ذلك يعني انه قد رحل ؟

وسقت سيارتي يراودني قلق شديد من ان يكون قد غادر بيته .. فوصلت الى ضاحية باركينغتون وقد بدأت الظلمة تخيم فقررت ان اقضي ليلتي هنا لأعيد بسط خطتي ..

على انني مضيت الى غريم رود من اقرب طريق وكان الظلام قد بدأ يخيم على الكون ويحجب الرؤية . ولما وصلت الى امام البيت ارتسمت في ذهني صورة تلك القصور التي تجري فيها حفلات الفسق مع صغيرات في بداية ربيع العمر وتصورت لوليتا في هذا البيت الفاسق فغلى الدم في عروقي . على انني كبحت نفسي فلكل شيء ميعاده .. يكفي انني عرفت البيت الآن .

غادرت الفندق في الثامنة من صباح اليوم التـــالي بعد ليلة طال فيها سهادي وامضيت بعض الوقت في مدينة باركينغتون القريبة من غريم رود وظلت تلاحقني طيلة الوقت خيــالات تفاصيــل عملية اعدام كيلتي .. ولما خيل الي ان خراطيش المسدس قــد تبللت من زيته فانني ابدلتها حتى لا اترك سبيــلاً لطارىء مفاجىء ومسحت المسدس جيداً ولففته كوليد صغير بقطعة من القماش ..

ثم عدت الى غريم رود ترافقني عاصفة مدوية من الأمطــار والبروق والرعود فلما اقتربت منها كانت العــاصفة قد هدأت وعادت الشمس تسطع والعصافير تزقزق .. وبدا لي البيت قائماً في لجة من الوهج ثم ما لبثت ان ادركت اذ وطأت الأرض التي بدت لي مقلقة بانني قد افرطت في تنشيط نفسي بالكحول .

قرعت الجرس فأجابني صمت مطبق خيــل الي انه يهزأ بي ولكنني لم ايأس فقد رأيت سيارتــه في الكاراج وهكذا طرقت على البـــاب بشدة ولما لم يجب احد على طرقاتي دفعت الباب فانفرجت دفتاه كما يحدث في القصص الخرافية .

اغلقت الباب خلفي برفق وشققت طريقي عبر ردهـــة فسيحة بالغــة البشاعـــة ومن الردهة تلصلصت على غرفة الجلوس المجاورة فلاحظت اقداحاً فيهـــا بقايا السهرة وخلصت من منظرها الى ان صاحب البيت لا يزال نائماً في غرفته وهكذا

اندفعت صاعداً الى الطـــابق الثاني ويدي اليمنى تطبق على مسدسي المتهيء للانطلاق .وتفقدت ثلاث غرف منامة فوجدت ان احداً ما قد نام في واحدة منها الليلة الفائتة.. واخذت اتفقد بقية الغرف .. كان هناك العديد منها ثم مـــا لبثت ان توقفت واصابتني لوثة من الغباشة والدوخة فقد خطر لي انه ليس من الحكمة ان ادع لطريدي فرصة اللجوء الى غرفة واقفال بابهـــا عليه اذا صدف ان خرج من مكان ما ورآني .. اجل اصابني ذهول استمر عدة دقائق قبل ان اهرع الى استخلاص المفاتيـح من ابواب الغرف تحوطاً لهذا الطارىء ..

وبينما كنت أتوجه للبحث عنه في الحمام الثالث خرج صاحب الدار منه مخلفاً وراءه ذيلاً رفيعاً من المـاء المتساقط من شعره وحاولت ان اختبىء في زاوية الممر الا انهـا لم تحمني ولم تخفني تمامـاً .. ولم يلبث ان مر بي في منشفته دون ان يعيرني التفـاتاً ولربما كان السبب في ذلك يرجـع الى انــه لم يلمحني او حسبني شبحاً من اشباح اوهامه التي تلهبها المخدرات التي يتعاطاها .. على كل حال تابـع طريقه كأنما يسير في نومه منحدراً الى الطابق الاول .. وفي هذه الاثناء وضعت آخر مفتاح في جيبي وتبعته الى الردهة الاماميـة حيث رأيته يفتح فمه وباب البيت نصف فتحة ليطل من الباب على الدنيا المشمسة كشخص خال ان احداً ما قد ناداه .. ثم ما لبث ان قفل الباب وعاد متجهاً الى غرفة نومه عبر القاعة غير عابىءبالشبح الذي رآه يقفـفي وسط الدرج انما اتجه الى غرفة منامته بكل اطمئنان ، اما انا فقد

تركته يدخـــل الى غرفته وذهبت الى المطبخ حيث مسحت مسدسي من الشحم والزيت ثم اندفعت الى غرفة النوم بخطوات النمر . خطوات خفيفة اندفاعية .. بينما كان قلبي ينبض بفرح كالفرح الذي يساور النمر اذ يقفز على فريسته القفزة القاضية ..

وفي الطريق الى الغرفـــة قابلني سيد البيت في الصالون الشرقي الاثاث فقد كان قد احس بي وشعر بانه قد مر ما يكفي من الوقت كيما يتحقق من هويتي فسألني بصوت أجش وهـو يصوب نظراته نحو الشمال الشرقي من رأسي :

– والآن من تكون حضرتك ؟ هل انت بروستر ؟

تبين واضحاً من سؤاله انه جاهل تماماً بأمري وانه تحت ما يدعي برحمتي .. فوجدت انني استطيع امتـاع نفسي بملاعبته فقلت :

– لقد حزرت انني مسيو بروستر .. دعنا نتحدث قليلاً قبل ان نبدأ العمل .

فاهتز شارباه .. اذ لم يبد ان الأمر ازعجه فخلعت معطفي الشتوي وبانت سترتي السوداء وتحتها قميص اسود بدون ربطة وما لبثنا ان جلسنا على كرسيين عريضين ..

وقال لي وهو يحك ذقنه المثلثة ويفتح فمه عن ابتسامـــة خبيثة :

– انك تبدو لي كجاك بروستر .. أي ان الشبه بينكما ليس ملحوظاً وبارزاً .. ولكن احد اصحابي قال لي ان لجاك أخاً في مصلحة التلفون ذاتها التي يعمل فيها ..

شعرت بغبطة سمـــاوية لا توصف .. فقد كان من النعم العظمى ان اتأمل بمئات النظرات المتعاجبة المتسائلة الى تفاصيل هذا المخلوق تراوحـه نغمات الألم والقلق من وجودي .. وان اعرف ان هـذا الوحش الشبه مخدر الشبه مهووس قـد فسق بلوليتا واغواها .. أجل كان ذلك نعمة ولكنها لا تطاق ..

قلت له :

– أجل انني لست احد الاخوين بروستر ..

فهز رأسه متعاجباً مسروراً أكثر من قبل فقلت له :

– حاول ان تحزر من أنا ..

فأجاب : اذن جئت تزعجنابخصوص تلك المكالمات الهاتفية الخارجية .

– انك تقوم بتلك المكالمات مرة بعد اخرى ؟

– لست انا .. انهم أصدقائي .. الناس الذين يأتون الى هذا البيت فيغزونه دون استئذان ويستخدمون المطبخ والـبراد والحمام والتلفون لمكالماتهم الهاتفية .. ولذلك فانني أرفض أن أدفع أجرتها ..

ـ معك حق .. ولكن هل تذكر فتـاة تدعى دولوريس هيز . اعني لوليتا .

ـ بالطبع .. ربمـا هي التي قامت بتلك المكالمات .. انهـا كانت تطلب كل مكان بالهاتف من واشنطن الى الجحيم..ولكن ما اهمية ذلك بالنسبة لك ؟

ـ انني مهتم بالأمر يا كيلتي .. فأنا أبوها ..

ـ هراء .. انت لست أباها .. هراء .. لا بد انك وكيل احدى شركات النشر الفرنسية .. لقد ترجموا لي الى الفرنسية روايتي (كبرياء الجسد) ..

ـ لقد كانت ابنتي يا كيلتي .. فأنا أبوها ..

كان كيلتي في حالةنفسية جدية لايمكن معها لأي شيء ان يدهشه ولكن لا مبالاته لم تكن تامة فقد كان يراوحه قلق يلتمع في عينيه التماعة باهتة .. ولكن عينيه عادتا الى جمود نظراتهما وهو يقول :

ـ انني شخصياً مغرم بالأطفال..وان الآباء هم دائماً من بين أعز أصدقائي .

والتفت مفتشاًعن شيء ما وتحسس جيوبه ثم حاول انينهض من مقعده فصحت به بصوت كان أعلى مما قصدت :

ـ اجلس مكانك ..

ـ لست بحاجة لأن تصرخ في وجهي

قال ذلك متذمراً بلهجة متخنثة وأردف قائلاً :

ـ لقد أردت أن أدخن سيكارة .. سأموت إذا لم أدخن ..

ـ إنك ستموت على كل حال ..

ـ أوه كفى مزاحاً..لقد بدأت تضايقني ..ماذا تريد ؟ هل أنت فرنسي ؟ هل تريد أنتشرب شيئاً.. تعال الى البارلنشرب كأساً ..

وقطع كيلتي كلامه فقد رأى المسدس الأسود مبطوحاً على راحتي كأنما كنتأقدمه اليه.. وقال لي وهو يقلد لهجة الاشرار

في الأفلام السينمائية :

– هذا مسدس بديع .. ماذا تريد مقابله ؟

رفع يده فضربتها بيدي ولكنه استطاع ان يقلب على طاولة منخفضة علبة انيقة تناثرت منها السيكارات فقال فرحاً :

– ها هي السيكارات .. والآن نحن بحاجة الى كبريت

– اسمع يا كيلتي .. اريدك ان تعيرني كل انتباهك .. انك ستموت بعد لحظة .. وقبيل ذلك سيكون ما تبقى لك من الوقت حالة جنونية دائمة .. لقد دخنت سيكارتك الأخيرة بالأمس .. اعرني انتباهك وحاول ان تفهم ما سيجري لك ..

فقال وهو يجذب انفاساً من سيكارة غير مشتعلة :

– انني مستعد كيما احاول الانتباه اليك .. لابد انك يهودي استرالي او الماني لاجىء الى امريكا .. ولكن هل يجب ان تتحدث إلي حقاً ؟ هذا بيت مسيحي كما تعلم ولربما كان الأفضل ان تغادره .. وكف عن اللعب بهذا المسدس .. ان لديّ مسدساً اضخم في غرفة الموسيقى .

صوبت مسدسي نحو قدمه وضغطت على الزناد فتطلع الى المسدس ثم الى قدمه بينما أزّ الزناد ولكن الرصاصة لم تنطلق فبذلت مجهوداً ثانياً وهكذا انطلقت الرصاصة وثقبت السجادة السميكة .. ومسني شعور جنوني بأن الرصاصة لم تستقر في موضعها وانها ستقفز من جديد الى الفضاء ..

وقال لي كيلتي بغير انفعال كبير :

– هل فهمت ما أعنيه .. يجب ان تكون اكثر حذراً . هيا

اعطني هذه اللعبة بحق المسيح .

ومد جسمه يحاول أخذ المسدس ولكنني دفعته الى مقعده والغبطة تغمرني فقد آن الأوان لإهلاك عدوي ومع ذلك فقد كنت حريصاً على ان اجعله يدرك بأنه سيلقي حتفه على يدي.. وهكذا قلت له :

– هيا ركز افكارك على لوليتا هيز التي اختطفتها ..

فصاح : انني لم اخطفها .. انك مخطىء تماماً إنما انقذتها من فاسق متوحش .. هيا أرني بطاقتك البوليسية بدلاً من تصويب نارك الى قدمي ايها القرد .. اين هي شارتك البوليسية ؟ انني لست مسؤولاً عن اعمال اغتصاب الفتيات التي يقوم بها غيري.. انه سخف ان اتهم باغتصاب لوليتا . لقد ذهبت معي في جولة كانت سخيفة ثقيلة على نفسي .. ثم انك استعدت لوليتا أليس كذلك ؟ .. هيا لنشرب شيئاً في البار ..

وهنا سألته ببرود اذا كان يريدني ان اعدمه واقفاً أمجالساً فقال :

– آه دعني افكر .. ليس هذا بسؤال هين..وبالمناسبة لقد ارتكبت خطيئة بدعوة لوليتا الىمرافقتي وصدقني انني لم اسر برفقة ابنتك . فأنا عملياً رجل عنين اذا اردت الحقيقة.. ومع ذلك فقد امضت معي اجازة بديعة وقابلت اناساً ممتازينبارزين.. وفجأة انقض علي فطار المسدس الى ما تحت الخزانة . ولحسن الحظ كان كيلتي ضعيف البنية فلم اجد كبير عناء في دفعه من جديد الى مقعده .

وسألني وهو ينفخ ويشخر وقد كتف ساعديه :

– والآن ؟ ماذا سنفعل ؟

انحنيت فلم يتحرك.. فازددت في انحنائي لالتقاط المسدس بينما استطرد يقول :

– كف عن هذا العبث بالحياة والموت.. انني مؤلف مسرحي كتبت التمثيلية التراجيدية والدراماتيكية والكوميدية وانني كاتب حوار ماهر اعرف جميع الحيل المسرحية.. هيا دعنا نحل المشكلة عملياً ونتفق على تسويتها مادياً .

وإذ كنت منبطحاً بجانب الخزانة كنت احاول ألا يغيب عن بصري وقد رأيته من جديد يحاول ان ينهض وفجأة لاحظ بأنني لم ألاحظ ان المسدس هو في غير الجانب الذي افتش فيه عنه فانقض علي من جديد وأخذنا نتصارع متكامشين كطفلين ونحن نتقلب على الأرض .. كان عارياً تحت الروب دي شامبر وقد شعرت بالإختناق في كل مرة ركبني فيها بجسده البدين .. ومضينا نتقلب متصارعين تماماً كما يحدث في افلام رعاة البقر الامريكية .

وأخيراً استعدت قواي واستعدت السيطرة على الموقف فأجلست ضحيتي في مقعده بعد ان استرجعت المسدس وقررت ان افحص المسدس فلربما قد فسد فيه شيء فقد حرصت من ان تكون استعداداتي تامة قبل ان انتقل الى المرحلة الثانية.. ولما تيقنت من حسن استعدادي اقترحت عليه ان يقرأ بذاته حكم الإعدام الصادر عليه مني .. وناولته ورقة مطبوعة بالآلة الكاتبة

تحتوي على الحكم مكتوباً بعبارات شعرية .. فقد اردت ان تكون عدالتي شعرية . وقد جاء فيها :

وبما انك قد استثمرت ضعف خاطئة .. ونظراً لأنك استغللت حراجة مراكزي وانا في وضع لا حول لي فيه ولأطول .. وفي وقت كنت فيه التمس أرق الرجاء وانا مقصوص الجناحين احلم بالزواج في مدينة جبلية ساحرة مع حبيبتي الصغيرة لوليتا ..

وبما انك قد استغللت براءتها وخدعتني وخدعتها وبما انك عرقلت خلاص روحي باتحاد روحي معها .. ولأنك أغويتها وهي في سن المراهقة حيث يدخل الصغار مرحلة تجارب الخطأ والصواب في الحياة .. وبما انك أغويتها وهي لم تزل طفلة لاهية .. ونظراً لأنك سرقتها من وصيها العاجز تاركاً اياه في اشد حالات اليأس والقنوط والقلق .. بما انك اخذت تلك الدمية الجميلة وتلاعبت بها ثم حطمتها وألقيتها الى قارعة الطريق ونظراً لأنك سببت لي ما لا يطيقه انسان من العذاب والقهر .. نظراً لكل ما جنته يداك يجب ان تموت » .

قرأ هذا الحكم الشعري وهو يعلق بين الحين والآخر على جمال اسلوبه فلما انتهى ناولني الورقة قائلاً :

ــ الحق يقال انها قصيدة ممتازة .. انها احسن ماقرأت لك من قصائد ..

وهنا سألته من جديد جاداً إذا كان له ما يقوله جدياً قبل ان يموت .. سألته بعد ان أعددت مسدسي بحيث ينطلق الرصاص عند اول ضغط .. ولهذا فقد تطلع إليه وأطلق آهة

عالية وقال :

– والآن يكفي يا هذا .. انك ثمل وانا مريض .. دعنا نرجىء الأمر فانني بحاجة الى الراحة والهدوء قبل ان يأتي اصدقائي لأخذي الى الصيد .. الحقيقة ان مهزلة تصويب المسدس اصبحت مزعجة مضجرة .. اننا نحن الاثنين خبيران بالعالم .. بالجنس بالشعر المنثور .. بالصناعة الادبية وبالاجتماعيات .. فاذا كنت تحمل لي في صدرك غلاً فانني مستعد لأن ادفع لك غرامة تزيل غلك .. بل انني مستعد من اجل ذلك لمبارزتك وفق تقاليد الفروسية القديمة واترك لك اختيار سلاح المبارزة ومكانها ان ذاكرتي وبلاغتي ليست اليوم كما يرام ولكنني اذكر مع ذلك يا عزيزي همبرت بأنك لم تكن وصياً مثالياً كما انني لم اقسر ربيبتك على ان تلحق بي بل هي التي جعلتني انقلها الى ملاذ اسعد وإلى بيت اهنأ .. ليس الى هذا البيت فهو غير حديث كبيت المزرعة التي شاطرتني اياه لوليتا مع اصدقاء اعزاء .. ان هذا البيت مع ذلك مريح فسيح واقترح عليك ان تحل فيه إذ انوي قضاء زمن طويل في بريطانيا او فلورنسة .. او غيرهما .. اجل خذ البيت اسكنه مجاناً .. ولكن بشرط ان تكف عن تصويب هذا المسدس البشع الى وجهي .. ثم انني استطيع ان اهديك مع البيت اذا كنت محباً للكلاب كلبة ذات ثلاثة اجراء .. والآن لنكن منطقيين .. اذا افلتت منك رصاصة فإنك ستصيبني بجرح مفزع سأشفى منه واذهب للنقاهة في مصح استوائي بينما ستتعفن انت في السجن .. انني اؤكد لك بأنك

ستكون سعيداً اذا اقمت في هذا البيت .. بـــل سأعطيك ما استحقه من حقوق نشر وتمثيل مسرحيتي التالية .. ان عندي رصيداً كبيراً في البنك كما تعلم .. ولكنني انوي ان اقترض . إن الاقتراض يسرني .. انه حافز .. ولذا لا انوي الا ان اقترض واقترض واقترض ..

ثم ان هنالك فوائد اخرى تفيد منها اذا قمت في البيت .. ان السيدة فيبريسا .. اسم غريب أليس كذلك ؟؟ تقوم بخدمته مرتين في الاسبوع .. انها ذات بنات وحفيدات.. نسيت ان اقول لك انني اعرف عن مدير البوليس شيئاً يجعله عبدي المطيع انني كاتب مسرحي لقبت باسم مترلنك امريكا .. هيا كف عن تصويب المسدس لقـــد اذللتني وجعلتني لا اعرف اذا كنت احسنت العمل بتقديم تلك العروض إليك ؟ والآن كن لطيفاً والق بهذا المسدس جانباً..وانصحك بأن تخلط بعد الآن الويسكي بالروم .. انني اعرف زوجتك المتوفاة معرفة سطحية ..انــك ستحب هذا البيت ويمكنك ان تستخدم ثيابي الموجودة فيه .. ثم انني املك مجموعة رائعة فريدة من الكتب والصور الجنسيــة المهيجة .. بالاضافة الى كتاب ميلاني دايس مزين بثمانمائة صورة لثمانمائة جهاز تناسلي .. صورتها تلك الكاتبة الرحالة الممتازة .. وبالاضافة كذلك الى صورجنسية مضيئة هيا الق هذا المسدس.. واذا كنت تائقاً الى رؤية عملية اعدام فسأدبر لك الأمر .. ليس كل انسان يعرف ان الكرسيالكهربائي مدهون بالأصفر .

عندمـــا وصل الى هذا الحد من هزره ضغطت الزناد فدوت

أول رصاصة ولكنها أصابت هذه المرة شيئاً صلباً .. لقدأصابت الكرسي الهزاز فأخذ يتأرجح الى الأمام والوراء . واطلقت رصاصة أخرى اصابته في يده فأخذ يلوح بها مألوماً ثم اندفع كالبرق واتجه الى غرفة الموسيقى التي نسيت ان اسحب مفتاحها ولذا هجمت عليه واخذنا نتعارك للحصول على المفتاح .. وانتصرت عليه مرة أخرى فحار فيما يفعل واندفع يعزف على البيانو بيده الدامية انغاماً هستيرية مرتجلة ..وصوت زفيره يملأ جو الغرفة . ووقفت أرقبه متسلياً محاولاً ان احفظ تلك الأنغام المحمومة .. وفجأة رأيته يحاول ان يفتح بقدمه باب خزانة قرب البيانو .. وهكذا فان رصاصتي التالية أصابته في مكان ما من جانبه فنهض قافزاً الى الأعلى .. كنمر في سيرك .. ككابوس من كوابيسي .. ارتفع كما لو كان يريد التعلق بحبال الهواء ..ثم هبط على قدميه وعاد مرة أخرى رجلاً عادياً ما لبث ان لجأ الى القاعة ..

انني من هذه الزنزانة أرى نفسي وانا اتبعه عبر القاعة بقفزات عريضة طاوعتني عليها ساقاي .. كنت قوياً رشيقاً في هذه القفزات كراقص الباليه وقد قفزتها ليس فقط من اجل ان ألحق به بل كذلك من أجل ان اسبقه واتخطاه .. ذلك لأن باب القاعة لم يكن مقفلاً كما يجب .. وإذ رآني سبقته اخذ يسير بخطوات وئيدة رزينة وبدأ يصعد الدرج فغيرت وضعي إلا انني لم ألحقه بل اكتفيت بأن اطلقت عليه ثلاث او اربع رصاصات في تتابع سريع كانت تصيبه بجرح نازف كل مرة .. وكان وجهه

ينقبض انقباضة مألوفة بشعة مضحكة ، كلما أصابته إحـــدى الرصاصات ، كما لو كان مهرجاً يبالغ في اظهار الألم.. وكان يغلق عينيه نصف اغلاقة ويرتعد ويصدر آهة متخشنة .. كما لو كنت أدغدغه ..

ثم بدأ يقول بلغة سليمة وبلهجة البريطانيين ، كلما اصبتـــه برصاصة عمياء في جانب من جسده الدامي :

ـ آه إنها تؤذيني يا سيدي .. كفى يا سيدي انك تسبب لي ألماً فظيعاً . أرجوك ان تكف عن هذا العمل الخشن ياسيدي.. آه ان الألم شديد شديد يا سيدي .. آه هذا فظيع رهيب يجب عليك بحق الله ان تكف عن اطلاق النار..وأخذصوته يضعف ويخبو إذ وصل الى قمة السلم ومع ذلك فقد ظـــل يسير رغم الرصاصات التي ملأت بها جسده الدامي..وبدا لي كأن رصاصاتي تحقن ذلك المسكين بحقن من الطاقة ، كما لو كانت هي محقونة بإكسير الحياة .. وكان تجلده على الموت مثار قرفي واشمئزازي وإشفاقي.

حشوت المسدس من جديد بيدين سوداوين مضرجتين بالدم فلقد لمست شيئاً ضمخه بنجيعه الكثيف ، ثم تبعته الى الطابق الثاني والمفاتيح ترن في جيبي كالدراهم فوجدته ينتقل من غرفة الى غرفة والدماء تنزف منه وتضفي عليه مهابة دامية ، بينما كان يحاول ان يجد نافذة مفتوحة يهرب عبرها .. فلما رآني اخذ يهز رأسه سلباً محاولاً ثني عن قتله فصوبت مسدسي الى رأسه ففر الى غرفة نومه وينبوع من الدم ينفجرمن المكان الذي كان يدمي

بإذنه اليسرى ..

ولما دخلت عليه صاح بي وهو يسعل ويزمجر :

ـ اخرج .. اخرج من هنا ..

كان ما رأيته يشبه منظراً في كابوس .. فعلى الرغم من الدم الذي يجلله ويتقاطر منه وعلى الرغم من جراحاته فقد رأيته .. رأيت تلك العجينة الدامية .. رأيته يدلف بعظمة الى سريره كما لو كان في أتم عافية ..

ولما اسدل الملاءة على جسمه صوبت مسدسي من قرب وأخذت امطره بالرصاص ، حينما تكور جسده فاضطجع مستوياً وخرج الزبد ملوناً بالدم وتعاقد حول شفتيه .. ثم ما لبث ان اطلق نفثة دامية كالبالون ثم تلاشت .

ربما كنت قد اضعت في ذلك الحين صلتي مع الواقع ، ولكن لثانية أو ثانيتين .. ربما جننت في تلك البرهة ولا أقول هذا للدفاع عن نفسي ، اذ انني اريد أن اؤكد مسؤوليتي عن كل نقطة دم سالت منه وخرجت مع ريقه من فمه ..

في لحظة الجنون تلك انتقلت بي المخيلة موقتاً فرأيت نفسي كما لو كنت في مخدعي الزوجي ورأيته كزوجتي شارلوت مريضة في فراشها ..فصوبت فردة النعل إليه بدلاً من تصويب المسدس إذ كنت جالساً على المسدس ..ثم اتخذت على الكرسي وضعاً ادعى للراحة ومكثت لحظة الجنون تلك وانا استشير ساعة معصمي . كان زجاجها قد خلع ، ولكنها ظلّت تسير ورأيت اذ أفقت من لحظة الضياع ان عملية الاعدام قد استغرقت اكثر

من ساعة فلم اهتم إذ همدت حركته أخيراً .. على انني لم أطق ان ألمسه لأجزم بأنه قد مات حقاً .وعلى كل حال كان يبدوعليه انه قد مات فعلاً،فقد ذهب ربع وجهه وتناثر نخاعه وربضت على تلك الوليمة النخاعية ذبابتان ، ربما لم تصدقا ان الحظ الطيب يمكن ان يقدم لهما مثل هذا الغذاء الشهي الوفير ..

نظرت الى يدي فلم أجدهما احسن حالاً من يديه المضرجتين فغسلتهما في الحمام المجاور بأحسن ما استطعت ، وإذ فعلت ذلك اصبحت في وضع استطيع معه مبارحة المنزل ، وإذ أخذت انزل الدرج دهشت ،عندما اكتشفت ان ما توهمته طنيناً في اذني كان في الحقيقة ألحاناً موسيقية تتصاعد من راديو الصالون مختلطة بأصوات بعض الأشخاص .

وبالفعل وجدت عدداً من الأشخاص الذين بدا عليهم انهم قد وصلوا لتوهم وكانوا يعبون الشراب .. وميزت رجلاً بديناً في مقعد عريض وفتاتين جميلتين بجدائل سوداء فاحمة وبشرة شاحبة .. كانتا شقيقتين بلا ريب وكانتا تجلسان جنباً لجنب على الأريكة، ثم رأيت رجلاً مشرق الوجه يحمل قدحين من البار..

وقفت في مدخل الصالون وقلت للجميع :

لقد قتلت لتوي كلير كيلتي .

فأجابني مشرق الوجه : حسناً فعلت ..

ومضى يقدم قدحاً الى الفتاة الكبرى بينما لاحظ الرجل البدين قائلاً :

ـ كان يجب ان يقتله أحد ما .. وقبل زمن طويل..

وهنا سمعت صوتاً من وراء حاجز البـــار فتطلعت ورأيت شقراء تهتف :

ـ ماذا يقول هذا السيد ؟

ـ انه يقول انه قد قتل كيلتي ..

وعلق على الحديث رجل كان يقعي بجانب خزانة الاسطوانات :

ـ حسناً .. اعتقد أنه كان علينا بالذات ان نقتله ذات يوم .. وعلى كل حال لا أصدق انه قتل، ولست مستعداً لانتظاره اكثر واذا كان يريد الذهاب للصيد فعليه ان ينزل في الحال .

وقال الرجل البدين من مقعده :

ـ ليعط احدكم هذا الرجل قدحاً ..

وفجأة توقفت الموسيقى لحظة وسمعنا ضجة من أعـــلى السلم فتطلعنا متجهين الى مصدرها لنرى ان كيلتي قد استطـــاع ان يزحف الى عتبة الدرج ، ولنراه يترنح متخبطاً ليقع صريعاً، وقد لفظ انفاسه الأخيرة ..

وصاح رجل بجانبي ..

ـ عجل يا كيلتي . انني اعتقد انه لا يزال ..

ولم اسمع بقية كلامه فقد طغت عليه الموسيقى إلا انني قلت لنفسي :

ـ هذه هي نهاية المسرحية التي وضعتها لإنهاء حياة كيلتي ..

وهكذا غادرت المنزل بقلب مثقـل ومشيت الى سيارتي ، حيث وقفت امامها سيارة ووراءها سيارة فوجدت صعوبة في إخراجها والانطلاق بها الى عرض الطريق .

- ٣٤ -

ما بقي من القصة ليس سوى ظل باهت يذوي في الذاكرة.. فقد خرجت من البيت وسقت منحدراً رجوعاً الى باركينغتون حيث تركت معطفي في غرفتي والمسدس في الحمام ..

لم يكن بيت كيلي بالبيت الخليق بأن أحب الحياة فيه.. هكذا قلت لنفسي وأنا اشعر بالرغبة في ان انسى كل ما حدث .. ذلك انه علمت بأن خصمي قد مات فإن الارتياح الوحيد الذي أصابني كان يتمثل في تخلصي من عبء ذهني ثقيل.. فقد كان علي لو لم يمت ان اتصور ذهنياً لعد أشهر مراحل شفائه مما اصابه ومراحل عملياته الجراحية وفقاً لصحته ..ولربما زارني في سجني وجعلني أحس به كشبح ..

امتد الطريق أمامي منبسطاً وخطر لي ان اتغاضى عن جميع القوانين الانسانية وهكذا اخذت اسير على الجانب الأيسر من الطريق مجرباً شعور مخالفة القوانين فوجدته شعوراً لذيذاً ..

ثم اخذت اسوق ببطء ولطف ولكن مستمراً في مخالفة القوانين فكانت السيارات التي تمر بي تزمجر بشدة بزماميرها أما التي كانت تأتي في مواجهتي فكان اصحابها يصيحون ويشتمون فزعين .. وما لبثت ان وجدت نفسي اقترب من الأماكن المأهولة .. ومضيت أخالف قوانين السير فكنت اشعر اذ اسير رغم وجود شارة الضوء الأحمر بذات اللذة التي كانت تراوحني اذ كنت اسرق رشفة من النبيذ المعتق الذي كان محرماً علي اذ

كنت صبياً .

ولكن استمراري في المخالفات ما لبث ان عقـــد الأمور وهكذا وجدت سيارتين تعترضان سبيل سيارتي بشكل أجبرني على التوقف ولكنني استطعت ان انفلت ونجحت في الانكفاء عائداً الى الطريق الريفي ثم اضطررت الى التوقف بعد رجتين أو ثلاث فقد اصطدمت بقطيع من البقر .

وجاءت بعد ذلك الأيدي تسحبني من السيارة حيث كنت في الواقع اتوق الى ان اسلم نفسي لمن يريد دون الأتيان بأية مقاومة ودون التعاون مع من يجرني .

واذ كانوا ينقلونني الى عربة الإسعاف أرخيت مفاصلي متمدداً بهذه العناية في حملي من رجال البوليس والاسعاف .. وفي تـلك الأثناء اخذت اسمع هديراً أعاد الى الذاكرة ذلك الهـدير الذي سمعته ذات يوم شعرت فيه بالغثيان وأنا اسوق السيارة بحثاً عن لوليتا الهاربة فانحدرت الى طريق جانبي بأمـل ان يحسن الهواء النقي من حالي وتبينت هاوية سحيقة أوقفت سيارتي قربهـــا وجالدت إغراء قوياً بأن اندفع بسيارتي إلى احضانها .

ان هذا الهدير الذي عدت وسمعته لم يكن سوى تغريـــد الطفلات المراهقات وهن يلعبن ويمرحن .. اجـل لم يكن سوى ذلك ليس إلا ..

هذه هي قصتي كلها .. لقد أعدت قراءتها فوجدت فيها طعماً من المرارة .. وشممت منهـا رائحة النجيع ورأيت الذبابتين الخضراوتين تحومان على ما تناثر من دماغ كيلتي .

وفي سردي لهذه القصة حاولت جهدي ان اخفي ما يؤذي الناس وجربت عدة اسماء مستعارة لنفسي قبل ان يقع اختياري على اسم همبرت همبرت .

وعندما بدأت قبل ستة وخمسين يوماً في كتابة لوليتا في هذا الأطار من النبضات الوجدانيـة وفي جو من العزلة والانفراد فكرت في استخدام هذه القصة أثناء محاكمتي ولكن ليس لانقاذ رأسي انما بالطبـع لإنقاذ روحي وخلاصها ..

غير انني لما وصلت الى منتصف القصة أدركت بأنني لم استطع أن أخلق بيانياً لوليتا كما كانت في حياتها .

لأسباب قد تبدو أكثر بديهية مما هي في الواقع أعارض في عقوبة الأعدام معارضة فكرية لا شك ان القاضي الذي سيفصل في قضيتي يشاركني إياهـا . ولو انني قاضيت نفسي ولحكمت على همبرت همبرت بالسجن ٣٥ عاماً بجريمة الاغتصاب وأعلنت عدم مسؤوليته عن التهم الباقية .

ولما كانت لوليتا خليقة بأن تعمر أكثر مني حتى لو حكمت بتلك المدة ولم أحكم بالاعدام،فانني اتخذت الاجراءات القضائية الآيلة الى عدم نشر المذكرات ما دامت لوليتا على قيد الحياة ..

وهكذا فعندما يقرأ القارىء هذه القصة فإن كلينا (لوليتا وأنا) سنكون في عالم الأموات .

(تمت)

لوليتا

قــــصةَّ حُب تعاَلج حـــاَلات وانفعالات عاطفية قد يجد فيها المنافقــون الإجتماعيون مايجب ان يثير الخجل والذعر ، والحقيقة انها رواية واقعيةَّ يوضح الكاتب في كل صفحـــة من صفحـــاتها عاطفة من عواطف الحبّ بكل بساطةٍ وصدقٍ ...

لذلك تعتبـــر عَملاً فريداً في تاريخ القــــصة المعاصرة.. وقـــد امتازت لوليتا بـــأنهَا تضعَ العاَشقــين على مذبـــح المجتمع كما صنعت كل قـــصص الحـــب الشـــهيرة في الماضي ..

علي مولا

دار أسامة

دمشق ـ مجمع فيكتوريا التجاري ـ تلفون : ٢٢٣٢٣٢٦ ـ فاكس : ٢٢٤٨١٨٠ ـ ص.ب : ٤٣٠٦